الباب الثانى

الملاحة والجمال

وعبقريانهم فى جمال المرأة إجمالا وتفصيلا

ومفاضلهم إياها على التجمل والنظافة والزينة

الجمال إجمالا :

فى الحديث الشريف « لايدخل الجنةَ من كان فى قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبْر ، فقال رجل : إنَّ الرجلَ يحب أن يكون ثوبه حسَنا ونعلُه حسنا ! وفى رواية : فقال ابن مسعود : أمِنَ الكِبْرِ أن ألْبَسَ الحُلَّةَ الحَسَنَةَ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (إن الله جميل يحب الجمال ، ويُحِبّ أن يُرَى أثرُ نعمتِهِ على عبده ، الكِبرُ : أن تسفَهَ الحق وتغمِطَ الناسَ)

وفى الأثر « ثلاثٌ يُجَلِّينَ البَصَر : النظر إلى الخضرة ، وإلى الماء ، وإلى الوجه الحسَن » .

وفيه (النظر إلى الوجه الحَسَن يورث الفرح ، والنظر إلى الوجه القبيح يورث الكلَح)[1] .

وفيه (النظر إلى الجارية — الفتاة — الحسناء يزيد فى البصر) .

وفيه (اطلبوا الخير من حِسَانِ الوجوه)[2] .

ومن كلامهم : من كان فى صورةٍ حَسَنة ، ومَنْصِبٍ لا يَشِينُه ، وَوُسِّعَ عليه فى الرزق ، كان من خالِصَةِ الله .

---

(١) الكلح : تقبض الوجه من العبوس .

(٢) وقال بعضهم : معنى اطلبوا الخير من حسان الوجوه : اطلبوها من الوجوه التى يحسن بالمرء أن يطلبها منها .

وقالت عائشة رضى الله عنها (يَؤُمُّ القومَ — أى فى الصلاة — أقرؤهم لكتاب الله عز وجلّ ، فإن كانوا فى القراءة سواءً فأصبحهم وجهاً) .

وقال بعضهم (الجمال مرحوم) .

وقال آخر (شفيع الحُسْن مقبول) .

وقال الحكم بن قنبر المازنى :

وَيْلِي على من أطارَ النومَ فامتنعا ... وزاد قلبي إلى أوجاعه وجعا

كأنما الشمسُ فى أعطافه لمعتْ ... حُسْناً أو البدرُ من أزراره طلعا

مُسْتَقْبَلٌ بالذى يهوى وإن كثرتْ ... منه الإساءةُ ، معذورٌ بما صنعا

فى وجهه شافعٌ يمحُو إساءتَهُ ... من القلوب ، وَجيهاً حيثُما شفعا

وقال أيضا — أى الحكم بن قنبر :

ليسَ فيها ما يقال لَهُ ... كَمَلَت لَوْ أنَّ ذَا كَمَلا

كلُّ جُزْءٍ من محاسنِها — ... صائرٌ من حُسْنِها مَثَلا

لَوْ تَمَنَّتْ فى مَتَاعَتِها ... لَمْ تُرِدْ مِنْ نَفْسِها بَدَلا

« مَتَاعَتِها : ظَرْفها ، والمتاع من كلّ شىء : البالغ فى الجودة الغاية » .

وقال الأعشى :

فَأَفْضَيْتُ منها إلى جَنَّةٍ ... تَدَلَّتْ عَلَيَّ بأثمارِها

وقال أبو نُواس :

يَزيدُكَ وجهُهُ حُسْناً ... إذا ما زِدْتَهُ نظرا

وكانت الفُرْسُ تتيمَّن بالوَجْهِ الحَسَن وتقول : إنَّ الحُسْنَ أوَّلُ السعادة للمرء ، فإنَّ الله تعالى بلطيف حكمته وشريف إبداعِهِ وصنعتِهِ لم يخلُقْ

شيئاً عَبثاً ، ولم يجعل الصورةَ مصطفاةً مختارةَ الصفات ، سليمةً من الآفات إلا عن فضل اختفاء منه تعالى بها . . . قالوا : وقلَّما تُوجَدُ الأخلاق الجميلة إلا تابعةً لِلخَلْقِ الجميل .

وقال أنس بن مالك : ما بعثَ الله نبيًّا إلا حسَنَ الوَجْهِ حسَنَ الصَّوت ، وكان نبيُّكم صلى الله عليه وسلم أحسنَهُم وجهاً وأحسنَهُم صَوتا . .

وقال البيروني : إن الحُسْنَ والجمالَ محبوبان بالطَّبع مرغوبٌ فيهما ؛ حتى إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كانَ يَستوفِدُ حِسانَ الوجوه والأسماء[1] ، وكان يَنْقُل الأسماء المستكرَهةَ في النَّاسِ والبقاعِ إلى الأسماء المستحسَنةِ . . .

ومن كلامهم (الحُسْنُ أحمَرُ) « أى أنَّ الحُسْنَ شاقٌّ » ، قال ابن الأعرابى : يريدون إن تكلَّفْتَ الحُسْنَ والجمال[2] فاصْبِر فيه على الأذى والمشقَّة ، يقال ذلك للرجل يميل إلى هواه[3] ويختَصُّ بمن يُحِبُّ ، كما يقال : الهوَى غالبٌ ، وكما يقال : إن الهوَى يميل بأَسْتِ الراكب : إذا آثر من يهواه على غيره . أقول: ومعنى ذلك : أن الحُسْنَ من شأنه أن من يُولَعُ به ويصبو إليه يُلاقِى فى سبيله ما يلاقيه من يمارس الحرب ، من الدماء ، أى من طلب الحُسْنَ وطَّنَ نفسه على الصبر على الشدائد والمشاق .

وذهب بعضهم إلى أن معنى قولهم الحسنُ أحمَرُ هو ما أشار إليه الشاعر إذ يقول :

---

(١) يستوفد : أى يوفدهم إلى الملوك وأشباه الملوك .

(٢) تكلفت : أى أولعت وأحببت .

(٣) هواه : أى هويه ومن يهواه .

هِجانٌ عليها حُمْرَةٌ فى بياضها يَروقُ بها العينَيْن والحُسنُ أحمر (١)

ومعنى ذلك أن الجمال لا يكون إلا إذا مازجَ بياضَ البشرةِ حُمْرةٌ

وجَرَى مِنْ دَمِ الطبيعةِ فيه لونُ وَرْدٍ كسَا البياضَ احمرارا

ولأن الحمرة إنما تعترى البياضَ من رقة اللون وصحّةِ الدم .

قال البكرى : العرب تسمّى النساء الحسانَ الحُمْر ، ومن ذلك قول جرير وقد سُئِلَ عن الأخطل : هو أوْصَفُنا للخمْرِ والحُمْر ، يعنى : حسانَ النساء ، قال البكرى : ومن شبّهَ المرأة بالنار فإنما أشار إلى هذا المعنى ، قال : وقولهم فى المثل : الحسن أحمر هو من هذا الباب ؛ وقال بشار بن برد :

وإذا خَرَجْتِ تَقَنَّعِى بالحُسْنِ إن الحُسْنَ أحمر

وسنورد فى عبقرياتهم فى الألوان كثيراً من عبقرياتهم فى البياض والسمرة والصفرة والسواد » .

***

وحدّثَ الشعبيُّ قال : دخلتُ المسجدَ باكراً فإذا أنا بمُصْعَب بن الزُّبير والناسُ حولَهُ ، فسلّمتُ ثم ذهبتُ لأنصرفَ ، فقال لى : أدْنُ ، فدنوتُ منه حتى وضَعْتُ يدى على مِرْفَقَتِه — المتّكأ يُتّكأ عليه بالمرفق — فقال : إذا أنا قمتُ فاتْبَعْنى ، وجلس قليلا ، ثم نَهَضَ ، فتوجه نحو دار موسى بن طلحة فتبعتهُ ، فلما أمْعَنَ فى الدار التفت إلىّ وقال : ادخُلْ ، فدخلت معهُ فإذا حَجَلَة (٢) ، وإنّها لأوّل حَجَلَة رأيتُها لأمير (٣) ، فقمت ودخلَ الحجلة ، فسمعت حَرَكَةً ،

---

(١) الهجان من كل شىء : خياره وخالصه ، والضمير فى يروق لبياضها والضمير فى بها للحمرة .

(٢) الحجلة : مثل القبة .

(٣) ولاه أخوه عبد الله بن الزبير العراقين ، فتولاهما حتى سار إليه عبد الملك بن مروان ، ووجه أخاه محمد بن مروان على مقدمته فلقيه مصعب فقاتله حتى قتل — أى مصعب .

فكرهت الجلوسَ ، ولم يأمُرْنِي بالانصراف ، فإذا جارية قد خرجَتْ فقالت : يا شعبيُّ ، إن الأميرَ يأمُرُكَ أن تجلسَ ، فجلست على وسادةٍ ، ورُفِعَ سَجْفُ الحجلة ، فاذا أنا بمصعب بن الزبير ، ورُفِعَ السجف الآخر[1] فإذا أنا بعائشة بنت طلحة ، فلم أر زوجاً قطُّ كان أجملَ منهما : مصعبَ وعائشةَ ، فقال مصعب : يا شعبيّ ، هل تعرف هذه ؟ فقلتُ : نعم أصلحَ اللهُ الأميرَ ، قال : ومن هي ؟ قلت : سيدةُ نِساء المسلمين عائشةُ بنت طلحةَ ، قال : لا ، ولكن هذه لَيْلَى التي يقول فيها الشاعر — هو كُثيِّر عزَّة :

ومازلتُ من لَيْلَى لَدُنْ طرَّ شاربي ... إلى اليومِ أُخْفِي حُبَّها وَأُداجِنُ[2]

وأَحْمِلُ في لَيْلَى لقومٍ ضغينةً ... وتُحْمَلُ في لَيْلَى عليَّ الضغائنُ

ثم قال : إذا شِئْتَ فقُم ، فخرجتُ ، فلمَّا كان العشيُّ رُحْتُ إلى المسجدِ ، فإذا مُصْعَبٌ بمكانه ، فقال لي : أدْنُ ، فدَنَوْتُ ، فقال لي : هل رأيتَ مِثلَ ذلك الإنسان قطّ ؟ قلتُ : لاَ والله ، قال : أفتدْرِي لِمَ أدْخَلْناك ؟ قلتُ : لاَ ، قال : لِتُحَدِّثَ بما رأيت ، ثم التفت إلى عبد الله بن أبي فَرْوَة فقال : أعْطِهِ عَشَرَةَ آلافِ دِرْهَم وثلاثينَ ثوباً ، فما انصرفَ يومئذٍ أحَدٌ بمثل ما انصرفتُ بعشرَةِ آلافِ دِرْهَم ، وبمثل كارَةِ القصَّار[3] ثياباً ، وبنظرةٍ من عائشة بنتِ طلحة !

وكان أشْعَبُ فيمنْ يألفُ مصعبَ بن الزبير ، فغضِبَتْ عائشةُ بنت طلحة يوماً على مُشْعَب ، وكانت مِنْ أحَبِّ الناسِ إليه ، فشكا ذلك لأشعب ،

---

(١) السجف بكسر السين و بفتحها الستران بينهما فرجة ، أو الشق من الستر ين المقرونين على الباب .

(٢) طر شارب الغلام : طلع ونبت ، وأداجن : أداهن وأخاتل .

(٣) القصار : محوِّر الثياب ومبيِّضها ، وكارة القصار : ما يجمع ويشد من ثيابه وسميت كذلك لأنه يكور ثيابه فى ثوب واحد ويحملها فيكون بعضها فوق بعض .

فقال أشعب: مالي إن رضيت أصلح الله الأمير؟ قال: حكمك، قال: عشرة آلاف درهم. قال: ذلك لك، فانطلق أشعب حتى أتاها، فقال لها: جعلت فداك! قد علمت حبي لك ومَيْلي إليك قديماً وحديثاً على غير منال أنلتنيه، ولا فائدة أفدتنيها، وهذه حاجة قد عرضت ترتهنين بها شكري، وتقبضين بها حقي بغير مرزئة[1]، قالت: وما هي؟ قال: قد جعل لي الأمير إن رضيت عنه عشرة آلاف درهم. قالت: ويحك! لا يمكنني ذلك. قال: بأبي أنت وأمي! ارضَ عنه حتى يعطيني العشرة الآلاف درهم، ثم عودي إلى ما عوّدك الله من سوء خلقك: فضحكت من كلامه ورضيت. وقال جميل بثينة: ما رأيت مُصْعَباً يختال بالبلاط[2] إلا غرتُ على بثينة وبينهما ثلاثة أيام.. أي أن مصعبا كان جميلا، كما كانت زوجته جميلة..

هذا، وهذه عائشة بنت طلحة هي عائشة بنت طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عن الجميع، وخالتها أمّ المؤمنين السيّدة عائشة رضي الله عنها، وكانت من أجمل نساء قريش، وكانت شبيهة بخالتها علماً وأدباً، وكانت من أحبّ الناس إليها، ومن ثَمّ زوجتها من ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، فولدت له عمران وعبد الرحمن وأبا بكر وطلحة ونفيسة، فكان عبد الله أبا عُذْرتها[3] وكان ابنها طلحة أجودَ قريش في عهده، كجدّه، ولمّا هلك زوجها عبد الله تزوجها

---

(١) أي من غير أن ترزأ في مالها أي يؤخذ منه شيء يريد من غير أن تخسر شيئاً.

(٢) البلاط: موضع بالمدينة مبلط بالحجارة بين مسجد سيدنا رسول الله وبين سوق المدينة.

(٣) العذرة: البكارة يراد أنه أول من تزوجها.

مُصْعَب بن الزبير ، فقُتِلَ عنها ، ثم تزوَّجها عُمَر بن عبيد الله ابن مَعْمَر فبَنَى بها بالحِيرَة ، ومُهِّدت له يومَ عُرسِه فُرُشٌ لم يُرَ مثلها ، فانصرف تلكَ الليلة عن سبْع مرَّات ... فلقيتْه مولاةٌ لها حينَ أصبحَ فقالت : يا أبا حفص ، كلْتَ فى كلِّ شىء حتى فى هذا ! فلما ماتَ ناحتْ عليه وهى قائمةٌ ، ولم تَنُحْ على أحدٍ منهم قائمةً — وكانت العرب إذا ناحت المرأةُ قائمة على زوجها عُلِمَ أنها لا تُريد أن تتزوَّج بعده — فقيل لها : ياعائشةُ ، ما صنعْتِ هذا بأحدٍ من أزواجك ! قالت . إنه كانت فيه خلال ثلاث لم تكُن فى أحد منهم : كان سيدَ بنى تَيْم ، وكان أقربَ القومِ بى قرابة ، وأردتُ أن لا أتزوَّجَ بعْده .

* * *

ورأى رجُلٌ شُرَيحًا القاضى يجولُ في بعض الطُّرُق فقال له : ماغَدَا بِكَ ؟ فقال : عسيت أنْ أنظرَ إلى صورة حَسَنة ...

* * *

وقال محمد بن وُهَيب :

نَمْ فقَدْ وكَّلْتَ بى الأرقَا ... لا هنَا بَعْدُ من عشِقا
إنما أبقيْت من جَسَدِى ... شبَحًا غيرَ الذى خُلِقَا
ما لمنْ تُمْتَ محاسِنُه ... أنْ يُعادِى طَرْفَ مَنْ رَمَقَا
لكَ أن تُبْدِى لنا حَسَنًا ... ولَنَا أنْ نُعْمِلَ الحَدَقَا

وقال غيره :

إنى امرُؤٌ مُولَعٌ بالحسْنِ أتْبَعُه ... لاحظَّ لى فيهِ إلا لذَّةُ النَّظَرِ

* * *

وكانت عائشة بنت طلحة لا تستر وجهها ، فعاتَبَها مُصْعَب بن الزبير

فى ذلك ! فقالت: إنّ الله وسَمَنى بميسَم جمال فأحببتُ أنْ يَراهُ الناسُ ويعرِفُوا فَضْلى عَليهم، فما كنت لأستُره ، ولو عَلِمتُ فى وصْمَةً أستترُ لها لاستترتُ لها ! وكان مُصعب إذا عزَم عليها فى الاستتار استترتْ ، وإذا سكتَ عنها أسفرَتْ وبرزَتْ للناس .

وكان من عادةِ نساء العرب أنّ الجميلة منهن كانت تُسفِرُ ولا تضعُ قِناعاً قال عمر بن أبى ربيعة :

ولما تفاوَضْنا الحديثَ وأسفرَتْ ... وجوهٌ زهاها الحُسْنُ أن تتقنّعا (١)

تبالَهْنَ بالعِرفانِ لمّا عرَفْتنى ... وقلْنَ امرؤٌ باغٍ أكلٌّ وأوْضَعا (٢)

وقرّبْنَ أسبابَ الهوى لِمُتيَّمٍ ... يَقيسُ ذِراعاً كلما قِسْنَ إصبعا (٣)

أمّا عُمرَ بن الخطّاب فقد كانَ إذا رأى امرأةً مُنتقبةً — واضعةً نقابا — قالَ لها أسفِرى نِقابك ، فإن رآها حَسَنةً أمرها أن تَنتقِبَ ، وإن رآها قبيحةً منَعها منَ النّقاب .

* * *

المتمنّية ونصر بن حجاج :

بينا عُمَرُ بن الخطاب يَعَسُّ ذاتَ ليلة (٤) فى بعض سِكَكِ المدينة إذْ سَمِعَ

---

(١) الضمير فى زهاها إما راجع إلى امرأة قد ذكرها أو إلى الوجوه يقول : لما تنازعنا الحديث واندفعنا فيه وأسفرت وجوه — أى أشرقت وظهرت — استخفها الحسن ومنعها من أن تضع قناعها إعجاباً بحسنها وجمالها وإدلالاً بهما .

(٢) تبالهن : تغافلن وزعمن أنهن لم يعرفنى ، وأكلّ من الكَلال وهو الإعياء ، وأوضع : أسرع ، يقول : وقلن : هو باغ ، أى متعد أسرع حتى أتعب راحلته .

(٣) يقول : انهن فعلن ما يوجب الطمع فى وصلهن حتى قربن أسباب الهوى لمن أستبعده الحب فصار يقدر فيه ذراعاً إذا قدرن إصبعاً ، أى أن هواه يزيد على هواهن .

(٤) قالوا أول من عس بالليل فى الاسلام هو عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

نشيدَ شِعْرٍ مِنْ دَار ، فوقفَ يُصْغِي فإذا امرأةٌ تقول :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إلى خَمْرٍ فأشربَها ... أمْ مِنْ سَبِيلٍ إلى نَصْر بن حَجَّاج

إلى فَتًى ماجِدِ الأعْراقِ مُقْتَبَلٍ ... سَهْلِ المحيَّا كَرِيمٍ غَيْرِ مِلْجاجِ[1]

تَمَّتْهُ أعْراقُ صِدْقٍ حِينَ تَنْسُبُهُ ... أخى حِفاظٍ عن المَكْروب فرَّاج

وهذا نَصْرُ بنُ حجاج بن علاطٍ البَهْزى كانَ مِن أجْمَلِ الناسِ ، واسْمُ هذه المرأة كما قال فريق من النسابين : الذَّلفاء ، وقال آخرون : هي الفُرَيْعَة بنت همام أُمُّ الحجَّاج بن يوسُفَ الثَّقَفِيّ ، وكانت عشقت نَصْراً وهى تحت المغيرة بن شعبة[2] ، ويقال : لمَّا أنشدت هذه الأبيات قالت لها امرأةٌ معها : من نَصْرُ بنُ حجَّاج ؟ قالت : رَجُلٌ وَددتُ أنه مَعِى فى ليلة من ليالى الخريف في أطول ليلة من ليالى الشتاء وليس معنا أحد ، فلما سمعها عمر قال : من هذه المتمنية ؟ فالزمها هذا الاسم وشاع حتى ضَرب به المثل نِساء المدينة وقلن : أصبُّ من المتمنِّية . . . ثم إن عُمَرَ دعا بها وضَرَبَها بالدِّرَّة ضَرَبات ، ثُمَّ سأل عنها ، فلَمْ يخْبَرْ عنها إلا بخير ، فلما كان من الغَد أرسل إلى نصر بن حَجَّاج فأحْضَرَه ، فلما رآه بَهَرَه جَمالُه ، فقال له : أنْتَ تتمنَّاكَ الغانيات فى خدورهنَّ لا أُمَّ لك !

---

(١) يقال : فلان مقتبل الشباب : أى مستقبل الشباب : إذا لم يُرَ عليه أثر كبَر ، وملجاج لجوج من لجَّ فى الأمر : تمادى عليه وأبى أن ينصرف عنه ، تقول : أنه ليس لجوجا عنيداً .

(٢) قال هؤلاء محتجين فى ذلك أن الحجاج حضر مجلس عبد الملك بن مروان يوماً ، وعروةُ بن الزبير يحدِّثه ويقول : قال أبو بكر كذا وسمعت أبا بكر يقول كذا — يعنى أخاه عبد الله بن الزبير — فقال له الحجاج : عند أمير المؤمنين تكنى أخاك المنافق لا أمّ لك ! فقال له عروةُ : يا ابن المتمنية إلىَّ تقول لا أمّ لك وأنا ابن إحدى عجائز الجنة : صفية وخديجة وأسماء وعائشة .

أما والله لأزيلنّ عنك الجمال ، ثم دعا بحجام فحلق جمّته[1] ثم تأمله فقال : أنت محلوقا أحسن ، فقال نصر : وأيّ ذنب لى فى ذلك ؟ فقال : صدقت ، الذنب لى إذا تركتك فى دار الهجرة ، ثم أركبه جملا وسيّره إلى البصرة وكتب به إلى مجاشع بن مسعود السُّلَمِيّ : بأنى قد سيّرت المتمنّى نصر بن حجاج إلى البصرة .

وكما قالوا بالمدينة : أصبُّ من المتمنّية قالوا بالبصرة : أدنف من المتمنّى ، وذلك أن نصر بن حجّاج لمّا ورد البصرة أخذ الناس يسألون عنه ويقولون أين المتمنّى الذى سيّره عمر ؟ ثم إنّ نصرا لمّا نزل البصرة أنزله مجاشع بن مسعود منزلة ، لقرابته ، وأخدمه امرأته شُمَيلة — وقيل اسمها الخضراء — وكانت أجمل امرأة بالبصرة ، فعلقته وعلقها ، وخفى على كلّ واحد منهما ما بالآخر ، للازمة مجاشع لضيفه ، وكان مجاشع أُمّيا ، ونصر وشُمَيلة كاتبين ، فعيل صبر نصر ، فكتب على الأرض بحضرة مجاشع : إننى أحبّتك حبّا لو كان فوقك لأظلّك ، أو تحتك لأقلّك ، فوقّعت تحته غير محتشمة : وأنا والله كذلك ، فكتب مجاشع على الكتابة إنّاه ، ثم أدخل كاتبا فقرأه ،

---

(١) فى رواية : فحلق شعره — أى جميع شعره ، كما هو المراد بحلق جمته . فصار كأنه أصلع ، وكان عمر بن الخطاب أصلع لم يبق من شعره إلا حفافاه — وهو شعر حول صلعته — فيروى أن نصرا لما حلق عمر رأسه قال :

لعمرُ ابنُ خطّابٍ على بجمّةٍ ... إذا رُجّلت تهتزُّ هزّ السلاسلِ
فصلّع رأسا لم يصلّعه ربّه ... يرفّ رفيفا بعد أسود جائلِ
لقد حسد الفرعان أصلع لم يكن ... إذا ما مشى بالفرع بالمتخايلِ

« الفرعان واحده الأفرع وهو التام الشعر وضده الأصلع واحد الصلعان » .

فأخرجَ نصراً وطلَّقها، وقيل : إنَّهُ قالَ لِنَصر : يا ابن عَمّ ، ما سيَّرَكَ عُمَرُ من خير ! قُم فإنّ وراءك أوسعَ لك . فنهَض مُستحيياً ، وعَدَل إلى مَنزل بَعض السُّلَميّين، وَضَنِىَ من حُبّ شُمَيْلةَ ودَنِفَ حتى صار رَحْمَة ، وانتشرَ خبرُه ، فَضَرَبَ نساءُ البَصرةِ به المثل : فقُلْنَ : « أدْنَفُ من المُتَمَنَّى » ثم إنّ مجاشعا وقف على خبر علةِ نصْر ، فدخل عليه عائداً ، فلحِقتْه رِقَّةٌ لِما رأى به من الدَّنَف ، فرجع إلى بيته وقال لِشُمَيْلةَ : عَزَمْت عليكِ لمَّا أخَذْتِ خُبزاً فلَبَكْتِه بِسَمْن ثمَّ بادَرْتِ به إلى نصر ، فبادَرَتْ به إليه ، فلم يَكُنْ به نُهوضٌ ، فضمَّتْه إلى صَدرِها وَجعلَت تُلْقِمه بيدِها ، فعادَت قُواه وَبَرَأَ كأن لم تكُن به قَلَبَةٌ [1] فقال بعضُ عُوَّادِه : قاتَلَ اللهُ الأعْشى حيث يقول :

لَوْ أسْنَدَتْ مَيْتاً إلى نَحْرِها عاشَ ولم يُنْقَلْ إلى قَابِرِ

فلما فارقته عادَه النُّكْسُ . ولم يزل يتردَّدُ فى علَّته حتى مات منها .

***

وَمَرَّ رَجُلٌ فى أرض بَنى عُقيل قال : فرأيتُ فتاةً جَميلة تَدافَعُ فى مَشْيها تَدافُعَ الفارس المختال ، تنظُرُ عن عينَين نجلاوَيْن بأهْداب كقوادم النُّسور [2] لم أرَ أكْمَلَ جمالاً منها ، فوقفتُ لأكلِّمَها ، فقالت لى عجوز بفِناء منزلها : مالكَ ولهذا الغزال النَّجديّ الذى لا حَظَّ لك فيه سوَى قول القائل :

وَما لَكَ مِنها غير أنَّكَ ناكِحٌ بِعَيْنَيْكَ عينيها فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُ

فقالت لها الفتاة : دَعِيه يا أُمّاه يَكُن كما قال ذو الرُّمة :

---

(١) يقال : ما بالعليل قَلَبَةٌ : أى ما به شىء ، لا يستعمل إلا فى النفى .

(٢) القوادم : مقاديم الريش فى كل جناح عشر .

وإنْ لم يكُنْ إلاّ مُعَرَّجُ ساعَةٍ قليلا فإنّى نافِعٌ لى قليلُها[1]

* * *

وقال أبو الغُصْنِ الأعرابىّ : خَرَجْتُ حاجًّا ، فلما مَرَرْتُ بِقُبَاء تَدَاعَى أهله[2] وقالوا : الصَّقِيل الصقيل[3] فنظرت وإذا جارِيَةٌ — فتاةٌ — كأنّ وَجهَهَا سيفٌ صقيل ، فلما رميناها بالحدَق أَلْقَت البرقُعَ على وَجهِها فكأنما غمامةٌ غطّت شمسا ، فقلنا : إنّا سَفْرٌ[4] وفينا أجر ، فأمْتِعينا بوجهك ؛ فانصاعَت وأنا أعرف الضّحكَ فى وجهها وهى تقول :

وكُنْتَ مَتَى أرْسَلْتَ طرفَكَ رائداً لِقَلْبِكَ يوماً أتعبتك المناظرُ[5]

رأيتَ الذى لا كُلُّهُ أنتَ قادرٌ عليه ولا عنْ بعضِهِ أنتَ صابِرُ[6]

* * *

وكانَ محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان يُسَمَّى الديباج[7] لجماله ، وقالت له امرأةٌ يوماً : أنت تَفْخَرُ بالجمال وإنما ذلك فخرُ النساء ، وفخرُ الرجال بالإجمال[8]

(١) التعريج : الإقامة على الشىء وحبس المطى على المنزل .

(٢) تداعى أهله : أى دعا بعضهم بعضاً حتى يجتمعوا .

(٣) الصقيل : أى المجلو ويقال للسيف الصقيل لجلائه وهم يشبهون الجميل بالسيف المجلو . (٤) سَفْر : مُسافِرون .

(٥) من أبيات حماسة أبى تمام ، والرائد : الذى يتقدم القافلة ليتأمل حال الماء والكلأ لهم ولذلك قيل : الرائد لا يكذب أهله ، لأنه إن كذبهم هلك معهم ، وجعل العين رائداً للقلب لأن القلب يشتهى ما تستحسنه العين ويكره ما تستكرهه قال :

ألا إنما العينان للقلب رائد فما تألف العينان فالقلب آلف

(٦) هذا تفصيل لما أجمله فى قوله : أتعبتك المناظر يقول : رأيت أشياء كثيرة حسنة لا تصبر عنها ولا تقدر عليها .

(٧) الديباج : الثوب الذى سَداهُ ولحمتـــه من حرير ، أو الثوب المتخذ من الإبريسم — الحرير — وديباجة الوجه وديباجه : حسن بشرته .

(٨) الإجمال : الإحسان فى كل شىء وفعل ما هو جميل .

فقال لها : وإذا جمعَ الرجل بين الجمال والإجمال فقد حاز مرتبة الكمال .

***

ونازعت عائشةُ بنت طلحةَ زوجَها إلى أبى هريرةَ رضى الله عنه ، فسقط خمارُها عن وجهها ، فقال أبو هريرة : سُبحان الله ! ما أجملكِ ! والله لكأنَّما خرجتِ من الجنة ! فلما سمع زوجُها ذلك هاجَ فى نفسِه منها هائجٌ ، فقامَ فرَضَّاها وأخذ بيدها ورجع إلى ما أرادت منه .

***

وخرج أبو حازم — وهو سلمة بن دينار من كبار التابعين — يرمى الجمارَ ومعه قوم ناسِكُونَ وهو يحدِّثهم ، فبينَاهُمْ كذلك إذْ نظروا إلى امرأة من أجملْ الناس تتلفَّتُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً وقد شغلَتِ الناس وبُهتُوا ينظرونْ إليها ، وخاض بعضهم فى بعض ، فقال لها أبو حازم : يا هذه ، اتقى الله فإنك فى مَشعَرٍ من مشاعر الله ، وقد فتنْت الناس ، فاضربى على جَيْبِك بخِمارِك ، فانَّ الله تعالى يقول (وليَضْرِبْنَ بخُمُرِهِنَّ عَلَى جيوبهنَّ) فأقبلت تضحكُ من كلامه ، وقالت : يا هذا ، إنى مِمَّن قال فيهن الشاعر — هو العَرْجىُّ — :

مِن اللَّاء لم يحْجُجْنَ يبْغِين حِسْبَةً ولكنْ ليقتُلْنَ البَرِىء المغفلا[1]

فأقبلَ أبو حازم على أصحابه وقال : يا هؤلاء ، تعالَوْا نَدْعُ الله أنْ لا يُعَذِّبَ هذِهِ الصورَةَ الحسنةَ بالنار ، فجَعَل يَدعو وأصحابُهُ يُؤمنونَ .. وبلَغ ذلك سعيدَ بن المسيَّب سيدَ التابعين وأحَدَ الفقهاء السبعة رضى الله عنه فقال . أما

---

(١) الحسبة : الأجر والثواب ، والمراد بالمغفل الذى لم يجرب الأمور ولا يعرف الشر .

والله لو كان من بعض بُغَضاء العراق[1] لقال لها : اعزُبى قَبَّحَكِ الله ، ولكنه ظَرْف عُبَّادِ أهل الحجاز .

***

وقالت السيدة سُكَينَةُ بنت الحُسَين رضى الله عنهما يوماً لعائشة بنت طلحة : أنا أجْمَلُ مِنك ! فقالت عائشةُ : بَلْ أنَا أجْمَلُ مِنك ! واختَصَما إلَى عُمَرَ بنِ أبى ربيعةَ . فقال : لأقْضِيَنَّ بينكما ، أمَّا أنتِ يا سُكَينةُ فأمْلَح ، وأمَّا أنْتِ يا عائشَة فأجْمَل ، فقالت سُكينة : قضَيْتَ لى والله عليها .

ويوضح هـذا قولهم : الجميلَةُ هى التى تأخُذُ بِبَصَرِكَ جملةً على البُعْد ، فإذَا دَنَت لم تكن كذلك ، والمليحة هى التى تأخُذ بقلبك على القرب ؛ أو التى كلما كرَّرْتَ فيها بصَرَك زادتْكَ حُسْنًا .

ومن كلامهم : الحلاوَة فى العينين ، والجمال فى الأنف ، والملاحةُ فى الفم .

وقالت امرأةُ خالدِ بن صفوان له يوما : ما أجْمَلَكَ ! قال : ما تقولين ذاك ومالى عمودُ الجمَال ، ولا عَلَىَّ رداؤه ولا بُرْنُسُه ، قالت : ما عمود الجمال وما رداؤه وما بُرْنُسُه ؟ قال : أمّا عمودُ الجمال فَطُول القوام وَفىّ قِصَر ، وأمَّا رداؤه فالبَياضُ ولستُ بأبيضَ ، وأمّا بُرْنسُـه فَسَوادُ الشَّعر وأنا أصْلَع ، ولكن لو قلتِ : ما أحلاكَ وما أملحَكَ كانَ أولى .

***

وقد كانوا يَذهَبُون إلى أنَّ العَينَ حَقٌّ ، وأنّ الجميل قد تَعِينُه عينُ عَدُوّ أو حَسُودٍ فَتُؤثّر فيه فيمرَض بسبب ذلك ، فقد كان الشاعر الملقب بالمُقَنَّع الكِنْدىّ — شاعر مُقِلٌّ من شعراء الدولة الأموية — كان هذا المُقَنَّع الكندى

---

(١) يريد بهم المتزمتين المتغالين فى الورع .

من أجمل الناس ، كانَ أحسنَ الناس وَجهًا وأمدَّهم قامة وأكملهم خَلْقا ، فكانَ لِذلك يتقنّع ؛ لأنَّه كانَ مَتَى سَفَرَ لُقِعَ : أى أصيب بعين .

أبو رهبل وصاحبه :

وكانَ أبو دَهْبل الجُمَحى الشاعر[1] جميلا وضيئًا ، وكانَ له جُمَّة ـ قُصَّة ـ يُرسِلُها فتضرب منكبيْه ، وكانَ عفيفاً ، فخرجَ إلى الشّام ، فنزل جيرُونَ ، فجاءته عَجوزٌ فقالت : إنّ ابنةً لى وَرَدَها كتابٌ من حميم لها وليس عندها أحدٌ يقرَؤُه ، فتَدْخُلُ اليها فى هذا القصر فتقرَؤُهُ ، فتحتَسِبُ الأجرَ فيها ، ففعل فدَخلَ ، فأغلقَ البابُ دُونه ، وإذا امرأةٌ فى القصرِ رأتْهُ فأعْجَبَها ، فدَعَته إلى نَفْسِها ، فأبَى ، فأمرَتْ حشَمَها فسَجنُوه فى منزل من الدّار ومُنِعَ مِن الطعام والشراب حَتَّى كادَ يَهْلِكُ ، ثُمَّ أمرَتْ به فأُخرِجَ ودَعتْهُ إلى نفسها فأبى ، وقال : أمّا الحرامُ فلا ، ولكن إنْ أردْتِ أنْ أتزوّجَكِ فعلْتُ ، فقالت : نعَم ، وأحسَنَتْ اليه حَتَّى رَدت له رُوحَهُ ، فتزوّجَتْهُ ومَنعَتْه مِن الخُروج

---

(١) هو وَهْبُ بن زَمْعَة .... بن جُمَح ، قال الشعر فى آخر خلافة على بن أبى طالب ومدَح مُعاوية وعبد الله بن الزبير وقد ولاه ابن الزبير بعض أعمال اليمن وهو القائل من أبيات :

أليسَ عظيما أنْ نكونَ ببلدةٍ ... كِلانَا بها ثاوٍ ولا نتكلّمُ

والقائل من أبيات :

تطاوَل هذا اللّيلُ ما يتبلّجُ ... وأعيَت غواشى عبرَتى ما تفرّجُ

وبتُّ كئيباً ما أنام كأنّما ... خِلالَ ضُلوعى جمرَةٌ تتوهّجُ

نطوراً أُمنّى النفسَ مِن عمرَةَ المُنَى ... وطوراً إذا ما لجّ بى الحزنُ أنشِجُ

لقد قطَعَ الواشونَ ما كان بيننا ... ونحنُ إلى أنْ يُوصلَ الحبلُ أحوجُ

« أنشِجُ : فالنشيج : صوت معه توجع وبكاء » .

حتّى طالَ ذلك عليه ، ثُمَّ قال لها ذاتَ يَوم : قد أَثِمْتُ فى وَلدِى وأَهْلى ، فأَذَنى لى فى أَنْ أُطالِعَهُم وأَرجِعَ إليكِ ، فقالت : لا أَستَطيعُ فِراقكَ ، فعاهدها أَلاَّ يَغيبَ عنها أكثر من ستَّةِ أَشْهُرٍ ، وأَعْطَتْهُ مالاً كثيراً وغير ذلك ، فخرج حتى قَدِمَ على أَهْله بمَكَّةَ ، فوَجَدهم قد نُعِيَ لهم واقْتسمَ ولدُه ماله وزَوَّجُوا بناتِه ووجَدَ زَوجَتَهُ لم تأخُذْ من ماله شيئاً و بَكتْ عليه حتى عَمِشَتْ ، فقال لبنيه : أمّا أنتم فحَظُّكم ما أخذتم من مالى ، وقال لزَوجَته : هذا المالُ لك فاصْنعى به ما شِئْت ، وأقام عندها حتى قَرُبت المُدّة ، ثُمَّ مَضى إلى الشامِ ، فوجدَ زَوْجَتَهُ الثانية قد ماتت حُزناً عليه وأسفاً لفراقه ، فقال فيها :

صاحِ حَيَّا الإلهُ حَيًّا وَدُوراً ... عند أَصْلِ القناةِ من جَيرونِ[1]
عَنْ يَسارى اذا دَخَلْتُ الى الدا ... رِ وإنْ كُنت خارجاً فَيَمينى
فَبِتِلْكَ اغتربْتُ بالشام حتى ... ظَنَّ أَهْلى مُرَجَّمَاتِ الظُّنونِ
وَهْىَ زَهْراءُ مثلُ لُؤلؤَةِ الْـ ... ـغَوَّاصِ ميزَتْ من جوهرٍ مكنونِ
وإذا ما نَسَبْتَها لم تَجِدْها ... فى سَنَاءٍ من المكارِمِ دونِ
تَجْعَلُ المِسْكَ واليَلَنْجُوجَ والنَّدَّ ... صِلاءً لهـا على الكانُونِ
ثُمَّ خاصَرْتُها إلى القُبَّةِ الخضْـ ... ـراءِ تَمْشى فى مَرْمَرٍ مَسْنُونِ[2]
قُبَّةٌ من مَراجِلٍ ضَرَبَتْها ... قَبْلَ بَرْدِ الشّتاءِ فى قَيْطُونِ[3]
ثُمَّ فارَقْتُها على خيرِ ما كا ... نَ قَرِينٌ مُفارِقٌ لِقَرِينِ

---

(١) جيرون : قيل هى دمشق ، وقيل : حِصن بدمشق .

(٢) المسنون : المصبوب على استواء .

(٣) المراجل : ثياب من ثياب اليمن ، والقيطون : البيت فى جوف البيت .

فَبكَت خشيَةَ التفرُّق للبَـــيْنِ بُكاءَ الحزينِ إثْرَ الحزين
فَسَلِي عن تَذَكُّرِي واطْمَئِنِّي بِإيابِي وإن هُمُ عَذَلُونِي[1]

* * *

وقال أبو نواس :

خُلِّيتْ والحُسْنَ تأخُذُهُ تَنْتَقِي منـه وتنتخِبُ
فاكتسَتْ مِنْهُ طرائِفَهُ واستزادَت فضل ما تَهَبُ

« طرائفه : جمع طريفة : أى غرائبه وأحاسنه » .

وقال المتنبي :

حبيبٌ كأنَّ الحسنَ كان يُحِبُّهُ فآثَرَه أو جارَ فى الحُسْنِ قاسمُهْ

« يقول : إنَّ هذا الحبيبَ قد استبدَّ بالحُسْنِ واستأثر به فليْسَ لغيره فيه حظٌّ فكأنَّ الحسنَ أحبَّهُ فاستَخْلَصَهُ لِنَفْسِه ، أو كأنَّ الذِى قَسَمَ الحُسْنَ بين الناس جارَ ولم يَعْدل فأعطاه جميع الحسنِ ولم يُبْقِ لأحَدٍ منهُ نَصِيباً ، وقبل البيت :

إذا ظَفِرَتْ منكِ العيونُ بنظرةٍ أثَابَ بها مُعْيِي المَطِيِّ ورازِمُهْ

يقولُ : إنَّ الإبِلَ الرازِحَةَ التى كلَّتْ وأعْيَتْ وعجزَتْ عَنِ المشْيِ اعياءا إذَا نظرتْ إليكِ عادتْ إليها قوَّتُها ورُدَّتْ إليها أرواحُها وصَلَحَتْ حالُها مع أنها لا تعقِلُ فما الظنُّ بنا نحنُ رُكَّابَها وحياتُنا برؤيتك ! »

وقال محمد بن وُهيب :

قد خلعَ الحسنُ على وجْهِهِ سِرْبالَ محمود ومحسود

---

(١) نقلنا هذه القصة عن النوادر لأبى على القالى ، و قال بعد ذلك : ويروى هذا الشعر لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت و به كان سبب أمر يزيد بن معاوية الأخطل بهجاء الأنصار أى لأن هذه الأبيات قيلت فى عاتكة بنت معاوية بن سفيانَ على رأى « انظر أخبار أبى دَهبل وخبر هذه الأبيات فى الأغانى » .

وقال أبو نواس :

رَشَأٌ لولا ملاحَتُـــهُ خلَتِ الدُّنيا مِنَ الفِتَنِ

وقال علىّ بن جَبَلَة — المعروف بالعَكَوَّك :

أَغَرُّ تَوالَدُ الشَّهواتُ منْه فما تَعْدُوه أهواءُ القلوب

وما اكتحلَتْ به عينٌ فتبقى مُسَلَّمَةَ الضمير منَ الذنوب

وقال ابن الرومى :

لا شىءَ إلاَّ وفيه أحْسَنُهُ فالعينُ منه إليـــه تنتقِلُ

فوائِدُ العين منـه طارفةٌ كأنَّما أُخْرَياتُها الاوَلُ

« طارفة : يريد : متجدِّدَة » .

وقال أبو فراس :

فإذا بَدَا اقتادَتْ محاسِنُه قَسْراً إليه أعنَّةَ الحَدَقِ

وقال بشار :

ومُكَلَّلاتٍ بالعُيُـــونِ طرقْنَنِى ورجَعْنَ مُلْسَا

«يقول بشار : إنهن لحُسْنِهِنّ تَعْلُو الأبْصَار إلى وجُوهِهِن وأعاليهن حتى كأنَّ لهنّ إكْلِيلا[1] مِنَ العُيُون ، ورجَعْنَ مُلْسَا : أى لم يَعْلَق بِهِنّ أذًى ولا رِيبَة» .

وينظر إلى هذا قول المتنبي :

وخَصْرٌ تثبتُ الأبصار فيه كأنَّ عليه مِنْ حَدَقٍ نِطَاقَا

وقبل بيت المتنبي :

وبين الفَرْعِ والقَدَمَيْنِ نُورٌ يقُودُ بلا أَزِمَّتِها النِّيَاقَا

وطَرْفٌ إنْ سقَى العُشاقَ كأساً بها نَقْصٌ سقَانِيها دِهاقَا

« دِهاقاً : مَلْأَى » .

---

(١) الإكليل : التاج ، والإكليل أيضا : شبه عصابة مزينة بالجواهر .

وقال عروة بن أذينة — وهو الفقيه المحدّث الثقة ، روى عنه الامام مالك وغيره من الأئمة ، وكان إلى ذلك شاعر غزلا :

إنَّ التى زعمتْ فؤادكَ مَلَّها خُلقتْ هواكَ كما خُلقتَ هوًى لها
بيضاء باكرَها النَّعيمُ فصاغَها بلباقةٍ فأدقَّها وأجلَّها
وإذا وجدْتُ لها وساوسَ سَلْوةٍ شفَع الضمير إلى الفؤادِ فسَلَّها

« يقول فى البيت الأوّل : إنَّ التى ظننْتَ أنك مَلَلْتَها قد وَهمتْ فى ذلك وأنَّ الواقع أنها خُلِقَت هواك ، أى أنى أُحِبُّها ، كما خَلَقْتُ هواها ، أى كما أنَّها تُحِبُّنى ، والهوى : المهْوِى ، أى المحبوب ، ويقول فى البيت الثانى : إنها حسناء نشأت فى النَّعْمَة والرفَه فصاغَها النعيم بلباقَة ، أى حِذْق ، فأدق منها ما تجمل دقته مثل الأنف والخَصْر ، وأجلَّ منها ما يجمل عِظَمُه مثل الرِّدْف والسَّاقَيْن ، فجاءت كاملة ؛ ويقول فى البيت الثالث :

إنّى لا أسْلُوها أبَداً ، وإن خطرت السَّلْوة عنها بقلبى زال ذلك سريعاً ، وسَلَّها : انتزعها » .

وهذا كما قال كُثَيِّر :

أُريدُ لأنسَى ذِكْرَها فكأنَّما تمثَّلُ لى لَيْلَى بكلِّ سَبِيلِ

ومثله قول الأحْوَص :

إذا رُمْتُ عنها سَلْوةً قال شافِعٌ من الحُبِّ : ميعادُ السُّلُوِّ المقابرُ »

وعُرْوَة بن أُذَنية هذا هو الذى قالت له سُكينة بنت الحُسَين : أنت الذى يقال فيه : الرجلُ الصَّالِحُ وأنت تقول :

إذا وَجَدْتُ أُوَارَ الحُبِّ فى كبدى أقبلْتُ نحو سِقَاءِ القَوم أبْتَرِدُ
هذا بَرَدْتُ بِبَرْدِ الماء ظاهِرَه فمَنْ لِنَارٍ على الأحْشَاء تتَّقِدُ

فقال : نعم ، فالتفتَتْ إلى جَوارٍ كُنَّ حَوْلَها وقالت : هُنَّ حرائرُ إن كان خرَجَ هذا من قلبِ سَليم . . .

وهو القائل أيضاً :

قالت ، وأبْثَثْتُها وَجْدِى فبُحْتُ به ... قد كُنْتَ عِندى تُحِبُّ السِّتْرَ فاستَتِرَ
ألسْتَ تُبصِرُ مَنْ حَوْلِى فقُلْتُ لها ... غَطَّى هَوَاكِ وما أَلْقى على بَصَرِى

وقال بشار بن برد :

أيُّهـــا السَّاقِيَانِ صُبَّا شَرَابِى ... واسْقِيانِى مِنْ رِيقِ بيضاءَ رُودِ[1]
إنَّ دَائِى الظَّمَا وإنَّ دَوَائِى ... شَرْبَةٌ مِنْ رُضَابِ ثَغْرٍ بَرُودِ
ولها مَبْسِمٌ كَغُرِّ الأَقَاحِى ... وحديثٌ كالوَشْيِ وشْيِ البُرُودِ[2]
نزلَتْ فى السَّوَادِ مِنْ حَبَّةِ القَلْـ ... ـبِ ونالَتْ زِيَادَةَ المُسْتَزِيدِ
ثم قالت نلقاكَ بَعْـــدَ لَيَالٍ ... واللَّيالى يُبْلِينَ كُلَّ جَدِيدِ
عِندها الصَّبْرُ عن لقائى وعندى ... زَفَرَاتٌ يأْكُلْنَ قلبَ الحَـــدِيدِ

* * *

ومما يصحُّ إيرادُه هُنَا أبياتٌ فى الغاية من الجودَة والرَّوْعَة لأُسَيْد بن عَنْقاء الفَزَارى ، فى عُمَيْلَة الفَزَارى ، وهُما جاهليَّان ، وعُمَيْلَة من سادَات فَزَارَة ، ونَسُوقُ حَدِيثَهُمَا .

كان أُسَيْدٌ من أكثر أهْلِ زَمَانِهِ وأشَدِّهِمْ عارضَةً ولِسَاناً ، فطالَ عُمْرُه ، ونَكَبَهُ دَهْرُه ، واختَلَّتْ حالَتُه ، فخرج عَشِيَّةً يتبقَّل لأهْلِه ، فمرَّ به عُمَيْلَة الفزارى ، فسَلَّم عليْه ، وقال : يا عَمّ ، ما أصارَكَ إلى ما أرَى من حالك ؟ فقال : بُخْلُ مِثْلِكَ بمالِه ، وصَوْنِى وجْهِى عَنْ مُسَاءَلَةِ الناس ، فقال : واللهِ ،

---

(١) رود : أصلها رُؤْد بالهمز : الشابة الحسنة السريعة الشباب مع حسن غِذاء تشبيها لها بالغصن الرؤد . وهو الذى نبَت من سنته أرطبَ ما يكون وألْيَنه .

(٢) المبسم : الثغر ، والأقاحى جمع أقحوانة : نبات أوراق زهرِه مفلجة صغيرة .

لئن بقيتُ إلى غد لأغيرَنَّ ما أرى من حالك ، فرجعَ ابنُ عَنقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عُمَيْلَة ، فقالت له : لقد غرَّكَ كلامُ غلام جُنْح ليل ! فكأنما ألقمتْ فاهُ حجراً ، فبات مُتململاً بين رجاء ويأس ، فلما كان السَّحَر سمع رُغاء الإبل ، وثُغاء الشاء ، وصهيل الخيل ، ولجبَ الأموال ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا عُمَيْلَة ساقَ إليكَ ماله ، فاستخرج ابنَ عَنقاء ، ثم قسم ماله شطرين وساهمه عليه ، فأنشأ ابن عنقاء يقول :

رآنى عَلَى مابى عُمَيْلَةُ فاشتكى ... إلى ماله حالى أسرَّ كما جهر (١)

دعانى فآسانى ولو ضنَّ لم ألُمْ ... على حينَ لا بدْوٌ يُرجَّى ولا حضَرْ (٢)

فقُلْتُ لهُ خيراً وأثنيتُ فعلَهُ ... وأوْفاكَ ما أسديتَ من ذمٍّ أو شكرْ (٣)

ولمَّا رأى المجدَ استُعيرتْ ثيابُهُ ... تردَّى رداءً سابغَ الذَّيل وائتزرْ (٤)

غلامٌ رماهُ اللهُ بالخير يافعا ... له سيميا لا تشقُّ على البصرْ (٥)

---

(١) على ما بى : على الذى بى من الفاقة والعوز ، وقوله : فاشتكى إلى ماله حالى من بارع التمثيل ، جعل رجوعه إلى ما له فى إصلاح حاله شكاية منه إليه ، وقول أسرّ كما جهر : يريد : لم ينافق ، يعنى أنه أسر الاهتمام بأمرى كما أظهره .

(٢) فآسانى : أى جعلنى أسوة له بأن أعطانى من ماله ، وقوله : ولو ضن لم ألم : أى لم ألمه لضيق الزمان الذى لا يرجى فيه بدوى ولا حضرى .

(٣) وأثنيت فعله : أى أثنيت على فعله أو تقول أنه ضمّن أثنيت معنى مدحت : ثم قال : ومن ذم اساءتك وشكر إحسانك فقد وفاك حق ما أسديت إليه .

(٤) استعيرت ثيابه : كناية عن ذهابه يقول : لما رأى المجد قد ذهب لبس هو ثيابا من المجد واسعة .

(٥) اليافع : الشاب ، والسيمياء يراد بها هنا : الحسن والبهجة ، ولا تشق على البصر : يريد أنه يسر الناظر إليه لبشره وطلاقته ونجابته ، وقوله : رماه الله بالخير يافعا يروى : رماه الله بالحسن يافعاً قال الرياشى : لا يرويه رماه الله بالحسن إلا أعمى البصيرة ، لأن الحسن مولود .

كانَّ الثريَّا عُلِّقَتْ فوق نَحْرِهِ وفى أنفه الشِّعْرَى وفى خدِّهِ القَمَرْ(١)
إذا قِيلَت العَوْرَاء أغْضَى كأنَّه ذَليل بِلاَ ذُلٍّ ولو شاء لانْتَصَرْ(٢)

* * *

وقال اسماعيل صبرى باشا — وهى أبيات قالها رحمة الله عليه لتترجم إلى اللغة الفرنسية ، وهو فى هذه الأبيات يرغب إلى الحسناء أن تُسَوِّىَ بين محبيها فى التمتع بالنظر إلى جمالها : —

يا لِوَاء الحُسْنِ أحْزَابُ الهوى أيْقَظوا الفِتْنَةَ فى ظِلِّ اللِّواء(٣)
فَرِّقَتْهُمْ فى الهَوَى ثاراتُهُم فاجْمَعِى الأمرَ وصُونِى الأبْرِيَاء
إنَّ هذا الحسْنَ كالماء الَّذى فيه للأنْفُسِ رِىٌّ وشِفَاء
لا تذُودِى بعْضَنَا عن وِرْدِهِ دُونَ بَعْضٍ واعْدِلِى بين الظِّمَاء
أنتِ يَمُّ الحسْنِ فيــه ازْدَحَمَتْ سفُنُ الآمال يُزْجيها الرَّجاء(٤)
يَقذفُ الشوقُ بهـا فى مائجٍ بين لُجَّيْنِ عَنَاءٍ وشَقَاء
شِدَّةٌ تَمْضِى وتأتى شدَّةٌ تقتفيها شِدَّةٌ هل مِنْ رجَاء
ساعِفِى آمالَ أنْضَاء الهَوَى بقَبولٍ من سَجَاياكِ رُخَاء(٥)

---

(١) الشعرى اسم لكوكب من كوكبين يقال لكل منهما الشعرى وهما العبور والغميصاء أختا سهيل ، يصف ابن عنقاء الممدوح بالجمال والملاحة ، وهذا البيت هو شاهدنا .

(٢) العوراء : الكلمة القبيحة ، يقول : إذا سمع الكلمة القبيحة سكت وعفا كرماً لا عجزاً ولو شاء لانتقم من قائلها لأنه على الانتقام جد قدير .

(٣) شبهها فى حسنها المرموق واتباع المحبين إياها باللواء الذى يرمقه الجيش ويتبعه .

(٤) اليم : البحر ، ويزجيها : يدفعها ويسوقها .

(٥) أنضاء الهوى : أى من أضناهم الحب وأسقمهم وأنحل جسومهم جمع نضو ، والقبول : ريح الصبا وهى من ألطف الرياح ، والرخاء : الريح اللينة : شبه بها شمائل حبيبته وسجاياها فى رقتها ولطفها .

وتجلَّىْ واجعَلِي قَوْمَ الهوَى تحتَ عَرْشِ الشَّمسِ فى الحُكْمِ سَواءْ[1]
أقبِلِي نستقبِلِ الدُّنيا وَما ضَمَنَتْهُ من مُعَدَّاتِ الهنَاءْ
واسفِرِى ، تلك حُلَى ما خُلِقَتْ لتُوَارَى بلثـــام أو خباءْ[2]
واخطِرِى بيْنَ النَّدامَى يحلِفُوا أنَّ رَوْضاً راحَ فى النَّادِى وَجاءْ[3]
وانطِقِى يَنْثُرْ إذا حدَّثْتِنَا نَاثِرُ الدرِّ علينَا ما نشاءْ
وابْسِمِى ، مَن كانَ هذا ثَغْرُهُ يَمْلأُ الدنيا ابتسَاماً وازْدِهَاءْ[4]
لا تخافِى شَطَطاً مِنْ أنْفُسٍ تَعْثُرُ الصَّبْوَةُ فيهـــا بالحياءْ[5]
راضَتِ النَّخْوَةُ مِنْ أخْلاقِنَا وارْتَضَى آدابَنَا صِدْقُ الولاءْ[6]
فلو امتـــدَّتْ أمانينا إلى مَلَكٍ ما كدَّرَتْ ذاكَ الصَّفَاءْ[7]
أنْتِ رُوحانِيَّـةٌ ، لا تَدَّعِى أنَّ هذا الحُسْنَ من طينٍ وماءْ[8]
وانزِعِى عَنْ جِسْمِكِ الثوبَ يَبِنْ لِلْمَلا تكوينُ سُكَّانِ السَّماءْ

---

(١) تجلى ، أى اسفرى واظهرى . ويشير بتشبيه حبيبته بالشمس فى هذا البيت إلى أنه ينبغى لها أن تشبه الشمس أيضاً فى شمول ضوئها .

(٢) اسفرى ، أى ارفعى لثامك . والحلى : جمع حلية .

(٣) الندامى : جمع نديم . (٤) الازدهاء : الاختيال .

(٥) الشطط : مجاوزة الحد . يقول : لا تخافى الجموح من نفوس الجلساء وخروجها عن الأدب فى التمتع بجمالك ، فإنها نفوس مهذبة يحول الحياء بينها و بين ما لا ينبغى . ولا يخفى ما فى قوله « تعثر الصبوة » الخ من خيال حسن ، إذ قد تخيل أن الصبوة قد جمحت بنفوس المحبين بطلب ما لا ينبغى حتى عثرت بالحياء فوقفت مكانها .

(٦) راضت ، أى سهلت وذللت . والنخوة : المروءة . والولاء : المحبة .

(٧) يقول : إن أمانينا فى التمتع بالحسن أمانىّ مهذبة ، فلو تمنينا ملكا من الملائكة ما أخرجناه بهذه الأمانىّ الطاهرة عن طبيعته الصافية .

(٨) يصفها فى هذا البيت بأنها من الملائكة لا من الإنس .

وأرى الدُّنيا جناحَىْ مَلَكٍ خلفَ تِمثالٍ مَصُوغٍ من ضياءْ

وقال أبو الشِّيص :

تخشَعُ شَمسُ النَّهارِ طالعةً حينَ تَراهُ ، ويَخشَعُ القمَرُ
تَعرِفُهُ أنَّهُ يَفُوقُهُما بالحُسنِ فى عَينِ مَن لَهُ بَصَرُ

وقال ابنُ لَنْكَكْ :

البَدْرُ والشَمْسُ المُنيرَةُ والدُّمَى والكَوكَبُ
أضحَتْ ضَرائِرَ وجهِه مِنْ حيثُ يَطْلُعُ تَغْرُبُ
وكأنَّ جَمْرَ جوانِحِي فِي خَدِّهِ يَتَلَهَّبُ
وكأنَّ غُصْنَ قَوامِه مِن ماءِ دَمْعِي يَشْرَبُ
وصوالجٍ فى صُدْغِهِ بِسَوادِ قَلْبِي تَلْعَبُ[1]

وقال أبو هلال العسكرىُّ :

وَوَجْهٍ تَشَرَّبَ ماءَ النَّعِيمْ فَلو عُصِرَ الحُسْنُ مِنه انْعَصَرْ
يَمُرُّ فَأَمْنَحُهُ ناظِرِى فيَنْثُرُ وَرْداً عليه الخَفَرْ
تَمَتَّعَتِ العَينُ فى حُسْنِه فما حَفَلَتْ بِطلوعِ القَمَرْ

وقال ابن المعتز :

يا مُفرَداً بالحُسْنِ والشَّكْلِ مَن دَلَّ عينيه على قَتْلِي
البَدْرُ مِن شَمْسِ الضُحَى نُورُهُ والشَّمْسُ مِن نُورِ وَجْهِكَ تَستَمْلِي

---

(١) الصوالج جمع صولجان : عصا يعطف طرفها يضرب بها الكرة على الدواب شبّه بها هنا السوالف وهى خُصَل من الشعر مرسلة بين العين والأذن وهى ملتوية مثل الصولجان .

وقال أبو نواس :

كأنّما الوَجْهُ إذْ بَدَا قَمَرٌ ... مُرَكَّبٌ فوقَ قامةِ الغُصُنِ
ياذا الذى أصبَحَ العِبادُ بِهِ ... فى فتْنَةٍ مِن عظائم الفِتَنِ
أقْبِلْ بوجْهِ الهَوَى إلىَّ فقَدْ ... أطلَتَ بالصَّدِّ مُعْرِضاً حَزَنِى (١)

وقال بعضهم :

وإذا الدُّرُّ زانَ حُسْنَ وُجُوهٍ ... كانَ للدُّرِّ حُسْنُ وَجْهِكِ زَينا
وتَزيدِين طِيبَ الطيبِ طِيباً ... إنْ تَمَسَّيهِ ، أيْنَ مِثْلُكِ أيْنَا

وقال عُمَرَ بن أبى ربيعة :

وفتاةٍ إنْ يَغِبْ بَدرُ الدُّجَى ... فَلَنَا فى وَجْهِها عنه خَلَفْ
أجْمَعَ النـــاسُ على تَفضِيلِها ... وَهَواهُم فى سِواها مُخْتَلِفْ

وقال الخُبْزَ أَرُزِّى :

رأيتُ الهِلالَ وَوجْهَ الحَبيبْ ... فكانا هِلالَيْنِ عند النَّظَرْ
فَلَمْ أَدْرِ مِن حَيْرَتِى فيهما ... هِلالَ الدُّجَى مِن هِلالِ البَشَرْ
فلولا التَّوَرُّدُ فى الوَجْنَتَيْنْ ... وما راعِنِى من سَوادِ الشَّعَرْ
لكُنتُ أظُنُّ الهلالَ الحبيبْ ... وكُنتُ أظُنُّ الحبيبَ القَمَرْ

وقال بعضهم :

تَمَّتْ وتَمَّ الحُسْنُ فى وَجْهِها ... فَكُلُّ شَىءٍ ما سِواها مُحالْ
للناسِ فى الشَّهْرِ هِلالٌ وَلِى ... فى وَجْهِها كُلَّ صَباحٍ هِلالْ

---

(١) حزنى معمول قول أطلت .

وصفهم المرأة الجميلة :

أَهْدَى المُنذِرُ الأكبرُ ملكُ الحِيرَة إلى كِسرَى أَنُو شِرْوانَ جارِيَةً — فتاةً — كان قد أصابها إذ أغارَ على الحارث الأكبر بن أبي شَمِر الغسَّانيّ ؛ فكتب إلى أَنُو شِروانَ يصفها :

إني قد وجَّهتُ إلى الملك جارِيةً معتدلةَ الخَلْق ، نقيَّةَ اللون والثَّغْر ، بيضاء ، قمراء ، وَطْفاءَ (١) ، كَحْلاء ، دعْجاء (٢) ، حَوْرَاء ، عيْناء ، قَنْواء (٣) ، شَمَّاء (٤) ، بَرْجاء (٥) ، زجَّاء (٦) ، أَسيلة الخدّ ، شهيّة المقبَّل ، جَثْلة (٧) الشَّعَر ، عظيمةَ الهامة ، بعيدة مَهْوَى القُرط ، عَيْطاء (٨) ، عريضةَ الصدر ، كاعبَ الثدى ، ضخمةَ مُشاشِ المَنْكِب والعضد (٩) حسنةَ المعصم ، لطيفةَ الكفّ ، سَبْطةَ البَنَان ، ضامرةَ البطن ، خَمِيصة الخَصْر ، غَرْثَى (١٠) الوشاح ، رَدَاحِ الاقبال (١١) ، رابيةَ الكَفَل ، لفَّاء (١٢) الفخذين ، رَيَّا الرَّوادِف ، ضخمة المَأْكَمَتَيْن (١٣) ،

---

(١) الوطفاء : الغزيرة الأهداب وشعر الحاجبين .

(٢) الدعج : شدة سواد العين وشدة بياض بياضها .

(٣) القنواء : وصف من القنا وهو ارتفاع فى أعلى الأنف واحديداب فى وسطه وسبوغ فى طرفه . (٤) الشمم فى الأنف : ارتفاع القصبة وحسنها .

(٥) البرجاء : الجميلة الحسنة الوجه . (٦) الزجاء : رقيقة الحاجبين فى طول

(٧) الجثلة : كثيفة الشعر سوداؤه .

(٨) بعيدة مهوى القرط : كناية عن طول عنقها ، والعيطاء : الطويلة العنق .

(٩) المشاش : رأس العظم اللين (١٠) غرثى الوشاح : دقيقة الخصر .

(١١) الرداح : العجزاء الثقيلة الأوراك التامة الخلق . والأقبال : ما استقبلك من مُشْرِف والواحد قَبَل . (١٢) لفاء : ضخمة الفخذين مكتنزة .

(١٣) المأكمتان : اللحمتان اللتان على رءوس الوركين ، الواحد مأكمة .

مُفْعَمَةَ[١] الساق، مُشْبَعَةَ[٢] الخَلْخال، لطيفةَ الكعب والقدم، قَطوفَ[٣] المشي، مِكسالَ[٤] الضُّحَى، بَضَّةَ[٥] المتجرَّد، سَمُوعاً للسيِّد، ليستْ بخَنْساء[٦] ولا سَفْعاء[٧]، رقيقةَ الأنف: عزيزةَ النفس، لَمْ تُغذَّ في بُؤْسٍ، حيِّيَّةً رزينةً، حليمةً ركينةً، كريمةَ الخال، تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها وتَسْتَغني بفصيلتها دون جِماع قبيلتها، قد أحكمتها الأمورُ في الأدب، فرأيُها رأيُ أهل الشرف، وعملُها عملُ أهل الحاجة. صَناعَ الكفَّين، قَطيعَ[٨] اللسان، رَهْوَةَ[٩] الصوت ساكنتَه، تَزِين الوليّ، وتَشِينُ العدوَّ، إن أردتَها اشتهتْ، وإن تركتَها انتهتْ، تُحَمْلِقُ[١٠] عيناها، وتَحمرُّ وجْنَتاها، وتَذَبْذَبُ شفتاها، وتبادِرُكَ الوثبةَ إذا قمتَ، ولا تجلسُ إلا بأمرِكَ إذا جَلَسْتَ.

---

(١) مفعمة الساق: ممتلئتها.

(٢) مشبعة الخلخال. كناية عن السمن، وفي اللسان: امرأة شبعى الخلخال: ملأى سِمناً.

(٣) القطوف: وصف من القطاف وهو تقارب الخطو.

(٤) المكسال: المرأة التي لا تكاد تبرح مجلسها، وهو مدح لها مثل نَوْم الضحى، يَعنون أنها مخدومة.

(٥) البضة: الناعمة، يقال. امرأة بضة المتجرد بالفتح أي بضة عند التجرد، فالمتجرد على هذا مصدر. ومن قال: بضة المتجرد بالكسر أراد الجسم.

(٦) الخنساء من الخنس وهو تأخر الأنف إلى الرأس وارتفاعه عن الشفة وليس بطويل ولا مشرف، وقيل هو قريب من الفطس وهو لصوق القصبة بالوجنة وضخم الأرنبة.

(٧) السفعاء من السفع وهو السواد، وفي الحديث «أنا وسفعاء الخدين الحانية على ولدها يوم القيامة كهاتين وضم أصابعه»، أراد بالسفعاء الخدين أنها بذلت نفسها وتركت الزينة والرِّفه حتى شحب لونها واسود، إقامة على ولدها بعد وفاة زوجها.

(٨) امرأة قطيع الكلام — بغير هاء — إذا لم تكن سليطة.

(٩) رهوة الصوت: رقيقة سهلة.

(١٠) المحملق من الأعين: ما حول مقلتيها بياض لم يخالطه سواد.

صفة أخرى لفتاة جميلة :

وكان عَمْرو بن حُجْر ملك كِنْدَة — وهو جَدُّ امرىء القَيْس — أراد أن يتزوَّجَ ابنةَ عَوْف بن محلِّم الشَّيْبانى الذى قيل فيه « لا حُرٌّ بِوَادى عَوف[1] » لإفراط عِزِّه ، وكانت ذات جَمال وكمال ، فوجَّه إليها امرأةً يقال لها (عصام[2]) لِتَنْظُرَ إليها ، وتمتحِنَ ما بلغَه عنها ، فَدَخَلَتْ على أُمِّها أُمَامَةَ بنت الحارث ، فأعلمتْها ما قدِمَتْ له ، فأرسلَتْ إلى ابنتها ، فقالت : أىْ بُنَيَّةُ ، هذه خالتُكِ أتَتْ إليكِ لتنظرَ إلى بعضِ شأنِكِ ، فلا تَستُرِى عنها شيئاً أرادت النظرَ إليه ، مِن وجْهٍ وخَلْق ، وناطِقيها فيما استَنْطَقَتْكِ فيه ، فدخلت عصام عليها ، فنظرت إلى ما لم تَرَ عيْنُها مثلَه قطّ ، بهجَةً وحُسْناً وجَمالا ، وإذا هىَ أكملُ النَّاسِ عَقلا ، وأفصحُهم لِساناً ، فخرجَتْ من عندها وهى تقول « تَرَكَ الخِداعَ من كشف القِناع » فذهبت مثلاً ، ثم أقبلتْ إلى الحارث فقال لها « ما وراءكِ يا عِصام » ؟ فأرسلها مثلاً ، قالت « صرّح المخضُ عن

(١) قال أبو عبيد : من أمثال العرب فى الرجل العزيز المنيع الذى يعز به الذليل ويذل به العزيز قولهم « لا حُرٌّ بوادى عوف » أى كل من صار فى ناحيته خضع له ، وكان المفضل يقول : إن المثل للمنذر بن ماء السماء قاله فى عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان وذلك أن المنذر كان يطلب زهير بن أمية الشيبانى بِذُحْل — ثأر — فمنعه عوف وأبى أن يسلمه فعندها قال المنذر « لاحُرٌّ بوادى عوف » أى أنه يقهر من حل بواديه فكل من فيه كالعبد له لطاعتهم إياه .

(٢) وهذه عصام غير عصام بن شهير الجرمى حاجب النعمان بن المنذر الذى يقول :

نَفسُ عِصامٍ سَوَّدت عِصاما وصيَّرتْه مَلِكا هُماما
وعلّمته الكَرَّ والإقداما

ومن هذا قالوا فى المثل « كن عصاميا ولا تكن عظاميا » يريدون قوله هذا وكانت عصام هذه من كندة وكانت ذات عقل ولسان وأدب وبيان .

الزُّبْدِ ، فذهبتْ مثلا ، قال : أخبِرِ ينى . قالت أخبرك صدقا وحقًّا :

رأيتُ جَبْهةً كالمرآة الصَّقيلة — المجلُوَّة — يَزِينُها شعَرٌ حالكٌ كأذناب الخيول المضفُورة ، إن أرْسَلَتْه خِلْتَهُ السلاسِل ، وإن مشَطتْهُ قلت عناقيدُ كَرْمٍ جلاَها وابِل[1] . ومع ذلك حاجبان كأنما خُطَّا بِقَلَم ، أو سُوِّدَا بِحُمَم[2] ، قد تقوَّسا على مثل عين الظبية العَبْهَرَة ، التى لم يَرْعَها قانص ولم يُذْعِرْها قَسْورة[3] ، بينهما أنف كحد السيف المصقول ، لم يَخْنَسْ به قِصَر ولم يَمْضِ به طول[4] ، حَفَّتْ به وجنتان كالأُرْجُوَان[5] فى بياضٍ مَحْضٍ كالجُمَان[6] شُقَّ فيه فَمٌ كالخاتَم ، لذيذُ المُبْتَسَم ، فيه ثنايا غُرٌّ ، ذوات أُشَر[7] ، وأسنان تبدو كالدُّرّ ، وريق كالخمر ، له نَشْرُ الروض بالسَّحَر[8] يَتَقَلَّب فيه لسان ذو فَصاحة وبيان ، يَبِينُ به عقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى دونه شفتان حمراوَان كالورد ، يَجْلِبُانِ ريقا كالشَّهد ، تحت ذلك عنق كإبريق الفِضة ، رُكِّبَ فى صدر كصدر تِمثال دُمْيَة ، يتصل به عضدان ممتلئان لحما ، مكتنزان شحما ، وذراعان ليس فيهما

---

(١) الكرم : العنب ، والوابل المطر الشديد .

(٢) الحمم : جمع حمة : وهو الفحم وكل ما احترق بالنار ، تريد أن حاجبيها سوداوان .

(٣) العبهرة : المراد الحسنة الجميلة ومنه فتاة عبهرة : جمعت الحسن والخلق وامتلاء الجسم . والقسورة : الأسد .

(٤) الخنس فى الأنف : تأخره فى الرأس وارتفاعه عن الشفة أو قصر الأنف ولزوقه بالوجه وأصله فى الظباء والبقر وهو من العيوب ، تصفها بأن أنفها لا هو بالقصير ولا بالطويل .

(٥) الأرجوان شجر له نَوْر أحمر ، وكل لون يشبهه فهو أرجوان ، تصف وجنتيها بالحمرة وذلك دليل الشباب والعافية ونقاء الدم .

(٦) الجمان : اللؤلؤ .

(٧) أُشَر الأسنان وأُشُرها : التحزيز الذى يكون فيها خلقة ومستعملا .

(٨) النشر : الرائحة .

عظم يُجَسّ ، ولا عِرْقٌ يُحَسّ ، رُكِّبت فيهما كَفّان لَيِّنٌ قَصَبُهما رقيق عَصَبُهما[١] ، وقد تربع فى صدرها حُقّان كأنهما رُمّانتان يَخْرِقان عليها ثيابَها ، من تحت ذلك بطن طُوِى كَطَيّ القَبَاطِيّ[٢] المُدْمَجَة ، كُسِيَ عُكَنًا[٣] كالقراطيس المدمجة[٤] ، تحيط تلك العُكَنَ سُرَّةٌ كَمُدْهُنِ العاج المَجْلُوّ ، خَلْفَ ذلك ظَهْرٌ كالجدول ينتهى إلى خَصْرٍ لولا رحمةُ الله لانخزل[٥] ، تحته كَفَلٌ يُقْعِدُها إذا نهضت وينهضها إذا قعدت كأنه دِعْصُ رَمْل ، لَبَّدَهُ سُقُوطُ الطّل[٦] ، تحمِلُه فَخِذَانِ لَفّاوَان كأنهما نَضِيدُ الجُمان[٧] ، تحملُهما ساقَان خَدَلَّجَتانِ كالبَرْدِيّ[٨] ، يحمل ذلك قَدَمَانِ كَحَذْوِ اللسان[٩] تبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حَمْلَ ما فوقهما ؛ فأما ماسوى ذلك فقد تَرَكْتُ أن أصفه غير أنه أحسَنُ ما وصَفَه واصف بنَظْمٍ أو نثر . . . فأرسل إلى أبيها يخطبها ، فلما كان بناؤها — زفافها — خَلَتْ بها أمها فقالت[١٠] أَيْ بُنَيَّة ، إنَّ

(١) القصب : عظام اليدين والرجلين ، والعصب : أطناب منتشرة فى الجسم كله وبها تتكون الحركة والحس .

(٢) القباطى : ثياب من كتان تعمل بمصر نسبة إلى القبط .

(٣) العكن : جمع عكنة : ما انطوى وتثنى من لحم البطن من السمن .

(٤) القراطيس جمع قرطاس : الصحائف ، ولكنها تريد بذلك الورق المأخوذ من البردى المصرى .

(٥) الجدول : النهر الصغير ، تصف خصرها بالنحافة وهو معنى محمود ، وانخزل : انقطع .

(٦) تصف عجيزتها بالضخامة .

(٧) نضيد : منضد ، والجمان : اللؤلؤ .

(٨) خدلجتان : ممتلئتان سمينتان ، والبردى : نبات كالقصب كان قدماء المصريين يتخذونه للكتابة .

(٩) تريد تشبيه القدم باللسان فى الصغر .

(١٠) كان من حق هذه الوصية أن توضع فى باب حقوق الزوج على زوجته ولكنا آثرنا وضعها هنا لاتصال هذه القصة الجميلة بعضها ببعض .

الوَصيَّةَ لو تُركتْ لِفَضْلِ أدَب ، تُركتْ لذلك مِنْك ، ولـكنّها تَذْكِرَةٌ لِلْغافل ، ومَعُونَةٌ للعاقل ، ولو أنَّ امرأةً استغنت عن الزوج بِغِنَى أبَوَيْها ، وشدةِ حاجتهما إليها كُنْتِ أغنى الناس عنـه ؛ ولـكنَّ النساء للرجال خُلِقْنَ ولَهُنَّ خلق الرجال .

أىْ بُنَيَّة ، إنكِ فارقتِ بيتَك الذى منه خرَجْتِ ، وعُشَّكِ الذى فيه دَرَجْتِ ، إلى رجل لم تَعْرفيه ، وقَرِينٍ لم تألَفيه ، فـكونى له أَمَةً يكن لكِ عبدا ، واحْفَظى له خِصالاً عَشْرا تكن لكِ ذُخْرا : أمَّا الأولى والثانيةُ فالخشوع له بالقَناعة ، وحُسنِ الطاعة ، وأما الثالثة والرابعة فالتَّفَقُّدُ لِمَوْضِع عينه وأنْفِه ، فلا تَقَعُ عينُه منك على قبيح ، ولا يَشَمُّ مِنكِ إلا أطيبَ الريح ، وأما الخامسة والسادسة فالتفقُّدُ لوقت مَنامِه وطعامه ، فإنَّ تَوَاتُرَ الجوع مَلْهَبَة ، وتنغيصَ النوم مَغْضَبَة ، وأما السابعة والثامنة فالاحتفاظُ بماله ، والإرْعاء على حشمه وعياله ، ومِلاكُ الأمر فى المال حسن التقدير ، وفي العيال حُسْنُ التدبير ، وأما السابعة والعاشرة فلا تَعصِين له أمرا ، ولا تُفْشِنَّ له سرا ، فإنك إنْ خالفتِ أمره ، أَوْغَرْتِ صدره ، وإن أفْشَيت سِرَّه لم تأمنى غَدْرَه ، ثم إياكِ والفرحَ بين يديه إذا كان تَرِحاً ، والتَرحَ بين يديه إذا كان فرحا ، فإنَّ الخَصْلةَ الأولى من التقصير والثانيةَ من التكدير ، وكونى أشدَّ ما تكونين له إعظاما ، يكُنْ أشدَّ ما يكونُ لكِ إكراما ، وأشدَّ ما تكونين له مُوافقةً ، يكن أطولَ ما يكونُ لكِ مرافقة .

واعلمى أنَّكِ لا تَصِلينَ إلى ما تُحِبِّينَ حتى تُؤْثِرى رضاه على رِضاكِ ، وهَواهُ على هواكِ ، فيما أحْبَبْتِ أو كرِهْتِ واللهُ يَخِيرُ[1] لكِ .

(١) يقال : خار الله لك فى الأمر جعل لك فيه خيرا .

أوصاف سنى للمجبولات :

كان فى المدينة زَمَنَ سيدنا رسول الله وبعدَه طائفة من المُخَنَّثِين يدخلون على النساء فلا يُحْجَبُون ، وكان منهم زمَن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يسمى « هِيت » أو « هِنْب » فدخل يوما دار أُمِّ سَلَمَةَ زوج الرسول ورسولُ الله عندها ، فأقبل على أخى أم سلمة عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى[١] فقال : إنْ فَتَح الله عليكم الطائفَ غداً فعليكَ ببادية بنتِ غَيلانَ ابن سَلَمة بن مُعَتِّب فإنها مُبتَلَّةٌ هَيْفاء[٢] ، شَمُوعٌ نَجْلاء[٣] ، إن قامت تَثَنَّتْ ، وإن قَعَدَت تَبَنَّتْ[٤] ، وإن تكلمت تَغَنَّتْ ، تُقْبِلُ بأربع ، وتُدْبِر بثمان[٥] ، مع ثَغْرٍ كالأُقْحُوان ، وثَدْى كالرُّمَّان ، أعلاها قضيب ، وأسفلها كثيب ، وبين رِجْلَيها كالقَعْبِ المَكْفُوء[٦] ، فهى كما قال قيس بن الخطيم :

تَغْتَرِقُ الطَّرْفَ وَهْىَ لاهِيَةٌ كأنما شَفَّ وَجْهَها نُزُفُ[٧]

---

(١) كان هيت هذا مولى لعبد الله بن أبى أمية فلذلك حضه على تزوج بادية هذه .

(٢) المبتلة من النساء : الحسنة الخلق لا يقصر شىء عن شىء ، لا تكون حسنة العين سمجة الأنف ولا حسنة الأنف سمجة العين ولكن تكون تامة ، والهيفاء : الضامرة البطن الرقيقة الخصر . (٣ و ٤) الشموع : اللعوب الضحوك ، والنجلاء : المتسعة العين ، وإن قعدت تبنت قيل معنى تبنت صارت كالبنيان وقيل التبنى تباعد ما بين الفخذين .

(٥) قال أبو عبيدة : أى تقبل بأربع عُكَن — طيات البطن — ولكل عكنة طرفان فتصير ثمانية تدبر بهن ، قال بعضهم وهذا معنى غير مفهوم ولم يقل شيئا آخر .

(٦) القعب : القدح الكبير ، والمكفوء : المقلوب يصف فرجها بالضخامة .

(٧) تغترق العين : تستغرق عيون الناس إذا نظرت إلى محاسنها ، وهى لاهية : أى غافلة ليست محتفلة بذلك ، وشف وجهها : أرَقَّه ، ونزف بضم الزاى اتباعا للنون للوزن والأصل سكونها وهو الاسم من نزفه الدم إذا خرج منه دم كثير حتى يضعف ، يريد أنها رقيقة المحاسن كأن دمها منزوف .

بَينَ شُكُولِ النساءِ خِلْقَتُها قَصْدٌ فلا جَبْلةٌ ولا قَضَفُ[1]

فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم — حين سمع كلامَهُ — : لقد غلغلَتَ النَّظَرَ يا عَدُوَّ الله ، ما كنتُ أحْسَبُكَ إلاّ مِنْ غير أُولى الإرْبَةِ[2] . . . وكان رسول الله يضحك من كلامه ظنا منه صلوات الله عليه أَنَّ بعَقْلِهِ نَقْصاً ، فلما سَمِع منه ما سمع قال لنسائه : لا يدخل هِيث عليكنّ ، وأَمَرَ أنْ يُجْلى عن المدينة إلى الحِمَى — جبل بالمدينة على ثلاثة أميال من العقيق — فبقى منفياً حتى قبض رسول الله فلمّا وُلّى أبو بكر كُلِّمَ فيه فأبى أن يَرُدَّهُ ، فلما وُلِّى عُمَرُ كُلِّمَ فيه فأبَى أنْ يَرُدَّه وقال : إن رأيتُه بالمدينة ضَرَبْتُ عُنُقَه ، فلما وُلِّى عثمان كُلِّم فيه فأبى أن يرده ، فقيلَ له : إنَّهُ قد كَبِرَ وضَعُفَ واحتاجَ ، فاذِنَ لَهُ أنْ يدخلَ كُلَّ جُمُعَةٍ فيسألَ ويرجعَ إلى مكانه ... ولما فُتِحَتِ الطّائف تزوج بأذيةَ عبد الرحمن بن عَوْف فولدت له بُرَيْهَةَ .

* * *

وحكى أبو الفرج الأصْبَهانى : أَنَّ مُصْعَبَ بنَ الزُّبير لَمَّا عَزَمَ على زَواج عائشَةَ بنتِ طلحة جاء هو وعبد الله بنُ عبد الرحمن بن أبى بكر الصِّدِّيق وسعيدُ بن العاص إلى عَزَّةَ الميلاء ، وكانت عَزَّةُ هذه يألَفُها الأشرافُ وغيرهُمْ من أهلِ المرُوءاتِ ، وكانت من أظرفِ الناسِ وأعلمهم بأمورِ النساء ، فقالوا لها : إنَّا خَطَبْنَا فانْظُرِى لنا ، فقالت لِمُصْعَب : يا ابن أبى عبد الله ومَنْ خَطَبْتَ ؟ قال : عائشةَ بنتَ طلحة ، قالت : فأنت يابن أبى أُحَيحة ؟ قال : عائشة بنت عثمان بن عفان ، قالت : فأنت يابن الصديق ؟ قال : أُمّ الهيثم بنت زكريا

(١) بين شكول النساء أى بين أمثالها من النساء ، وخلقتها قصد : معتدلة ، فلاجبلة : أى هى غير غليظة ، ولا قضف : أى غير نحيفة .

(٢) هو المعتوه ، والإربة : الدهاء والبصر بالأمور وهو من العقل قال تعالى « غير أولى الإربة من الرجال » .

ابن طلحة ، فقالت : ياجارية ، هاتى مِنْقَلَىَّ ، تَعْنِى خُفَّيْها ، فَلَبِسَتْهُمَا وخرجت ومعها خادمٌ لها ، فبدأت بعائشة بنت طلحة ، فقالت : فَدَيْتُكِ ، كُنَّا في مأدبة ، أو مأتم ، لقريش فتذاكروا جمال النساء وخَلْقَهِنَّ ، فذكروكِ فلَمْ أدْرِ كيف أصفُكِ فديتُكِ ، فأَلقِي ثيابَكِ ، ففعلَتْ ، فأقبلتْ وأدْبرتْ ، فارتجَّ كلُّ شيء مِنها ، فقالتْ لها عَزَّة : اخذى ثوبَكِ ، فقالت عائشة : قد قضيتِ حاجتَكِ وبقيتْ حاجَتِى ، فقالت عَزَّة : وما هى فَدَيْتُكِ؟ قالت : تُغَنِّينِى صَوتًا ، فاندفعت تغنِّى لحنها فى شعر لجميل بن عبد الله بن مَعْمَر العذرىّ :

خَلِيلَىَّ عوجا بالمحلَّة من جُمْلِ ... وأَرْباهـا بين الأُصَيْفِرِ فَالْخَبْلِ

نَقِفْ بمغانٍ قد عفـا رَسْمَها البِلَى ... تَعاقَبُهَا الأيامُ بالريح والوَبْلِ

فلو دَرَجَ النملُ الصِّغَارُ بجلدها ... لَأَنْدَبَ أعْلَى جِلدِها مَدْرجُ النَّمل (١)

وأحسن خلق الله جيـداً ومُقْلَةً ... تُشَبَّه فى النسوان بالشادِنِ الطَّفْلِ

فقبَّلَتْ عائشةُ ما بين عينيها ودعت لها بعشرة أثواب وطرائفَ من أنواعَ الفضة ، فدفعته إلى مولاتها ، وأتت النسوةَ على مثل ذلك تقول ذلك لهن ، ثم أتت القومَ فى السقيفة فقالوا : ما صنعتِ؟ فقالت : يابن أبى عبد الله ، أمَّا عائشةُ فلا والله ما رأيت مثلَها مُقْبِلَةً ولا مُدْبِرَة ، مخطوطةَ المتنين ، عظيمة العَجِيزَة ، ممتلئةَ الترائب ، نقيَّة الثغر وصفحةِ الوجه ، فَرْعاءَ الشَّعْرِ ، ممتلئةَ الصدر ، خَمِيصةَ البطن ، ذاتَ عُكَنٍ ، ضَخْمةَ السُّرَّة ، مُسَرْوَلَةَ الساق ، يرتجُّ ما بين أعلاها إلى قدميْها ، وفيها عيبان : أمَّا أحدهما فيواريه الخمار ، وأما الآخر فيواريه الخُفُّ : عِظَمُ الأذُن والقدَم ، وكانت عائشة بنت طلحة

---

(١) لأندب : لجرَح .

كذلك . ثم قالت عزة : وأما أنت يا بن أبي أحيحة فإني والله ما رأيت مثل خلق عائشة بنت عثمان لامرأة قط ! ليس فيها عيب والله لكأنما أُفرِغَتْ إفراغا ، ولكن فى وجهها رَدَّةٌ[1] وإن استشرتنى أشرتُ عليكَ ، قال : هات ، قالت : عليك بوجه تستأنس به ، وأما أنت يا بن الصدِّيق : فو الله ما رأيت مثل أم الهيثم كأنها خُوط بانة تثنَنِى ، أو كأنها خَشْفٌ[2] يتثنَّى على رَمْل ، لو شئتَ أن تعقِدَ أطرافها لفعلتَ ولكنها شَخْتةٌ[3] الصدر ، وأنتَ عريض الصدرِ ، فإذا كان كذلك كان قبيحا ، لا والله حتى يملأ كُلُّ شىء مِثله ، قال : فوصلها الرجال والنساء وتزوجوهنّ .

* * *

وجاء فى أمالى القالى عن عمرو بن العلاء : كان لرجل من مقاول حِمْيَرَ ابنان[4] يقال لأحدهما عَمْرو وللآخر رَبيعة ، وكانا قد برَعا فى الأدب والعلم ، فلما بلغ الشَّيْخُ أقصى عُمُرِه وأشفَى على الفَنَاء ، دعاهُمَا ليبْلُوَ عُقُولهما ، ويَعْرِفَ مبلغ علمهما ، فلما حضَرَا قال لِعَمْرو : وكان الأكبر : أخْبِرْنِى يا عَمْرو : أىُّ النساء أحَبُّ إليك[5] ؟ قال : الهِرْكَوْلةُ اللَّفَّاء[6] ، المنكُورَةُ

---

(١) تريد أن وجهها ينقص فى الحسن عن بدنها ، وقيل الردة : تقاعس فى الذقن .

(٢) الخشف : ولد الظبية . (٣) شختة الصدر : دقيقته .

(٤) المقاول : جمع مقول ، والمقول والقَيل : الملك من ملوك حمير يقول ما يشاء ، وقيل : المقاول : هم الذين دون الملك الأعظم .

(٥) لقد اجتزأنا من أسئلة هذا المقول لابنائه بما يتعلق بالنساء و إلا فله أسئلة أخرى لاداعى لإيرادها هنا .

(٦) الهركولة : الحسنة الجسم والخلق والمشية . واللفاء : الملتفة اللحم .

الجيداء[١] ، التى يَشْفِى السقيمَ كلامُها . ويُبْرِى الوَصِبَ إلمامُها[٢] . التى إنْ أحْسَنْتَ إليها شكرتْ ، وإن أسَأتَ إليها صبرتْ ، وإن استَعْتَبْتَها أعْتَبتْ[٣] ، الفاترةُ الطَّرْفِ ، الطَّفْلةُ[٤] الكَفِّ ، العَمِيمَةُ الرِّدْف . قال : ما تقولُ يا ربيعة ؟ قال : نَعَتَ فأحْسَن ، وغيرُها أحبُّ إلىّ مِنْها ، قال : ومَنْ هى ؟ قالَ : الفَتَّانةُ العَيْنيْن ، الأسيلةُ الخدَّين ، الكاعِبُ الثَّدْيَيْن ، الرَّداحُ[٥] الوَرِكَيْن ، الشَّاكِرَةُ للقليل ، المساعِدَةُ للخَليل[٦] ، الرخيمة[٧] الكلام ، الجمّاء العِظَام[٨] ، الكريمة الأخوال والأعمام ، العذْبَةُ اللِّثَام[٩] ، قال : فأىُّ النِّساءِ أبغضُ يا عمرو ؟ قال : القَتَّاتَة[١٠] الكذُوب ، الظاهرة العيوب ، الطوافَةُ الهَبُوب[١١] ، العابسة القَطوبُ ، السَّبَّابة الوَثُوب ، التى إن ائتمنها روجُها خانته ، وإن لان لها أهانته ، وإن أرضاها أغضبته ، وإن أطاعها عَصَتْه ، قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : بئس والله المرأة ذَكَرَ ، وغيرُها أبغضُ إلى منها ، قال : وأيتهن التى هى أبغض إليك من هذه ؟ قال : السَّليطة اللسان ، المؤذية للجيران ، الناطقة بالبُهتان ، التى وجهها عابس ، وزوجها من

---

(١) المكورة : المطوية الخلق ، والجيداء : ذات الجيد — العنق — الطويل الحسن (٢) يبرى يبرىء ، والوصب : المريض ، وإلمامها : قربها .

(٣) استعتبتها : طلبت منها العُتْبَى فأعتبت أى أرضتك .

(٤) الطفلة الكف : أى الرخصة الناعمة .

(٥) الرداح : الثقيلة العجزة الضخمة الوركين .

(٦) الخليل : الزوج (٧) الرخيمة : اللينة الكلام الناعمة .

(٨) الجماء العظام : التى لا يوجد لعظامها حجم ، بمنزلة الجماء من البقر .

(٩) العذبة اللثام : فإنه أراد موضع اللثام فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه .

(١٠) القتاتة : النمامة . (١١) الهبوب : الكثيرة الانتباه .

خَيْرِها آيس ؛ التى إن عاتبها زوجها وتَرَتْهُ ، وإن ناطقها انتهرَتْهُ . قال ربيعة : وغيرها أبغض إلىَّ منها ، قال : ومن هى ؟ قال : التى شَقِىَ صاحبُها ، وخَزِىَ خاطبها ، وافتضح أقاربها . قال : ومَنْ صاحبُها ؟ قال : مِثلُها فى خِصَالِها كلِّهَا ، لا تصلح إلا له ولا يصلح إلا لها . قال : فصِفْهُ لِى : قال الكَفُورُ غيرُ الشَّكُور ، اللَّئِيمُ الفَجُور ، العبُوسُ الكالِح ، الحرُونُ الجامِح ، الراضى بالهوان ، المختالُ المنَّانِ ، الضعيف الجَنَان ، الجَعْد البَنَان ، القَؤُول غيرُ العَقُول ، المَلولُ غير الوَصُول ، الذى لا يَنْزِعُ[1] عن المحارم ، ولا يرتدع عن المظالم .

* * *

ووصَفَ أعرابِىٌّ امرأةً فقال : كادَ الغزالُ يكونُها لولا ما تَمَّ منها ونَقَصَ منه . وقال آخر : خَلَوْتُ بها والقمرُ يُرِينيها ، فلما غاب أَرْتَنِيه[2] .

* * *

وقال بعض الأكاسِرَة : ينبغي أن يكونَ في المرأة أربعةٌ سُودٌ ، وأربعةٌ بيضٌ ، وأربعةٌ حمرٌ ، وأربعةٌ كبارٌ ، وأربعةٌ صغارٌ ، وأربعةٌ واسعةٌ ، وأربعةٌ ضيقةٌ ، فأمَّا الأربعة السُّود فشَعَرُ الرأسِ والحاجِبَيْن وأشفارُ العيْنَيْن ، والحدَقَتَان ، وأمَّا الأربعة البيض فاللَّوْنُ وبياضُ العينَيْن والثَّغْر ، والظُّفْر ، إلاَّ أنْ يُصْبَغَ ، وأمَّا الأربعةُ الحمرُ ، فالوَجْنَتَانِ ، والشَّفَتَان ، واللسَان واللَّثَة ، وأمَّا الأربعةُ الكبار فالثَّدْيَان ، والفرْجُ ، والعَجِيزَةُ ، والرُّكْبَتَان ، وأمَّا الأربعةُ الصِّغَارُ فالأُذُنَانِ والفمُ واليدانِ والرِّجْلَانِ ، وأمَّا الأربعةُ الواسِعَةُ ،

---

(١) لا ينزع : لا يكف يقال : وزَعه يَزَعه فاتَّزَع .

(٢) فلما غاب أرتنيه : يريد أن القمر الحقيق لما غاب أرتنى منها قمراً .

فالجبين والعينان وأصولُ التَّدْيَيْنِ والسُّرَّةُ ؛ وأمَّا الأربعة الضيِّقَةِ فالمَنْخُرانِ والأذُنانِ والخَصْر والفَرْج .

* * *

الحسن فى اللغة :

قال الثعالبى فى فقه اللغة : إذا كانَ بالمرأة مسْحَةٌ من جمال فهى وَضيئَة وجميلة ، فإذا أشبهَ بعضُها بعضاً فى الحُسْنِ فهى حُسَّانَةٌ ، فإذا استغنت بجمالها عن الزِّينة فهى غانية ، فإذا كانت لا تُبالى أنْ لا تلبَس ثوباً حسناً ولا تتقلَّدَ قِلادةً فاخرةً فهى مِعْطَالٌ ، فإذا كان حُسْنُها ثابتاً كأنَّهُ قد وُسِمَ فهى وسيمةٌ ، فإذا قُسِمَ لها حظٌّ وافر من الحسْنِ فهى قسيمةٌ ، فإذا كان النظرُ إليها يَسُرُّ الرُّوعَ — القلبَ — فهى رائعة ، فإذا غلبت النساء بحسْنِها فهى باهِرة ..

وقال فى فصل آخر :

الصباحةُ فى الوجه ، الوضاءةُ فى البشَرة ، الجمالُ فى الأنْف ، الحلاوَةُ فى العيْنَيْن ، المَلاحَة في الفم ، الظرْفُ فى اللِّسَانِ ، الرَّشاقةُ فى القَدِّ ، اللَّباقَةُ فى الشَّمائِل ، كمال الحسن فى الشَّعَر .

مضهم المرأة على النظافة والتجمل والزينة وعبقريانهم فى وصف جمال المرأة تفصيلا

جُبِلَتْ المرأةُ على حُب التجمُّل والوَلُوع بالزينة والإغرَام بالافتنان فى ذلك ، ولها العذرُ كُلُّهُ فى هذا الوَلُوع وذلك الاغرَام ! أليست الزينةُ من تمام جمالها ! أوَ ليسَ جمالُ المرأة وتَجَمُّلُها مَدرجَةَ مَيل الرجُل وافتنانِه بها ! وقِوامُ الزينةِ النظافة ، ولتَحْذَرِ المرأةُ كُلَّ الحذَر أن يقعَ بصرُ الرجل منها —

أعنى زوجها — على شيء يَشمئزُّ منه وينفر ، من وَسَخٍ أو شَعَثٍ أو رائحةٍ مُستكرَهة ، أو شيء من هذا القبيل .

يجب على المرأة أن تتجمل لِبَعْلِها ، وتزيدَ فى تحسين نفسها ، ما وجدَت إلى ذلك سبيلا ، وذلك بتنظيف البدن ، وما يحيُط بالبدن[1] ، أما البدَن فبتَنْظِيفِ البشرةِ بالماء — بإدمانِ المضمضةِ والاستنشاق . والاستنثار ، وغسْل اليدين إلى المِرْفقَين وغسل الرِّجلين ، ومسح الرأس — أى العنايةِ بنظافة الشعر — وهذا ما يُعبَّرُ عنه فى الإسلام بالوضوء ، وبالاغتسال — وهو الذى يعبر عنه بالغسل من الجنابة ، وبالإكثار من دخول الحمام ، وبالعناية بالأسنان بتسويكها ، وتخليلها ، وبتنقية العين وتَكحِيلها ، وبتقليم الأظفار وتسويتها ، وبتنظيف المغابن[2] وإزالة ما بها ، وبحلق العانة أو انتيارها[3] ، وبالخِفاضِ ، وما إلى ذلك من كل ما تعوزه النظافة من سائرِ أعضاء البدن .

* * *

السواك وعبقرياتهم فيه وفى الثغور والأفواه

السواك — أو المسواك — ولا سيما سواك الأَراك[4] ، كانَ مَعروفاً عند العرب فى جاهليَّتِهم ؛ وقد وردَ الحَضُّ على استعماله فى الأحاديث الشريفة ، وأَصْفَقَ القُدماء من الأَطبّاء على أَنَّهُ من أَنفَع الأشـــياء ، فَهُو يَجْلُو —

---

(١) ترى عبقرياتهم فى الزينة وما يحيط بالبدن فى آخر هذا الباب .

(٢) سيمر عليك قريبا تعريف المغابن .

(٣) انتيارها : إزالتها بالنورة كما ترى فى موضعها من هذا الباب .

(٤) الأراك : شجر معروف يستاك بفروعه وعروقه ، وترى المساويك تباع فى الأعمّ الأغلب أمام المساجد والأضرحة المشهورة مثل ضريح الحسين والسيدة زينب والسيد البدوى والدسوقى رضى الله عنهم وأرضاهم .

يَصقِل — الأسنان ، ويُقَوِّيها ، وهو يَشُدُّ العمُورَ [١] وَيمنَعُ الحَفَرَ [٢] ، ويُطَيبُ النَّكْهَةَ — رائحةَ الفمِ — وفى الحديث الشريف (السِّواكُ مَطْهَرَةٌ لِلفم) وورد أيضا فيه (لَولاَ أنْ أشُقَّ على أُمَّتى لأمَرْتُهم بالسواكِ عندَ كلِّ صَلاَة) وفيه (مالى أراكُم تَدْخُلون علىَّ قُلْحًا ! استَاكوا) .

وفيه (أوْصانى جِبريلُ بالسواكِ حتى خَشيتُ عَلَى عُمُورِى) .

«العُمُور جمع عَمْر ، وهو لَحْمٌ مِن اللِّثة نازلٌ بين كلِّ سِنَّيْنِ» .

وكان أصحابُ سيدنا رسول الله يَغْدُونَ ويَرُوحُونَ والسواكُ على آذانهم ، ولم يكنْ في عهْدِ النبى صلى الله عليه وسلم أكثرُ استعمالا للسواك من نسائه رضوان الله عليهن ، ويُستَحَبُّ السواكُ عند كل صَلاَةٍ ، وعند كل وُضوء ، وعند تغيُّرِ النَّكهَةِ بالنَّوْمِ أو أكلِ ما تُكْرَهُ رائحتُه . ويقوم مقام السواك غيرُه من كل ما يُنَظِّفُ الأسنَان ويُطَيِّبُ النَّكهَة :

وقد أشادَ الشعراء بالسواك وتشبَّبُوا بالثُّغُور والأفْوَاهِ التى تَستَاك فمِنْ طَريف ذلك قول بعضهم :

بِالله إنْ جُزْتَ بوادِى الأرَاكْ ... وقبَّلَتْ أغصانُه الأُذْنُ فاكْ

فابْعَثْ إلى المَملوكِ مِن بعضها ... فإنَّنِي والله مالِى سِواكْ

وقولُ الآخر :

أقولُ لِسوَاكِ الحبيبِ لكَ الهَنَا ... بِلَثْمِ فَمٍ ما نَالَهُ ثَغْرُ عاشقِ

---

(١) العمور جمع عمر وهو اللحم النازل بين الأسنان .

(٢) الحفر : صفرة تعلو الأسنان وقال أحد أئمة اللغة : الحفر : أن يحفر القَلَحُ — وسَخ يركب الأسنان من طول ترك السواك — أصول الأسنان بين اللثة وأصل السِّنّ من ظاهر و باطن يُلح على العظم حتى يتقشر العظم إن لم يدرك سريعا .

فقال ، وفى أحشائه حُرَقُ الجَوَى مقالةَ صَبٍّ للديار مُفارِقِ
تذكرتُ أوطانى فقلبى كما ترَى أُعَلِّلُهُ بين العُذَيْب وبارِق(١)

وأهدَى الشاعر أبو الفاتح كُشاجِم إلى بعض القِيان مِسْوَاكًا وكتب إليها :

قد بَعَثْنَاهُ لكَىْ تجْلُو بِهِ واضحًا كاللؤلُؤِ الرَّطبِ أغرّ(٢)
طابَ منهُ العَرفُ حتى خلتُهُ كان من ريقِكِ يُسْقَى فى السَّحَرْ
وأَمَا والله لو يَعلمُ مَا حَظُّهُ منك لأثْنَى وشكَرْ
ليتنى المهْدَى فيَرْوِى عَطَشِى بَرْدُ أنيابِك فى كلِّ سَحَرْ(٣)

وقال آخر وهو طريف بديع :

بأَبِى فَمٌ شَهِدَ المحبُّ لهُ قبل المذاقِ بأنَّه عَذْبُ
كشهادةِ لله خالِصَةٍ قبل العِيانِ بأنَّه رَبُّ

وقال آخر :

نقَلَ الأراكُ بأنَّ ريقةَ ثغرِهِ من قهْوَةٍ مُزِجَتْ بماء الكوْثَرِ
قد صحَّ ما نقلَ الأراكُ لأنَّه قدجاء يَرْوِى عن صحاح الجوْهَرِى

---

(١) العذيب : ماء لبنى تميم قرب الكوفة ، وبارق من ديارات العرب هناك ، والعذيب أيضا تصغير عذب ، أى حلو ، وبارق من صفات الثغور يقال : فلان براق الثنايا ، إذا أريد وصف ثناياه بالحسن والصفاء وأنها تلمع إذا تبسم كالبرق ، وهم يصفون ريق الحبيب بالعذوبة ، والمعنى واضح ، وفيه لون من التضمين وأصله قول المتنبى :

تذكرت ما بين العُذَيْب وبارق مجر عوالينا ومَجْرى السَّوابق

(٢) تجلو : تصقل ، واضحا كاللؤلؤ الرطب ، يريد ثغرها ، واللؤلؤ الرطب كناية عما فيه من الرونق والبهاء وليس المراد بالرطوبة المعنى الذى هو نقيض اليبوسة .

(٣) يتمنى لو أنه كان المسواك .

وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ :

وَتَجْلُو بِفَرْعٍ من أَرَاكٍ كأَنَّهُ ... مِن العَنْبَرِ الهِنْدِيِّ والمِسْكِ يُصْبَحُ (١)

ذُرَا أُقحوانٍ واجَهَ الليلَ وارتقى ... إليه النَّدَى مِن رَامَةَ المُتَرَوِّحُ (٢)

هِجانَ الثنايا مُغْرَبًا لو تَبَسَّمَتْ ... لِاخْرَسَ عنه كادَ بِالقولِ يُفْصِحُ (٣)

وَقَالَ بَشَّار بن برد — وهو مِن أحسن ما قيل فى الريق :

يَا أَطيَبَ النـاسِ رِيقًا غـيرَ مُخْتَبَرٍ ... إلا شَهَادَةُ أَطرافِ المَسَاوِيكِ

قد زُرْتَنَا زَورةً فى النَّـــوم واحدةً ... ثَنِّ ولا تَجْعَلِيهَا بيضَةَ الدِّيكِ (٤)

---

(١) تجلو : تصقل ، من جلا السيف والمرآة جلاءاً وجلواً : صقله ، ويصبح من من صبحه يصبحه بالفتح فيهما : — سقاه الصبوح ، وهو ما يشرب بالغداة ، ضد الغبوق ، جعل ريقها المشبه بالعنبر والمسك صبوحا لفرع الأراكة التى تستاك به .

(٢) ذُرَا بالضم جمع ذروة وهى أعالى كل شىء ، وأقحوان بضم الهمزة : نبت تشبه به الأسنان فى صغرها وحسن تنسيقها وهو المسمى « بالبابونج » ، والواو فى وارتقى للحال ، ورامة اسم موضع فى آخر بلاد بنى تميم بينه وبين البصرة اثنتا عشرة مرحلة والمتروّح : نعت للندى من تروح القوم : ساروا وقت الرواح ، يقول : تجلو بمسواكها أسنانا تشبه أعالى أقحوان واجه الليل وقد سار اليه الندى من رامة وقت العشىّ حتى إذا ما توسطه قطر عليه ، يريد بذلك غضارة أسنانها وحسن نضارتها .

(٣) هجان الثنايا : أبيضها ، والهجان : الأبيض من كل شىء ، ومُغْرَبًا — بصيغة اسم المفعول — أى أبيض صافياً من الغربة وهو البياض الصرف .

(٤) زعموا أن الديك يبيض بيضة واحدة فى عمره ثم لا يعود ، يضرب مثلا لمن يصنع الصنيعة ثم لا يعود لها وهى بيضة العُقْر التى عَنَاها أبو نواس بقوله .

باحَ لِسَانِى بِمُضْمَرِ السر ... وذاك أنى أقول بالدَّهْرِ

وليس بعد المماتِ مُنْقَلَبٌ ... وإنما الموتُ بيضَةُ العُقْرِ

وهذا شعرُ ملحد زنديق ، وقيل أن بيضة الديك العقر هى التى تجرّبُ بها المرأة أثيب هى أم بكر ، وإنما يفعل بها ذلك مرة فى العمر .

يا رَحْمَةَ اللهِ حُلِّى فى مَنازِلِنَا ... حَسْبِي برائحةِ الفِردَوسِ من فيكِ[1]

ويقول ابن الرومى :

تَعَنَّتُ بالسِّواكِ أبيضَ صافِياً ... تَكادُ عَذارَى الدُّرِّ مِنْه تَحَدَّرُ[2]

وما ذُقْتُهُ إلا بِشَيْمِ ابتسامها ... وكَم مُخْبِرٍ يُبْدِيهِ لِلْعَينِ مَنظَرُ[3]

بَدَا لِي وَمِيضٌ شاهِدٌ أنَّ صَوْبَهُ ... غَرِيضٌ وماعِندِي سِوَى ذاكَ مُخْبِرُ[4]

وما تعتَرِيها آفَةٌ بَشَرِيةٌ ... مِن النَّومِ إلاَّ أنَّها تَتَخَتَّرُ[5]

وغَيرُ عَجِيبٍ طِيبُ أنفاسِ روضةٍ ... مُنَوَّرَةٍ باتَتْ تُرَاحُ وتُمْطَرُ[6]

كذلك أنفاسُ الرياض بِسُحْرَةٍ ... تَطِيبُ وأنفاس الورَى تتَغَيَّرُ

وقال :

هى الفتاةُ إذا اعتلَّت مَفَاصِلُها ... بالنَّوم واعتلَّتْ الأفْوَاهُ بالسَّحَرِ

طابت هناك لحين لا يَطِيبُ لَهُ ... إلا الرياضُ كأن ليست مِنَ البشرِ

وقد تَبِعَ التَّهامِيّ ابنَ الرومى فى قوله :

وَغيرُ عَجيبٍ طيبُ أنفاس روضة

فقال :

يَحكِى جَنَى الأقحوانِ الغَضِّ مَبْسِمُها ... فى اللَّونِ والرِيحِ والتفليجِ والأُشُرِ

---

(١) كان اسم المرأة رحمة . (٢) تعنَّت من العنت ، والعذارى : الأبكار لأنها لم تثقب ، وتحدر بحذف إحدى التاءين أى تتحدر .

(٣) الشيم : شيم البرق ، وتشبه الابتسامة بتألق البرق ولمعانه .

(٤) الغريض : فى الأصل : الطرى : ويقال لماء المطر غريض ، يعنون ذلك : ن ريقها غريض .

(٥) تتختر ، فالتختر . التفتر والاسترخاء (٧) تراح : تصيبها الريح .

لو لم يكن أُقحُوانًا ثَغْـــرُ مَبْسِمِها ... ما كان يزداد طيبًا ساعةَ السَّحَرِ

وَقَالَ ابن الرومى :

يا رُبَّ ريق باتَ بَدرُ الدُّجَى ... يَمُجُّـــهُ بين ثنايا كا

يُروِى ولا يَنهاكَ عن شُربِهِ ... والمـــاءُ يُرويكَ وينهاكا

وَقال عُبيدُ الله بنُ عبد الله بن طاهر :

وإذا سألتُكَ رَشفَ رِيقِك قلت لِى ... أَخشَى عقـــوبَةَ مالِكِ الأملاكِ

فاذا عليك جُعلتُ قبلكَ فى الثَّرَى ... مِن أن أكونَ خليفَةَ المسواكِ

أيَجوزُ عنـدك أن يكونَ مُتَيَّمٌ ... صَبٌّ بِحُبِّكَ دُونَ عُودِ أَرَاكِ

وقال أبو تمام :

تُعطِيكُ مَنطِقَها فتَعْـــلَمُ أنه ... بِجَنَى عُذوبَتِهِ يَمُرُّ بِثَغْرِها

وقال البُحترى :

ولَمَّا التقَيْنا واللِّوَى مَوْعِدٌ لنا ... تَعَجَّبَ رائى الدُّرِّ حُسْنًا ولاقِطُهْ

فَمِن لُؤلُؤٍ تجلُوهُ عنـــد ابتسامها ... ومِنْ لُؤلُؤٍ عند الحديث تُسَاقِطُهْ

وقال — أى البحترى :

بات نديمًا لى حتى الصَّباحْ ... أُغيِدُ مجدُولُ مكانِ الوِشاحْ

أمزُجُ كأسِى بِجَنى رِيقِـه ... وإنمـــا أمزُجُ راحًا بِراحْ

كأنما يَبْسِم عن لُؤلُؤٍ ... مُنَضَّـدٍ أو بَرَدٍ أو أَقاحْ (١)

تحسَبُـــهُ نشوانَ إمَّا رَنَا ... للفَتْرِ مِنْ أجفانِه وهو صاحْ

أغضَيْتُ عن بعضِ الذى يُتَّقَى ... مِنْ حَرَجٍ فى حبِّـه أو جُناحْ

---

(١) المنضد : المنظم ، والبرد : حب الغمام ، والأقاح : جمع أقحوانة : ورد له نوار أبيض « البابونج » .

وقال فى بياض الثغر :

ويرجعُ الليلُ مبيضًا إذا ضحِكَتْ عن أبيضٍ خضِلِ السِّمطَينِ وضّاحِ

« فجعله يجلو الظلام لبياضه ، وذكر كثرة الريق فقال : خضِل ؛ لأن قلة الريق تورث تغيّر الفم ، وذكر حسن تنضيد الثغر فجعله سمطين » .

وقال ابن المعتز :

يا نَدِيمَيَّ اشرَبَا واسقِيانا قد بَدَا الصُّبْحُ لنا واستبانا
واقتُلا هَمَّنا بصرْفٍ عُقارٍ واتركا الدهر فما شاء كانا
إنَّ للمكروه لَذْعَةَ شرٍّ فإذا دامَ على المرء هانا
وامزُجا كأسنا بريقةِ ألْمَى طابَ للعطشانِ وِرْدًا وحانا[1]
من فمٍ قد غُرِسَ الدُّرُّ فيه ناصِحِ الريقِ إذا الريقُ خانا[2]

وقال الشريفُ الرضى :

بِتْنا ضجيعَينِ فى ثَوْبَىْ هوًى وتُقًى يَلُفُّنا الشوقُ من فَرْعٍ إلى قدمِ
وبات بارِقُ ذاك الثَّغْرِ يُوضِحُ لى مَوَاقِعَ اللَّثْمِ فى دَاجٍ من الظُّلَمِ

ومن قديم هذا المعنى وجيّده قول النابغة :

تجْلو بقادِمَتَىْ حَمامَةِ أيْكَةٍ بَرَدًا أُسِفَّ لِثاتُهُ بالإثْمِدِ
كالأقحُوانِ غداةَ غِبِّ سمائِهِ جَفَّتْ أعَالِيهِ وأسْفَلُهُ نَدِ

« شبّهَ شفَتَيْها بقادمَتَىْ الحمامة ، وهما الريشتان اللّتَانِ فى مقدّمَتَىْ جَنَاحَيْها ، لرقتهما وشدّة سُمْرَتِهِما ، فجعلهُما يجلُوَانِ أسنانَهَا ، أى يُظْهِرَانِ

---

(١) ألمى : سيمر بك قريباً معنى اللمى . .

(٢) ناصح الريق : خالصه لا يشوبه شىء يغيره فى الوقت الذى يتغير الريق فيه وهو عقب النوم .

بياضها بما فيها من السُّمْرَةِ ، وكانَ نساء العرب يجرَحْنَ لثاتِهِنَّ ويجعَلْنَ الإثمِدَ عليها فيبقى سوادُه فيها ، فقوله : أُسِفَّ أى رُزَّ الإثمدُ على لثاتِها وتقول : أُسْفَفْتُ الوشْمْ وهو أن يغرز الجلد بإبرة ثم تُحشَى المغارزُ كُحْلاً ، وقوله : أَلْبيتَ ، شبَّهَ الثغرَ بالأُقحُوانِ وقد مُطِرَ ليلا فجلاه المطر وصفَّى لونَه ثم جف الماء من أعـــلاهُ فاشتد بياضُه بسبب ذلك وبَقِى أسفله مُتَرَوِّيًا بالندى » .

وقال الشريف الرضى :

يا عَذْبَةَ المَبْسِمِ ! بُلِّى الْجَوَى ... بِنَهْلَةٍ مِنْ رِيقكِ البـــارِدِ
أَرَى غـــديراً سَيْحاً ماؤُهُ ... فهل لِذَاكَ الماء من وارِد
من لى بذاك العسَل الذائب الـ ... ـجَارى خِلَالَ البَرَدِ الجامِدِ

وقال شاعر جاهلى — قيلَ عَبيدُ بن الأبرص وقيلَ أَوْسُ بن حَجَرَ :

كأنَّ رِيقَتَها بَعْدَ الكَرَى اغْتَبَقَتْ ... من ماءِ أَدْكَنَ فى الحانُوتِ نَضَّاحِ
أَوْ مِنْ مُعَتَّقَةٍ وَرهاءَ نَشْوَتُها ... أو من أنابيب رُمَّانٍ وَتُفَّاحِ

الريق : ماء الفمِ ويؤنَّث فى الشعر فيقال : ريقتها ، واغتبقت من الاغتباق وهو شربُ العَشِىّ ، والأدكن : ما تعلوه الدُّكنَةُ ، وهى لونٌ بين الحمرة والسَّواد ، أراد به الزِّقَّ ، والحانوت : حانوت الخمَّار ، والورهاء فى الأصل : الريح التى فى هُبُوبها خُرْقٌ وعجرَفَةٌ . والنشوة — بكسر النون وفتحها — : الرائحة الطيِّبَة ، يريد أن رائحتها تهُبُّ فتنتشر مثل هبوب تلك الريح وانتشارها ، يصف بذلك كُلُّه طيب ريقتها » .

وقال ابن وَكيع :

رِيقٌ إذا ما ازدَدْتُ من شُرْبِهِ ... رِيًّا ثَنانِى الرِّىُّ ظَمْآنا

كالخمرِ أَرْوَى ما يكونُ الفَتَى ... من شُرْبِها أَعْطَشُ ما كانا

وقال ابنُ مَيَّادَة :

كأنَّ على أنيابِها المسكَ شابَهُ ... بُعَيْدَ الكَرَى من آخرِ الليلِ عابِقُ (١)

وماذُقتُهُ إلاَّ بعَيْنِي تَفَرُّساً ... كما شِيمَ فى أعْلَى السَّحابَةِ بارِقُ (٢)

يَضُمُّ إلىَّ الليلُ أطفالَ حُبِّها ... كما ضَمَّ أزرارَ القميصِ البنائِقُ (٣)

وقال أبو الفتح كُشاجم :

البَدْرُ لا يُغْنِيكَ عنها إذا ... غابَتْ وتُغْنِيكَ عن البَدْرِ

فى فِيهَا مِسكٌ وَمَشْمُولَةٌ ... صِرْفٌ ومنظومٌ من الدُّرِّ

فالمِسْكُ للنَّكْهَةِ ، والخمرُ للريقَةِ ، واللُّؤْلُؤُ للثَّغْرِ

وقال أيضا — كُشَاجِم :

عَرَضْنَ افعَرَّضْنَ القلوبَ مِنَ الجَوَى ... لأَسْرَعَ فى كَيِّ القُلوبِ من الجَمْرِ

كان الشِّفَاهَ اللُّعْسَ فيها خواتِمٌ ... من المسكِ ، مختومٌ بهنَّ على دُرِّ

وقال المتنبي :

وَيَبْسِمنَ عن دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مثلَهُ ... كأنَّ التَّرَاقِي وُشِّحَتْ بالمباسِمِ (٤)

---

(١) شابه : خالطه ، وعابق فاعل شاب من شابه ، وكأنه صفة لموصوف محذوف والتقدير : شاب المسك طيب عابق ، أى ملازم لأنيابها لا يفارقه من عبق به الشيء : إذا لزق به قال طَرَفة : ثم راحوا عَبَق المسك بهم .

(٢) شيم البرق : نظر إلى سحابته أين تمطر .

(٣) أراد بالأطفال الأحزان المتولدة عن الحب ، والمراد بالبنائق هنا العُرى التى تدخل فيها الأزرار وهذا البيت يروى لقيس المجنون ولعله هنا تضمين .

(٤) التراقى : جمع ترقوة وهى العظام التى فوق الصدر ، يقول : إن ثغورهن فى الصفاء وحسن النظم مثل الدر الذى تقلدنه فكأن تراقيهن حليت بثغورهن .

وقال أبو صَعْتَر البَوْلانِيّ . وهى من أبيات حماسة أبى تمام :

فَما نُطْفَةٌ من حَبِّ مُزْنٍ تقاذَفَتْ ... به جَنْبَتَا الجُودِيِّ وَاللَّيلُ دامِسُ
فَلَمّا أَفَرَّتْهُ اللِّصَابُ تَنَفَّسَتْ ... شَمالٌ لأَعْلَى مائِهِ فَهْوَ قارِسُ
بأطيبَ مِن فِيها وما ذُقْتُ طَعمَهُ ... ولكنَّنى فيما تَرَى العَينُ فارِسُ

« النطفة : الماء القليل الصافى يبقى فى نحو القِرْبَة والدَّلو ، وأراد بحَبِّ المُزْن : البَرَد ، والمُزْن : السحاب فيه المَطَر ، والجُودى : اسم جَبَل ، وجنبتا الجودى : الكَنَف والناحية ، والدامِس : المُظلم ، واللِّصَاب جمع لِصْب ، وهى شقوق فى الجبل ، والقارس : البارد ، أى هَبَّت شَمالٌ عليه فَبَرَد ، وفارِس : مُتَفَرِّس ، يقول : ليس ماء المُزْن سالت به ناحيةُ جَبَلِ الجودِيِّ فى الليل المظلم فلما قَرَّ هذا الماء فى الشقوق هبّت رِيحُ الشَّمالِ عليه فَبَرَدَ ، بأعْذَبَ مِن رُضابِ فم هذه المرأة ، ولا أقولُ هـذا عن ذَواقٍ واختِبارٍ ولكن عن صِدْقِ فِراسَةٍ » .

وأصل هذا المعنى لامرىء القيس حيث يقول :

وَثَغْرٍ أَغَرَّ شَتِيتِ اللِّثاتِ ... لَذِيذِ المُقَبَّـــلِ والمُبْتَسَمْ
وما ذُقتُه غـــيرَ ظَنٍّ بِه ... وبالظَّنِّ يَقْضِى عليكَ الحَكَمْ

وقال الخُبْزَ أَرُزِّى فأحْسَن :

ومِنْ طاعَتِى إيَّاهُ أَمْطَرَ ناظِرِى ... لَهُ حِينَ يُبْدِى فى ثَنايَاه لِى بَرَقَا
كأنَّ دُمُوعِى تُبْصِرُ الوَصْلَ هارِبًا ... فَمِنْ أَجْلِ ذا تَجْرِى لِتُدْرِكَهُ سَبَقَا

ومثله قول المتنبى :

تَبُلُّ خَـدَّىَّ كُلَّمَا ابتَسَمَتْ ... مِنْ مَطَرٍ بَرْقُه ثَنـــاياها

« يقول : إنَّ دُموعى كالمطر تَبُلُّ خَدَّىَّ ، أى كلما ابتسمتْ بَكَيتُ ، فكأن دَمْعِى مَطَرٌ بَرقُه بَرِيقُ ثناياها ، إذ كان بُكائى فى حال ابتسامها » .

وما قالوه فى وصف الثغور والأفواه كثير يُجاوِزُ الإحصاء ، والأصْلُ فيه قولُ امرئ القيس :

كأنَّ المُدامَ وَصَوْبَ الْغَمَامْ وَرِيحَ الخُزَامَى وَنَشْرَ الْقُطُرْ
يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أنيابهـــا إذا غرّدَ الطائرُ المُسْتَحِرْ

« شبّهَ امْرُؤُ القَيس ماء فِيها فى طِيبِه عند السَّحَرَ بالمُدام — الخَمْر — وصوب الغَمام الذى يُمزَج به الخَمر ، وريح الخُزَامَى ، وهو نَبْتٌ من أطْيَب الأزهار ، ونَشْرِ القُطرِ ، أى رائحةِ العودِ الذى يُتَبَخَّرُ به ؛ والطائر المُستحِر : المُصوِّتُ وقتَ السَّحَر » .

***

هذا وإليك طرفاً مما يتعلق بالثغور والأفواه فى اللغة ، قالوا : إذا كان بين الأسنان كلها تفريق كبير فالثغر شَتِيتٌ والرَّجُل شتيت الثغر ، وليس ذلك بمكروه ، فاذا كان التفريق بين الثنايا خاصّة — وهى أسنان مُقَدّم الفم — فالثّغرَ أفلَج ، والرجل أفلج الأسنان ، والفلج من الأوصاف المستحسنة ، وجاء فِي وَصف سيدنا رسول الله (أنه كان أفلَجَ أبْلَجَ الثَّنِيَّتَيْنِ ، إذا تكلم رُؤِى كالنُور يَخرُج من بين ثناياه صلوات الله وتسليماتُه عليه)

والأُشُرُ فى الأسنان — بضم الهمزة وضم الشين وفتحها — حِدَّة فى أطرافِها وتَحْزِيز فيها ، يكونُ خِلْقَةً ومُسْتَعملاً ، وهو مما يستحسن ، وأكثر ما يكون مع الصِّغر وحَداثة السن ، والشنَبُ هو : الماء الجارى على الأسنان ، وقال بعضهم : هو بَرْدُها وعذوبَةُ مذاقِها ، وقال الأصمعى : سألتُ رُؤْبَةَ عن الشنب ؟ فأخذ حَبَّةَ رُمَّان وأومأ إلى بَصِيصِها وبريقها وقال : هذا الشنب ، ومِثْلُ الشنب الرُضاب ، ومَثلهما الظَّلْم ، قال بعضهم :

وهندٌ تيَّمتْ قلبى غداةَ النحر إذ ترمى
بوجهٍ مُشرقٍ صافٍ وثغرٍ بارد الظَّلْمِ

وقال الحُصَيْنُ بن الحُمام :

إذا ما اجتَلَى الرَّانى إليها بطَرْفِه غُروبَ ثنايـاها أنارَ وأظْلَمَا

« الغُروب : حَدُّ الأسنان ، واحِدُها غَرْب ، والرَّانِى : المُديمُ النَظَر ، وقوله : أنارَ وأظْلَمَا : أى أصاب ضَوْءاً وظَلْماً ، والظَّلْمُ : ماء الأسنان ، والثَغْر يوصف بالنُّور واللَّمَعَان ، ويُشَبَّه بالبرْق والمَها ، والمها فى الأصل : البِلَّوْرُ الذى يَبِيضُّ لِشدّةِ بياضه ، وقيل الدُرَّة قال الأعْشى :

وتَبْسِمُ عن مهًا شَبِمٍ غَرِىٍّ إذا تُعْطى المُقبَّلَ يَسْتَزِيـدُ

« شَبِم : بارد ، وغَرِىٌّ : حَسَن ، ووجْهٌ غرِىٌّ : حَسَن » .

واللِّثَاتُ جمع لِثَة . وهي : اللحم المُغَشِّى لأُصول الأسنان ، وَيُسَمَّى ما نزل منه بين الأسنان على هيئة الشُّرُفُ : العُمُورَ ، واحدها عَمْر ، ويسمى أيضاً القُيُود [1] قال :

لَمُرْتَجَّةُ الأَرْدَافِ هِيفٌ خُصُورُهَا عِذابٌ ثناياها لِطافٌ قُيُـودُها

ويستحسن من الشفاه الشَّفَةُ اللَّمياء ، واللَّمَى — مَقصوراً — سُمْرَةٌ يسيرَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ تكونُ فى الشفاهِ واللِّثَاتِ ، وقد تُكْسَرُ اللامُ منه وتُضَم ، قالَ جميلٌ :

تَبَسَّمُ عن ثنـايا واضحاتٍ عِذابِ الطَّعم زَيَّنَهَا لَمَاهَا

---

(١) القيود فى الأصل : سِمة حمراء تكون فى عنق البعير على صورة القيد فشبهوا بها اللثات وما نزل منها بين الأسنان .

ومن قول ابن المعتز :

لما تعرّى أفقُ الضياء مثلَ ابتسام الشفةِ اللّمياء

وقد يكون اللّمى فى غير الشفاهِ واللّثاتِ يقال : شجرةٌ لَمْياء : إذا اسوَدَّ ظلُّها لكثافةِ أغصانِها .

ويُستحسَنُ من الشفاهِ أيضاً الشَّفَةُ الحَوّاء ، واللَّعْساء ، والحُوَّةُ : سُمْرَةٌ يسيرةٌ ، وهى نحرٌ من اللّمى وربما كانت أشدَّ من اللّمى ، قال ذو الرُّمَّة :

لَمياء فى شفَتَيْها حُوَّةٌ لَعَسٌ وفى اللّثاتِ وفى أنيابها شَنَبُ

واللَّعَسُ : سوادٌ يعلو شفَةَ المرأة البيضاء ، وقيل : هو سوادٌ فى حُمْرَةٍ ، قال أبو الفتح كشاجم :

عَرَضْنَ فعرّضْنَ القُلوبَ من الهوى لأسْرَعَ مِنْ كَرّ القُلوبِ على الجمْرِ

كأنّ الشفاهَ اللُّعْسَ منها خواتمٌ من التِّبْرِ مختومٌ بهنّ على الدُّرِّ

ومن الشفاهِ المستحسنة الشّفَةُ الظّمياء ، والظما مقصوراً — : سُمْرَةٌ يسيرةٌ مع رقةٍ وضُمورٍ ، ورِقَّةُ الشفاه ممـــا يستحسَنُ وضِدُّهُ الدَّلَمُ — بالتحريك — والمرأة دَلْماء ، قال أبو عُبَيْدَةَ عند قول الفَرزدق :

وإن نَبَّهْتَهُنَّ الولائدُ بعـــدَ ما تعالَى نَهارُ الصَّيفِ أو كادَ يَنْصُفُ[1]

دَعَوْنَ بِقُضْبانِ الأَراكِ التى جَنَى لها الرَّكْبُ من نُعمانَ أيامَ عَرَّفوا[2]

فَمِحْنَ بِهِ عَذْباً رُضاباً غُرُوبُهُ رِقاقٌ وأعلَى حَيْثُ رُكِّبْنَ أعجَفُ[3]

---

(١) أنصف النهار وانتصف واحد .

(٢) عرّفوا : أتوا عرفات حين حجوا بهذه القضبان وهى المساويك .

(٣) مِحن به : يريد سقين به ، والمائح : الذى ينزل إلى البئر فيغرف الماء إذا قل ماؤها .

قال : قوله : وأعلى حَيْثُ رُكِبْنَ أراد به لحم الأَلْيَة ، يخبر أنها قليلة اللحم ، والعربُ تمدَحُ بقلّتِهِ وتَذُمُّ بكثرته ، فلذلك ذكر العَجَف ، قال : ويستحبُّ فى الشَّفَة الحوشَة ، وهى الرِّقة ، فإن غَلُظَتْ قيل : شَفَةٌ بَشْعاءُ والرجل أبشعُ ، ويقال فى مثل ذلك ، امرأةٌ شَفَهِيَّةٌ ، أى كبيرةُ الشَّفَة ، ورجلٌ شَفَهِىٌّ . وقيل لابن سيرين : إنَّ فُلاناً اشْتَرَى جاريةً غليظة الشَّفَتَيْن ! فقال : لو اشْتراها غليظةَ الشُّفْرَيْن كان خيراً لَهُ . الشُّفْران : حَرْفَاهَنِ المرأة ، والشَّفِيرَةُ من النساء التى تجدُ شهوتَها فى شُفْرِهَا فيجىء ماؤها سَرِيعاً ، وقيل هى التى تقنع من النكاح بأيْسَرِه ، وهى نَقِيضُ القَمِيرَة » .

***

ذَمُّهُم البَخَرَ :

ولمكان حضِّهم على نظافة الفم واللجوء إلى مثل المسواك ذَمُّوا البَخَر والقَلَحَ أقبح الذَّمّ ونَمَوْهما على من نُكِبُوا بها .

قال ابن المعتز أو غيره :

وإنَّ امرأً يَقْوَى على لَثْم ثَغْره على الضغط والتعذيب فى قبرِهِ يَقْوَى

وقال جرير :

كأنَّ مقالِعَ أضْراسِهِمْ إذا ضَحِكُوا جِيَفُ الْحُنْفُسِ

وشكا أبخرُ ضرسَهُ ، ففتح فاه للطبيب ، فشمَّ منهُ رائحةً كريهةً ، فقال له : مُرْ كنَّاساً يكنسه ، فهذا كنيف !

وسارَرَ أبو الأسود الدُّؤلى سليمانَ بن عبد الملك — وكان أبو الأسود أبْخَرَ — فسترَ سليمانُ أنفَهُ بكُمِّه ، فمشى أبو الأسود وهو يقول : لا يَصْلُحُ للخلافة من لا يقدِرُ على مناجاةِ الشيوخ البُخْر ...

واشترى رجلٌ أبخرُ جاريةً ، فسأله صديق له عن خَبَرِها ؟ فقال : ما زالت

تَمُصُّ الباجةَ لِسانى ، فقال : إن صدَقتْ فإنها بنتُ وَرْدان [1] !

ويقال لكل أبخر : أبو ذِبّان ، وكان عبد الملك بن مَرْوان يُسَمّى أبا الذُّباب ؛ لأن الذباب كان يموت إذا قَرُبَ من فيه ، لشدّة بخره ، ويُحْكَى أنّهُ عضّ يوماً تُفّاحَة ، ورمى بها إلى بعض نسائه ، فَدَعَتْ بسكين فقطعت موضع عَضّته ، فقال لها : ما تَصْنَعِينَ ؟ قالت : أُمِيط عنها الأذى ، فطلّقها من وَقْتِهِ . . والذُّبابُ يُضْرَبُ به المثل فى القَذَر وفى استطابة النَّتْن ، فإذا عجزَ الذُّبابُ عن شمّ شيء فهو الذى لا يكونُ أَنْتَنُ مِنْهُ ، ولذلك قال ابن عَبْدَل حين رَمَى بعضهم بالبَخَر :

وما يَدْنُو إلى فيه ذُبَابْ ولو طُلِيَتْ مَشَافِرُهُ بِقَنْد
يَرَيْنَ حلاوَةً وَيَخَفْنَ مَوْتاً ذُعافا إن هَمَمْنَ لهُ بِوِرْدِ

« مَشَافِرُهُ أرادَ بِهَا شَفَتَيْهِ ، والقَنْد : عسل قصب السكر إذا جمد ، وذعافا يروى وشيكا » .

وسارَّ سَعيدَ بْنَ حُميد رجلٌ به بخر ؛ فقال سعيد : منلك لا يسار وإنما يكاتب . . .

وقال شَقِيقُ بن السُّلَيْك وقد خطب امرأة من قومه فردَّتْهُ :

ونُبْئتُهـــا أحْرَمَتْ قومَها لِتَنْـكِحَ فى معشَرٍ آخرينا
فإمَّا نـكحْتِ . فلا بالرِّفاه إذا ما نـكحْتِ ولا بالبنينا
وَزُوِّجْتِ أشْمَط فى غُرْبَة تُجَنُّ الحليلة منـــه جنونا
خَلِيـــلَ إماءٍ يُرَاوِحْنَهُ وللمُحْصَنَاتِ ضَرُوباً مُهِينا
إذا ما نُقِلت إلى دارِهِ تَظَلُّ الحمامُ عليـــه رُكُونا

---

(١) بنات وردان : صنف من الخنافس ، والخنافس كافة تموت إذا شمت رائحة الطيب وإذا دفنت فى الروث والقاذورات عاشت وإذا دفنت فى الورد ماتت .

يشُمُّكِ أخبثَ أضراسِه إذا ما دَنَوتِ لتستنشقينا
كأن المساويـــــك فى شِدْقِه إذا هُنَّ أكرِهنَ يقلَعْنَ طِينا

وقالوا فى علَّة طيب الفم والبَخَر : من كَثْرَ رِيقُهُ ، وسال لُعَابُه ، لايعرض له الخُلُوف : تغيُّر ريح الفم لتأخُّر الطعام — ومن ثَمَّ كانت الكلاب أطيبَ أفواها ، ويعرضُ الخُلُوف بإدامة انطباق الفَم ، وأطيبُ الناس أفواها الزَّنْجُ ، والأسَدُ والصَّقْرُ موصُوفَانِ بالبَخَرِ .

وصفهم الحديث : ولمناسبة عبقرياتهم فى الثغور والأفواه نورد هنا صدرًا من عبقرياتهم فى وصف الحديث :

قال بعضهم :

مُنَعَّمَةٌ يحارُ الطَّرْفُ فيها كأنَّ حَدِيثَها سُكْرُ الشَّبابِ
من المُتَصَدِّيات لغَير سُوءٍ تَسِيلُ اذا مَشَتْ سَيْلَ الحبابِ

« كأنّ حديثها الخ يريد أنها تُصْبِي بحَديثها فيَحْدُث لِسامِعِه من التَصابى والجَذَل مِثْلُ سُكْرِ الشباب ، لأن الشبابَ فى يُلْهَنِيَةٍ . والحُباب — بضم الحاء — : الحَيَّة ، وبفتح الحاء : حَبابُ الماء . وكلاهما جائز . فقد قال امرُؤ القيس :

سَمَوْتُ إليها بعد ما نامَ أهلُها سُمُوَّ حَباب الماء حالا على حالِ

فقد شبه مشيه بحَباب الماء ، وقال ابنُ المعتز :

فلمّا فَقَدْتُ الصَوْتَ منهم وأطْفِئَت مصابيحُ شُبَّتْ بالعَشِيّ وأنْوُرُ
وخُفِّض عنى الصَوتُ أقبلْتُ مُشْيَةَ الـــحُبابِ وركّنى خيفَةَ القَوم أزْوَر

فالحباب هنا بالضم : الحية « وترى شرح البَيتين فى مَوضع آخر » ..

وقال أعرابىٌّ :

وحديثُها كالفطْرِ يَسْمَعُه راعِي سنين تتابَعَتْ جَدْبا[1]

(١) تتابعت يروَى تتايَعَت ، وهى رواية جيدة ، لأن التتايع أخص بالشَّر .

فأصاخَ يَرجو أن يكونَ حَيَا وَيقول من فَرَح : هَيَا رَبَّا[1]

وقال بَشار بن برد — وكانَ قد وعَدَتْه هوًى له أن تزورَه ، فأخْلَفَتْه فكتب اليها :

يا لَيلَتى تَزدَادُ تُكْرَا مِن حُبِّ مَن أحْبَبْتُ بُكْرَا
وكأنَّ رَفْضَ حَدِيثِها[2] قَطْعُ الرياضِ كسِينَ زَهْرَا
وتَخالُ ما جَمَعَتْ عليـــه ثِيابَها ذَهَبًا وعِطْرَا
وكأنها بَرْدُ الشرا بِ صَفَا ووافق مِنك فِطْرَا

وقال ابن الرومى :

وحَدِيثُها السِّحرُ الحلالُ لَوَ أنَّهُ لم يَجْنِ قَتْلَ المسلم المُتَحَرِّزِ[3]
إنْ طالَ لم يُمْلَلْ وإنهى أوجزَت وَدَّ المُحَدَّثُ أنَّها لم تُوجِزِ
شَرَكُ العقولِ ونُهْزَةٌ ما مِثلُها للمُطْمئِنِّ وعُقْلَةُ المُسْتَوْفِزِ[4]

وقوله شرك المعقول التى فيه بقول ابى تمام :

لها منظرٌ قَيِّدٌ قَيِيدُ النواظِرِ لم يَزَل يروحُ ويَغْدُو فى خَفارَتِه الحبُّ[5]

واليك قطعة لبشار فيها وصف للحديث ولغيره :

---

(١) حيا : مطر . (٢) رَفض الشيء : ما تفرق منه .

(٣) المتحرز : المتحفظ .

(٤) الشرك : الفخ ، ونهزة : فرصة . وتروى : نزهة ، وعقلة : عقال ، والمستوفز المستعجل ، يقول : إن حديث هذه المرأة فرصة جميلة للمطمئن أو نزهة له ، وهى عقال لمن يضطر للانصراف فلا ينصرف عنها .

(٥) قيد النواظِر : أى هو للنواظر — العيُون — كالقيد فلا تنحرف عن النظر إليه لروعته ، وخفارته : حمايته .

أيُّها الساقيانِ صُبَّا شَرابِي ... واسقِيانِي من ريق بيضاء رُود[1]
إنّ رأى الصَّدى وإنّ شِفائى ... شربَةٌ من رُضاب ثَغْرٍ بَرُود
عندها الصَّبرُ عن لقائى وعندى ... زفراتٌ يأكُلْنَ قلبَ الجليد
وَلَهَا مَبْسِم كَغُرِّ الأقاحى ... وحديثٌ كالوَشْى وَشى البُرود
نَزَلَت فى السّوادِ من حبةِ القَلْـــبِ ونالت زيادة المستزيد

واليك إبيات أبى حيَّة النُميرى :

خَبَّرَكِ الواشُونَ أنْ لن أُحِبَّكُمْ ... بَلَى وَسُتُورِ اللهِ ذاتِ المحارِمِ[2]
أَصُدُّ وما الصَّدُّ الذى تَعْلَمِينَهُ ... شِفاءٌ لنـــا اجتراعَ العَلاقِمِ[3]
حَيَاءً وبُقْيَا أنْ يشيعَ نَمِيمَةٌ ... بناء بكم أُفٍّ لأهل النمائمِ
وإن دَمًا لَوْ تَعْلَمِينَ جَنَيْتِهِ ... على الحَيِّ جانى مِثْلِهِ غير سالِمِ[4]
أَمَا إنَّه لو كانَ غيرُكِ أَرْقَلَتْ ... إليه القنا بالراعفاتِ اللهاذمِ[5]

---

(١) رُود أصلها رُؤْد فسَهل يقال : فتاة رُؤْدٌ ورَأْدة ورُؤُدَة ورَؤُدة وهى : الشابة الحسنة السريعة الشباب مع حسن غذاء ، تشبيهاً بالغُصن الذى بنت من سنتِه أرطب ما يكون رَخْصاً ناعماً ليناً .

(٢) ستور الله : ما حَرَمه الله علينا وهى حدوده .

(٣) اجتراع مصدر اجترع الماء : ابتلعه ، والعلاقم واحدها العلقم جمع العلقمة وهى : القطعة من الحنظل ومن كل شىء مر ، شبه حَرارَة الصد بها .

(٤) لو تعلمين اعتراض بين اسم إن وخبرها ، ولو للتمنى .

(٥) أُرقلت من الإرقال وهو فى الأصل : سرعة سير الابل ، استعاره للرماح ، والراعفات : الأسنة من رعف : سال دمه ، وذلك أنها تسيل دما من الطعان ، واللهاذم : القواطع الواحد لهذم كجعفر . يوصف به السنان والسيف والناب .

ولكن لعمرُ إليه عاطلَ مُسْلماً كَغُرِّ الثنايا واضحاتِ المَلاغِمِ[1]
إذا هُنَّ ساقَطْنَ الحديث كأنَّهُ سِقاطُ حَصَى المَرْجانِ من سلك ناظمِ
رَمَيْنَ فأقْصَدْنَ القلوب فلم نَجِدْ دَماً مائِرًا إلا جَوًا فى المَيازِمِ[2]

« وهذا البيت الأخير من قول جميل : نَوافِذَ لم تُعْلَمْ لهُن خُروق ، ومصراع جميل هذا من أبيات لا داعىَ لابرازها .

وقال كُثَيِّر عزّة من أبيات من غزَلِهِ وَمُخْتارِه :

منَ الخَفِراتِ البِيضِ وَدَّ جَلِيُّها إذا ما انقضَت أُحْدوثَةٌ لو يُعيدُها

يقول فى هذه القصيدة :

وكنتُ إذا ما زُرْتُ سُعْدَى بأَرْضِها أرى الأَرْضَ تَطْوَى لِى وَيَدْنُو بَعِيدُها
تُحَلِّلُ أحقادِى إذا ما لقيتُهـا وتَبْقَى بلا ذَنْبٍ عَلَىَّ حُقُودُها
وَكيفَ يَوَدُّ القلبُ مَن لا يَوَدُّهُ بَلَى قد تُريد النفسُ مَن لا يُرِيدُها

وهذا البيت الأخير يُرْوَى مع بيت آخر لغير كُثَيِّر وهما :

جننَّا عَلَى لَيْلَى وجُنَّتْ بِغَيرِنا وأَضْرَبِنا مجنونَةٌ لا نُرِيدُها
وكَيفَ يَوَدُّ القلب مَن لا يَوَدُّه بَلَى قد تُرِيد النفس مَن لا يُرِيدُها

وفى مَعْنَى هذين البيتين يقول الأعشى :

عُلِّقْتُها عَرَضاً وعُلِّقَتْ رجُلاً غَيْرِى وعُلِّقَ أُخْرَى غيرَها الرَّجُلُ

---

(١) الكاف فى قول كغر الثنايا فاعلة بقوله طل ، ودم مطلول : إذا مضى هَدَراً ، والملاغم : العوارض وهى مايبدو من الفم عند الضحك ، وقال الأصمعى : ملاغم المرأة : ماحول فمها ، وقال غيره : هى الفم والأنف والأشداق ، لأن المرأة تلثمها بالطيب والزعفران .

(٢) أقصدن القلوب : أصبنها ، من قولهم : أقصدت الرجل : إذا طعنته أو رميته فلم تخطىء مقاتله ، ودماً مائراً : أى سائلا من قولهم مارَ الدمه لمور مَوراً : سال ، والحيازم هى الحيازيم بحذف الياء ، الواحد حيزوم ، وهو ضلع القلب وما اكتنف الحلقوم من جوانب الصدر .

« عُلقتها وعُلق بها كلاهما بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله : إذا أحبها ، وعَرَضا : اعترضت له « فرآها بغتة فأحبها .

وقال ابنُ الرومىّ :

ولَقَدْ سَئِمْتُ مآربى فكأنَّ طِيبَهَا خَبِيثْ
إلاّ الحَـــديثَ فإنَّهُ مِثـلُ اسْمِهِ أبداً حَدِيثْ

وقال القُطامِىُّ :

هُنَّ يَفْبِذْنَ من قَوْلٍ يُصِبْنَ به مواقع الماء من ذى الغُلَّةِ الصادى

وقال ذو الرُّمَّة :

ولَمَّا تلاقَيْنَا جَرَتْ مِن عيونِنا دُمُوعٌ كَفَفْنا غَرْبَهـا بالأصابعِ
ونِلْنا سُقاطاً من حَديثٍ كأنَّهُ جَنَى النَّحل مَمْزُوجاً بماء الوقائع

« الوقائع جمع وقيعه : نُقْرَة فى حَجَرٍ فى سَهلٍ أو جبل تُمسك الماء »

وقال بعض المتقدمين :

أَذْكُرُ من جارَتى ومَجْلِسِها طرائفاً من حديثها الحَسَنِ
ومن حديث يزيدُنى مَقَةً ما لحديث المَوْمُوقِ من ثَمَنِ

« يزيدنى مقةً أراد : يزيدنى مِقَةً — مَحَبَة — لها وطرائف الحديث : المختار منه وهو ما يتعاطاه المحبون ويتفاوَضهُ ذَوو الصبابةِ المتيَّمُون ، من التعريض والتلويح والايماء دون التصريح ، وذلك أحلى وأخفُّ وأغزل وأنسب من أن يكون مصارحة وجهراً ، وكذلك أطراف الأحاديث ، كما قال القائل :

ولما قَضَينا من منى كل حاجةٍ ومسح بالأركانِ مَن هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المَطِى الأباطحُ

وقال ذو الرمة :

لَهَا بَشَرٌ مِثلُ الحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ رَخيم الحَواشِى لا هُرَاءٌ ولا نَزْر

« البشر : الجلد ، ولا هراء فالهراء : المنطق الكثير أو المنطق الفاسد الذى لا نظامَ له — ليَعْتَبِرْ كثير من السيدات الكثيرات الكلام الفارغ — والنزر : قال صاحب اللسان : يعنى أن كلامها مختصر الأطراف ، وهذا ضِدُّ الهَذَر والإكثار ، وذاهِبٌ فى التخفيف والاختصار ، فإن قال قائل : وقد قال ولا نَزْر ، فلسنا ندْفَع أن الخَفَر — شِدَّةَ الحياء — يَقِلُّ معه الكلام وتُحذَفُ منه أحْناء المقال ، لأنه على كلِّ حال لا يكون ما يجرى منه وإنْ خَفَّ ونَزَر أقَلَّ من الجُمَلِ التى هى قواعِدُ الحديث الذى يَشُوق مَوْقِعُه ، ويَروق مسْمعُه . أقول : وهذا كلام نفيس من صاحب اللسان لا نشينُه بالشرح والتفسير .

عبقريات ستى فى الحديث كافة :

سُئِل مُعاوية عن الباقى مِن لَذَّته ، فقال : محادَثة الإخوان فى الليالى القُمر[1] على الكثبانِ العُفْر[2] .

وقال سليمان بن عبد الملك : قد أكلنا الطيِّب ولَبِسْنا اللَّيِّن وركِبنا الفاره[3] ، وامتطينا العذراء ، فَلَمْ يَبْقَ من لَذَّتِى إلاّ صَدِيقٌ أَطْرَحُ بينى وبينه مُؤْنَةَ التحفُّظ .

وقال المهلّب بن أبى صفرة : العيش كله فى الجليس الممتع .

وقال أبو تمّام : تَذَاكرْنا الكلامَ فى مجلِس سعيد بن عبد العزيز التَنوخِى وَحُسْنَه ، والصَّمْتَ ونُبْلَه ، فقال : إنّما يُمدَحُ السكوت بالكلام ولا يمدَحُ الكلامُ بالسكوت ، وما أنبأ عن شىء فهو أكثرُ منه .

وقال أبو تمام : قال رجل لرجل ما أحْسَنَ حديثك !

---

(١) القمر جمع قمراء وهى المنيرة بنور القمر .

(٢) العفر جمع أعفر وهو الرمل الأحمر .

فقال : إنّما حَسَّنَه حُسْنُ إصغائك !

وتحدّث جماعة عند الأوزاعى ومعهم أعرابىّ لا يتكلّم ، فقالوا له : ألا تحدّثنا ! فقال : إنّ الحظّ للمَرْء فى أُذُنِه وإن الحظّ فى لسانِه لِغيرِه ، فقالوا : لقد أحسنت .

وقال بعضهم : الصَمْتُ منامُ العقل ، والنطقُ يقظتُه ، ولا مَنامَ إلا بيقظة ولا يقظة إلا بمنام .

التقبيل :

ومما يصِحُّ إيرادُه في هذا الموضع عبقرياتُهم فى التقبيل ، قال ابن الرومى : وهو عندى من أبدع ما قالوا فى هذا المعنى :

أُعَانِقُهَا والنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إليها وَهَلْ بَعْدَ العِناقِ تدانِ
وَأُلْثِمُ فَاهَا كَىْ تَموتَ حَرارَتِى فيشتَدُّ ما ألقَى مِن الهَيَمانِ[1]
ولم يَكُ مقدارُ الذى بِى مِنَ الجوَى لِيَشفِيَهُ ما تَرشُفُ الشَّفَتانِ
كَأَنَّ فُؤادِى ليس يَشْفِى غَلِيلُهُ سِوى أنْ يُرَى الرُّوحانِ يَمْتَزِجانِ

وقال عمر بن أبى ربيعة — وقيل : جَميلُ بُثَينَة :

مَازِلتُ أَبْغِى الحَىَّ أَتْبَعُ ظِلَّهم حتى دُفِعْتُ إلى ربيبةِ هَوْدَجِ
قالت : وعَيْشِ أَخِى ونِعمَةِ والِدِى لأُنَبِّهَنَّ الحَىَّ إن لم تَخْرُجِ[2]

---

(١) الهيمان : شدة العطش ، وايم يلثم كفرح يفرح ولثم يلثم كضرب يضرب : قبّل .

(٢) وعيش أخى ... تروى : قالت وعيشِ أبى وحرمة إخوتى ، وتروى ، قالت : وعيش أبى وأكبر إخوتى .

فخرجتُ خوفَ يمينها فتبسَّمتْ ... فعلمتُ أن يمينهـا لم تحرَجِ (١)
فتناولَت رأسي لتعرفَ مسَّهُ ... بمخضَّب الأطرافِ غير مُشنَّجِ (٢)
فلثِمتُ فاها آخذاً بقرونها ... شُرْبَ النزيفِ ببردِ ماء الحشرجِ (٣)

وقالت أمُّ البنين — أخت عمر بن عبدالعزيز وزوج الوليد بن عبدالملك لعزَّةَ صاحبةِ كُثيِّر : أخبريني عن قول كُثيِّر :

قضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فوَفَّى غريمَهُ ... وعزَّةُ ممطولٌ مُعنًّى غريمُها

أخبريني ما ذلك الدَّين ؟ قالت : وعدتهُ قُبلَةً فخرجتُ منها (٤) ، قالت أمُّ البنين : أنجزيها وعليَّ إثمُها . . .

وقال المتنبي :

قبَّلتُها ودموعي مَزْجُ أعينُها ... وقبَّلتني على خوفٍ فما لفَمِ
فذُقتُ ماء حياةٍ من مُقبِّلها ... لو صابَ تُرْبًا لأحيَا سالفَ الأمَمِ

« يقول في البيت الثاني : إن ريقها عذبٌ طيِّبٌ فهو ماء الحياة إذا ذاقه العاشق حَيِيَ به ، حتى لو وقع على الأرض لأحيَا الموتى من الأُمم السَّالفة ، وأولُ هذا المعنى للأعشَى إذْ يقول :

لو أسنَدَتْ ميْتًا إلى نحرِها ... عاشَ ولم يُنقَلْ إلى قَابِرِ »

---

(١) لم تحرَج : لم تضق ولم تكن جادة هي في حلفها فلا تأثم إذا لم تَبرَّ بها ، وتجوز روايته : لم تَحرُج ، أي لم توقعها في الحرج والإثم .

(٢) غير مشنج : غير متقبض والتشنج : تقبض الأصابع وكذا الجلد وغيره .

(٣) نصب شرب على المصدر المشبه به لأن في اللثم معنى امتصاص الريق ، فكأنه قال : شربت ريقها شرب النزيف من ماء الحشرج البارد ، والنزيف كالمنزوف : من عطش حتى يبست عروقه وجف لسانه أو هو المحموم الذي منع الماء ، والحشرج : النقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو أو هو كوز صغير لطيف ، والقرون : الضفائر .

(٤) تأثمت وضاقت .

وقال القاضى عبد الوهاب المتوفى سنة ٤٢٢ هـ بمصر — انظر الذخيرة لابن بسام :

وَنائِمَـةٍ قَبَّلْتُهـا فتنَبَّهَتْ
وقالت : تعالَوْا فاطْلُبوا اللِّصَّ بالحدِّ
فقلت لها : إنِّى — فَدَيتُكِ — غاصِبٌ
ومَا حكموا فى غاصِبٍ بِسِوَى الرَّدِّ
خُذِيها وكُفِّى عَن أثيمٍ ظُلامَةً
وإنْ أنتِ لَمْ تَرْضَىْ فألفاً على العَدِّ

فقالت : قِصاصٌ يَشْهَدُ العَقلُ أنَّه على كبد الجانِى ألَذُّ من الشَّهْدِ
فباتت يمينِى وهى هَمْيانُ خَصْرُها وباتت يَسارى وهى واسِطةُ العِقدِ
فقالت : أَلَمْ تخبِرْ بأنَّكَ زاهِـدٌ
فقلت : بَلى ما زِلْتُ أزْهَدُ فى الزُّهْدِ

وقيل لابنة الخُسِّ : ما ألَذُّ شىء ؟ قالت : قُبْلَةُ فَتَاةٍ لَفَتَى ، وعَيْشِكَ ما ذُقْتُهَا .

وقال بعضُ الشعراء :

وما نِلتُ منها مَحرَماً غير أنَّنِى أُقَبِّلُ بسّاماً من الثَّغْرِ أفْلَجَا
وألثِمُ فاها تارَةً بعـد تارَةٍ وأترُكُ حاجاتِ النفوسِ تَحَرُّجا

وقال بعض خلفاء بنى العباس لبَخْتَيْشُوعَ : ما أخفُّ النقل[1] على النَّبِيذ ؟ فقال له : نقلُ أبى نُواس ، فقال : ما هو ؟ فأنْشَدَه :

---

(١) النقل بفتح النون : ما يتنقل به على الشراب من فستق وتفاح ونحوهما .

مالى فى الناس كُلِّهم مَثَلُ ... مالِىَ خمرٌ ونَقْلِىَ القُبَلُ

وقال بعض الشعراء الظرفاء :

غضِبْتِ من قُبلةٍ بِالكرْهِ جُدْتِ بها ... فهاكِ قد جِئْتِ فاقتَصِّيهِ أضعافاً

لم يأمُرِ اللهُ إلاّ بالقِصاصِ فلا ... تستجورِى ما رآه اللهُ إنصافا .. (١)

وقالوا وهو من طُرَفِ الشعراء :

سَلِ المُفْتِىَ المكِّىَّ هل فى تزاورٍ ... وَنَظْرَةِ مُشتاقِ الفؤادِ جُناحُ

فقال : معاذَ اللهِ أن يُذهِبَ التقى ... تلاصُقُ أكبادٍ بهِنَّ جِراحُ

ومثله قول بعضهم :

تلاصَقْنَا وليس بنـــا فُسوقُ ... ولم يُرِدِ الحرام بنا اللُّصُوقَ

ولـكنَّ التباعُدَ طالَ حَتَّى ... تَوَقَّدَ فى الضُّلوعِ لهُ حريقُ

فلما أنْ أتيحَ لنا التلاقِى ... تعانَقْنَا كما اعتنقَ الصديقُ

وهل حرجاً تَراهُ أو حَراجاً ... مَشُوقٌ ضَمَّهُ كَلِفٌ مَشُوقُ

* * *

وكان لهارُونَ الرشيد جاريةٌ غُلامِيَّةٌ — يعنى وصيفة على قدّ الغلام — وكان المأمون يميلُ إليها وهو إذ ذاك أمْرَدُ ، فوقفَتْ يوماً تصُبُّ على يدِ الرشيد من إبريقٍ معَهَا ، والمأمون جالسٌ خلفَ الرشيد ، فأشار المأمون إليها كأنه يُقَبِّلُها ، فأنكرت ذلكَ بعينيها ، وأبطأتْ فى الصَّبِّ على مقدار نظرِها إلى المأمون وإشارتها إليه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟ ضَعِى الإبريقَ من يَدِك ، ففعلت ، فقال : واللهِ لئن لم تَصْدُقينى لأقتلنّك ، فقالت : يا سيدى ، أشار إلىَّ

---

(١) تستجورى من الجور — الظلم .

عبد الله — المأمون — كأنه يُقَبِّلني ، فأنكرتُ ذلك ، فالتفتَ إلى المأمون ونظر إليه كأنه ميّت ، لِمَا دخله من الجزع والخجل ، فرَحِمَه وضمّه إليه وقال : يا عبدَ الله ، أتحبها ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : هي لك ، قم فادخل في تلك القبة ، ففعل[1] ، ثم قال : هل قلتَ في هذا الأمر شعراً ؟ قال : نعم يا سيدي ، ثم أنشد :

ظَبْيٌ كتبتُ بِطَرْفي ... من الضمير إليه
قبّلته من بعيد ... فاعْتَلَّ مِن شفتيه
وردّ أخبثَ رَدِّ ... بالكَسْرِ مِنْ حاجِبَيهِ
فما بَرِحت مكاني ... حتى قَدرتُ عليه

ولأحد شعراء عصرنا[2] في القبلة :

هي كأس من كؤوس الخالدينْ ... لم يَشُبْها المزجُ من ماء وطينْ
كلما أفرَغتُها مُنْتَشِياً ... مُلِئَتْ من كوثر الخُلد المَعِينْ
وإذا أمتعكَ الرِّي بها ... بدأ الشوق إليها والحَنينْ
قد شربناها معاً في ليلنا ... فَرَوِينا وافترقنا ظامئين

وفي هذه الأبيات شَمّةٌ من أبيات ابن الرومي التي أوردناها آنفاً ، وهو التوليد ، وإنما الكلام من الكلام .

وللشاعر الفرنسي في القبلة — ترجمة مصطفى المنفلوطي :

---

(١) يلاحظ أن هذه الجارية ملك يمين ، فلما وهبها الرشيد إلى ابنه المأمون صارت حِلاً له كأنها زوجته .

(٢) هو عباس محمود العقاد .

القُبلة هى الميثاقُ الذى يُعْطَى عن قُرْب ، والوَعْدُ الصادق الذى لا ريبةَ فيه ، والاعترافُ بالحقيقة الواقعة ، والنقطة المرمُوقة تحت باء الحُبِّ ، والسِّرُّ العميقُ الذى يَصلُ إلى القلب مِن طريق الفَم ، واللحظة الأَبديَّةُ التى يَقْصُر زمَنُها وتَدومُ حلاوَتُها ، واتِّفاقُ الخاطِرَيْنِ على مَعْنًى واحد ، والطريق المختَصَرُ لاستِنشاق رائحة القلب ، وَتَذَوُّقُ طَعْمِ النَّفْسِ على الشِّفاه ، لها دَوِىُّ النَّحل فى صَوْتِها ومذاقُ العَسَل فى حلاوَتِها وعبير الأزهارِ فى رائحتها .

ومما يتصل بالتقبيل العناق ...

قال أبو اسحاق الصابى :

أقول — وقد جَرَّدْتُها من ثيابِهـا ... وعانقتها كالبـدر فى ليـلة التِّمِّ :
لئن آلَمَتْ صـدرى بِشِدَّة ضَمِّها ... لقد جَبَرَت قَلْبِي وإن أَوْهَنَتْ عظمى

وقال علىُّ بن الجَهْم :

سَقَى الله ليلاً ضمَّنا بعـد فُرْقة ... وأَدْنى فُؤاداً من فؤاد معـذَّبِ
خبئنا جميعـاً لو تُراق زُجاجةٌ ... من الخمر فيما بيننـا لم تَسَرَّبِ

وقال ابن المعتز :

ما أقصر الليل على الراقد ... وأهونَ السُّقْمَ على العـائد
يَفْديك ما أبقيتَ من مهجتِي ... لستُ لِمَا أَوْليتَ بالجاحد
كأنني عانقت ريحانَـةً ... تنفسَتْ فى ليلهـا البـاردِ
فلو تَرانا فى قميص الدُّجى ... حسبتنا من جسـد واحد

وقال بعضهم :

يالَيلةً قُرِنَتْ لنا فيها المـآربُ بالنجاحْ

بتنـــا برغم وشاتِنـــا مُتَعانقيْنِ إلى الصبـــاحْ
ممتزجـــين كأننـــا رُوحَـــانِ من ماء وراحْ
ظن الوشـــاة لفرط ضمـــي أننى بعضُ الوِشاح

وقال الخُبْزَأَرُزّى :

طوقتـه طوق العناق بساعدى وجعلت كَفّى لِلْثَـــام وِشاحَا
هـــذا هو الفوز العظيم فَخَلّنَا متعانقَيْن فـــا نُرِيدُ بَرَاحا

وقال بكر بن خارجة :

رأيت شخصك فى نومى يعانقنى كما تعانق لامُ الكاتب الألفا

« قال أبو هلال العسكرى : هذا من المقلوب لأن الألف تعانق اللام ، قال : ويجوز أن يُحتَجّ له بأن يقال : الألف لا تعانق اللام إلا واللام معانقة لها » .

* * *

الضحك :

ومما يمت إلى الأفواه والثغور بسبب واصل وصفهم الضحك ، وأولُ مراتبه التبسم ، ثم الإهْلاَسُ ، وهو إخفاؤه ، قال :

تضحك منى ضحكا إهلاساً « أراد : ذا إهلاس ، وإن شئت جعلته بدلا من ضحكا » ثم الإفترار ، وهو الضحك الحسن ، يقال : افتَرَّ المرء وافترت الآنسة : إذا ضحكا ضحكا حسناً ، وافتر فلان ضاحكا : إذا أبدى أسنانه ، وفى صفة سيدنا رسول الله : ويفتر عن مِثْلِ حَبِّ الغمام ، « أى يبتسم فى غير قهقهة وحب الغمام : البَرَد ، شُبِّه بياض أسنانه به » ثم القهقهة والقرقرة والكركرة ، ثم الاستغراب ، يقال : استغرب فى الضحك واستُغْرِب : أكثر منه ، وأغرب فى ضحكه : اشتد ضحكه ولج فيه ، كأنه من الغَرْب ، وهو البعد .

وقال الفقهاء : إذا استغرب الرجل ضحكا فى الصلاة أعاد الصلاة ، وهو مذهب أبى حنيفة ، ويزيد عليه إعادة الوضوء ... ثم الطخطخة ، ثم الاهزاق والزهزقة ، وهو أن يذهب الضحك به كل مذهب ...

والمحمود من الضحك هو التبسم الذى ينكشف فيه السِّنُّ ولا يسمع له صوت .

وكان ضحك سيدنا رسول الله تبسما ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم .

وقد نَهَوا عن كثرة الضحك ؛ قال ابراهيم بن سيار المعروف بالنظام أحد مشيخة المعتزلة ثلاثة تُخَرِّب العقل : طُولُ النَّظر فى المرآة ، وكثرة الضحك ، والنظر إلى النجوم .

وقال ابن سُكرة الهاشمى :

يا ضاحكاً يَسْتَهِلُّ مَضْحَكُهُ ... عَن بَرَدٍ واضِح وعَن شَنَبِ
أعْطَيتَنى قُبلَةً رشَفْتُ بها الشَّـ ... ـهْدَ مَشُوباً بِعَبْرَةِ العِنَبِ
كأنَّنى إذْ لَثَمْتُ فاكَ بِهـا ... لَثَمْتُ تُفَّاحَةً مِن الذَّهبِ

وبعد فالقول على الضحك وألوانه وفلسفته يطول وله مَوضع هو به أَلْيَق .

تقليم الأظفار ووصف الأناصل :

أمَّا تقليمُ الأظفارِ ، أى قصُّها ، فهُوَ مُسْتَحَبٌّ ، لشناعةِ صورتها إذا طالت ، ولِما يجتمعُ فيها من الوَسخِ ، وربما أجنبَ الرجُلُ ، أو المرأة فلا يصله الماء فلا يزال جُنُبا ، وكان المصطفى صلوات الله عليه يأمر العربَ بالتَّقْليم ، ويُنكر عليهم ما يَرى تحت أظافرهم من الوَسخ ، وفى الحديث

(قصُّوا أظافيركُمْ ، وادْفِنوا قُلاماتِكم ، ونقُّوا براجِمَكم ، ونظِّفوا لِثاتِكم من الطعام ، واستاكوا ، ولا تدْخُلوا عَليَّ قُلحاً بُخراً)[1] وفى الحديث أيضاً (أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فأوْهَمَ فى صَلاتِه — أى أسقَطَ من صلاته شيئاً وَهْماً وسَهواً — فقيل له : يا رسولَ الله ، كأنكَ قد أوْهَمْتَ ! قال : وكيف لا أُوهِمُ ورُفْغُ أحَدِكمْ بين ظُفُرِه وأُنْمُلَتِه !) .

« الرفغُ : ما بين الأنثيين وكلُّ ما ثنيتَ عليه فخِذَك مما من شأنه أن يجتمع فيه الوَسَخُ والعَرَقُ » .

والمعنى : أن أحدكم يَحُكُّ ذلكَ الموضعَ من جسَدِه فيَعْلَقُ دَرَنُه ووسخه بأصابعِه ، فيبقى بين الظُّفُر والأُنملة ، وإنما أنكر من هذا طولَ الأظفارِ وتركَ قصِّها حتى تطول ، فليعتبر بهذا نساؤنا وفتياتُنا ورجالنا وفتياتنا الذين شاعت فيهم اليوم بِدعةُ تَرْكِ الأظفار ، ولست أدرى ولا المنجِّم أىَّ هدفٍ يَترامَوْنَ إليه بذلك ! هل يريد نساؤُنا ذوات الأظافر الطويلة أن يُحَقِّقْنَ بذلك ظنَّ الرجال بهنَّ ، وهو أنهن كالسِّنانير مَخْبَراً فأبين إلا أن يكنَّ كالسنانير منظراً ! نعم ، وإنَّ تركَ الأظافر إن هو إلا اعتراف منهن بأن تَشبيههن بالسنانير قد أصاب المحزَّ وطبَّق المِفصَل ، فالسِّنَّوْر مهما أكرمته وَحَنَوْتَ عليه وأغدقت من طعامك وشرابك يأبى إلا أن يخونك إذا ما واتته الفرصة وهكذا النساء ، ولا سيَّما نساء اليوم ذوات المخالب السِّنَّورية . . أيتها الآنسات والسيداتُ اللاتى يتركن أظافيرهن طويلات لِتَسْمَحْنَ لى فى أن أصارِحَكن بأنكن بهذه

---

(١) وادفنوا قلاماتكم : أى غيبوا ما قطعتموه من الأظفار فى الأرض ، ونقوا براجمكم : أى بالغوا فى تنظيف البراجم ، وهى العقد التى فى ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ ، والقَلَح : صفرة فى الأسنان وقد تقدم ، والبخر : نتن الفم .

البدعة سخيفاتٌ فاسداتُ الذوق . . . . وقد ظلمتن بذلك أنفسكنّ .

وَمِمَّا استحسنوه تطريفُ الأنامل بالحُمْرَةِ والسَّوادِ[1] وقد حَضُّوا على ذلك كما حَضُّوا على الخضاب بنحو الحناء ، وقد ورد فى الحديث الحضُّ على ذلك ، ورُوِى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأةً لا تَخْتَضِبُ وقد جاوزت السبعين ، فقال : لا تَدَعْ إحداكن يدها كأنها يَدُ رجل ، فما زالت تختضب حتى ماتت . . وروى أيضاً أن امرأة أتت النبى صلى الله عليه وسلم تُبايعُه ولم تكن مختضبةً ، فلم يبايعها حتى اختضبت . . . وقال بعضهم : رأيت قَيْنَةً خضبت يدها بالحمرة ونقشت فيه بالسواد هذا البيت :

ليس حُسْنُ الخضاب زَيَّنَ كَفِّى حُسْنُ كَفِّى مُزَيِّنٌ للخضاب

وقد وصف الشعراء الخضاب وتطريف الأنامل وتغزلوا ، ومن قديم ذلك قول امرىء القيس :

وَتَعْطُو بِرخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنه أَسَاريعُ ظبيٍ أو مَساويكُ إسْحِلِ

« تعْطُو : تتناول ، ورَخص : لين ناعم ، والشَّثْن : الغليظ الجافى ، يقول : إن أناملها ليست كذلك ، والأساريعُ جمع أسْرُوع : دُودٌ بِيضُ الأجسادِ حُمْرُ الرؤوس ، شديدُ الغضاضة والنعومة ، فشبهها بها لبياضها ونعومتها ، وقد يكون أشار إلى أن هذه الأنامل قد طُرِّفت بالحمرة كأنها رؤوس تلك الأساريع ، وظبى : موضع معروف ، وهذه الأساريع هى بنات النَّقَا التى قال فيها ذو الرمَّة يصف بَنانَ العذارَى :

خراعيبُ أمْلودٌ كأنَّ بَنَانها بناتُ النَّقَا تخفَى مراراً وتظهر[2]

---

(١) يقال : طرفت الفتاة بنانها : إذا خضبت أطراف أصابعها بمثل الحناء كما يفعل نساؤنا اليوم بالمانيكير .

(٢) الخرعوب : كل لين يتثنى من قضيب ونحوه ، والخرعوبة من النساء : الشابة الحسنة الجسيمة فى قوام كأنها خرعوبة من خراعيب الأغصان من نباتِ سَنَتِها =

والإسْحِل : شجر يشبه الأثْلَ تتخذ منه المساويك ، فشبَّهَ البنان بمساويكه للطافتها واستوائها ، وفى هذه المساويك يقول ذو الرمة وذكرَ البنان :

جَرَى الإسْحِلُ الأحْوَى برَخْصٍ مخضَّبٍ على الغُرِّ من أنيابِها فهى نُصَّعُ

وقال ابن رشيق : تشبيه امرىء القيس الأناملَ المخضوبَة بالأساريع من أبدعِ التشبيهات إذ هى كأحسن البنان ليناً وبياضاً وطولاً واستواء غير أن نفس الحَضَرِىّ المولد إذا سَمِعَتْ قول أبى نواس فى ذكر الكأس :

تُعاطِيكَها كَفٌّ كأنَّ بَنانَهـا إذا اعترضتها العينُ صَفٌّ مَدارى[1]

أو قول ابن الرومىّ :

سَقَى الله قَصْراً بالرُّصافةِ شاقَنى بأعلاه قَصْرِىُّ الدَّلالَ رُصافِى
أشارَ بقضبانٍ من الدُّرِّ قُمِّعَتْ يواقيتَ حُمْراً فاستباحَ عفافِى

أو قول عبد الله بن المعتز :

أشارت بأطرافٍ رطاب كأنَّها أنابيبُ دُرٍّ قُمِّعت بعقيقِ

= أى الحديث النبات الذى لم يَشْتَدّ ، والأملود : الناعم ، وقبل هذا البيت :

تذكرنى مَيا من الظبى عينُه مراراً وفاها الأقحوانُ المنوَّرُ
وفى المِرط من مىّ توالى ضَريمة وفى الطوق ظبى واضح الجيد أحور
وفى العاج منها والدماليج والبُرى قناً مالىء للعين ريان عَبْهَرُ

« وفاها أى ويذكرنى الأقحوانُ فاها ، وتوالى ضريمة : أى مآخيرها ، والضريمة : الفرادى من الرمل ، والقنا هنا : الأوصال التؤام لِمَا عليها من اللحم ، وعبهرُ : يملأ عين الناظر إليه لحسنه فلا يدع فى الطرف فضلا إلا استغرقه لأنه لا يرى عابا » .

(١) المدَارى جمع مِدْرَى : شىء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المُشط وأطول منه يسرح به الشعر المتلبد ويستعمله من لم يكن له مشط ، أو هو المشط .

وقالت : كلأك الله فى كلِّ موطنٍ مكانُكَ من قلبى مكانُ شقيق

كانَ ذلك أحبَّ اليه من تشبيه البنان بالدود فى بيت امرىء القيس وان كانَ تشبيهه أشدَّ إصابةً .

وقال النابغةُ :

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بنانَهُ عَنَمٌ على أغصانِهِ لم يَعقِدِ

« العَنَم : ضرب من الشَجر لَهُ نُورٌ أحمر ، وقال ابن بَرّىٍّ ، العنم : ثمرُ العَوسج يكون أحمرَ ثم يَسْوَدُّ إذا نَضِجَ وعقَد ، ولهذا قال النابغةُ : لم يَعْقِد ، يريد : لم يُدْرِك بَعْدُ » .

وقال الشريف الرضى :

وألْمَسْتَنِي وقد جَدَّ الوَداعُ بِنَا كَفًّا تشيرُ بقضبانٍ من العنَم

ومن بديع ما قيل فى هذا المعنى قول عكاشة العَمّىِّ فى قَينةٍ [1] :

قُمْ فاسقنى من قهوةٍ أكْوابا تدَعُ الصحيحَ بعقلهِ مُرتابا

من كَفِّ جاريةٍ كأنَّ بَنانها من فِضَّةٍ قد طُرِّفتْ عُنَّابا

وكأنَّ يُمناها اذا نطقت بهِ تُلْقى على يَدها الشمال حِسابا

ولابن المعتز فى التطاريف السُّود :

وَكَفٍّ كأن الشمسَ مدت بنانها إلى اللَّيل تجلوهُ فقمَّعها الليلُ [2]

---

(١) هو عكاشة بن عبد الصمد من أهل البَصرة من بنى القمّ ، وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الهاشمية .

(٢) يقال : قَمَّعت المرأة بنانَها بالحناء ونحوه : إذا خضبت به أطرافها فصار لها كالقمع ، وهو ما التزق بأسفل التمر ونحوه ، وأنشدوا :

لطمَتْ وَرْدَ خَدها بِبَنانٍ مِن لُجَيْنٍ قُمِّعْنَ بالعِقْيانِ

« شبه حمرة الحناء على البنان بحمرة العِقيان ، وهو الذهب ويروى بدل فقمّعها : فقبّلها »

ولبعضهم :

وحَوراء اللواحظِ بين قلبي ... وبين جفونها حربُ البسوسِ
ترَى ماء النعيم يجول فيها ... كمثل الخمر في صافي الكؤوس
كأنَّ بنانَها أقلام عاجٍ ... مُرصَّعةُ الرؤوس بآبنُوس

ولأحد الأندلسيين :

خَضَبَتْ أناملها السوادَ وقلَّما ... أبصرت أقلاماً بغير مِداد

وقال ابن المعتز :

أثمرَت أغصانُ راحتِها ... لِجناةِ الحسنِ عُنَّابا

وقال دعبل يهجو :

كأنما كفُّها اذا اختضَبتْ ... مِخلبُ بازٍ قد ضُرِّجت بِدَمِ

نعود الى التطريف والخضاب قال أبو نواس :

يا قَمَراً أبصَرتُ في مأتمٍ ... يَندُبُ شَجواً بين أترابِ
يبكي فيُذرِي الدُّرَّ من نرجسٍ ... ويَلطِمُ الورد بعُنَّابِ
أبرَزَهُ المأتمُ ولي كارهاً ... بِرَغمِ دايات وحُجَّابِ
لا تبكِ ميتاً حلَّ في رمْسِه ... وابكِ فتيلاً لك بالبابِ

وقال ديكُ الجن :

وَدَّعتُها لِفراق فاشتكت كبدي ... وشَبَّكَت يدها من لوعةٍ بِيَدِي
وحاذَرَت أعينُ الواشين وانصرفت ... تعَضُّ من غيظها العُنَّابَ بالبرَدِ
فكان أوَّلُ عهد العين يوم نأت ... بالدمع آخر عهد القلب بالجَلَد

وقال الناشيء :

لنا قَينَةٌ ترنُو بناظِرَتينِ ... بما في قلوب الناس عالِمَتينِ

تخال تطاريف الخضاب بكفها فصوصَ عقيق فوق فضب لجين

والبيت المشهور للوَأواء الدمشقي من شعراء اليتيمة :

وَأسبلَت لؤلؤا من نرجس وسقَتْ وَرْداً وعَضَّت على العُنَّاب بالبَرَدِ

من أجمع بيت قيل . وقبله :

قالت — وقد فتكَتْ فينا لواحظها : ما إن أرَى لقتيل الحبِّ من قَوَدِ

فأسبلت ..... البيت ويروى فأمطَرَت .....

إنسيَّةٌ لو بَدَت للشمس ما طلعَتْ من بَعدِ رؤيتها يوماً على أحدِ

الكحل ووصفهم العيون :

وأمَّا الكحل والعناية بالعين فقد رَوَوْا أنَّ امرأةً دخلت على عائشة رضى الله عنها فسألها سيدُنا رسولُ الله عنها ؟ فقالت : هى فلانة زَوجة فلان ، فقال رسول الله (إنى لأكرَهُ أن تكونَ المرأةُ مَرْهاء) « المرهاء : المرأة التى لا تكتحل ، والمرَهُ : مرضٌ فى العين لتركِ الكحل » وقد ورد الحضُّ على التكحُّل بالإثمِد[1] فى غير ماحَديث ، وقال فيه سيدنا رسول الله (إنه خير أكحالكم ، يجلو البَصَر ، ويُنبِتُ الشَّعَرْ) ؛ وقال عبد الله بن جعفر لابنته حين اهدأتها على زَوجها : عليكِ بالزِّينة . واعلمى أن أزْيَنَ الزِّينة الكحل ، وأطيبَ الطيبِ الماء .

* * *

ومن أوصاف العيون المستحسنة « الكَحَلُ » وهو : اسْوِدَادُ الحدَقةِ من غير كحل حتى كأنها قد كُحِلَتْ ، « وليس التكحُّل فى العينين كالكَحَلِ »[2]

---

(١) الإثمد : حجر يكتحل به وهو أسود إلى الحمرة يعرفه علماء الكيمياء باسم « أنتيموان » معدنه باصبهان ، وليس فى مذاهب العرب ما يجلو العين ويذهب بأقذائها مثله .

(٢) المتنبى .

« والحَوَر » وهو شدة اسوداد العين مع شدة إبيضاض بياضها ، وقال أبو عمرو ابن العلاء : الحَوَرُ : أن تَسْوَدَّ العينُ كلُّها مثل أعين الظباء والبقر ، وليس فى بنى آدم حوَرٌ وإنما قيل للنساء حُورُ العين لأنهن شُبِّهْنَ بالظباء والبقر « والدَّعَجُ » وهو شدة سواد العين مع سَعَةِ المُقلة « والنَّجَلُ » وهو سَعَة العين مع حُسْنِها ، يقال : عين نَجْلاء ، « والوَطَفُ » وهو طول أشفارِ العين ، وجاء فى صفة سيدنا رسول الله : أنه كان فى أشفاره وَطَفٌ ، يعنى أنه كان فى هُدْبِ عينيه طُولٌ .

ومن أوصاف العين المستحسَنةِ الفُتور ، وهو انكِسارُ النظر وذبولهُ فى أصل الخِلْقَة ، وهذا هو معنى وصفهم العين بالمرض والسَّقم قال جرير :

إنَّ العيونَ التى فى طَرْفِها مرضٌ ... قَتَلْنَنَا ثمَّ لم يُحْيِينَ قَتْلانَا (١)

يَصْرَعْنَ ذا اللبِّ حتى لا حِراكَ به ... وَهنَّ أضعف خَلقِ الله أركانَا

وقال مَرْوان بن أبى حفصة :

إنَّ الغوانِىَ طالمَا قَتَّلْنَنَا ... بعيونهنَّ ولا يَدِينَ قَتيلاَ

من كلِّ آنسَةٍ كأنَّ حِجالَها ... ضُمِّنَّ أحْورَ فى الكِناسِ كحيلاَ

أردَيْنَ عُروَةَ والمرقِّشَ قبلَه ... كلٌّ أُصيبَ وما أطاقَ ذُهولاَ

ولقد تركْنَ أبا ذؤَيبٍ هائماً ... ولقد تَبَلْنَ كُثيِّراً وجَميلاَ

وتركنَ لابنِ أبى ربيعةَ مَنطِقاً ... فيهنَّ أصبحَ سائراً محمولاَ

الاَّ أكنْ مِمَّنْ قتلْنَ فإننى ... مِمَّنْ تركْنَ فؤادَه مخبولا

« لا يدينَ : ولا يعطينَ دية من قتلنهُ ، يقال : ودَيت القتيلَ أدِيه وَدْيا : أعطيتَ دِيته ، والحجال جمع حَجَلة وهى : بيت كالقبة يستر بالثياب وتجمع على حجَلٍ أيضا ، قال :

(١) انظر « وصفهن بأنهن يغلبن الرجال » .

وبالحَجَلِ المقصورِ خَلْفَ ظُهورِنا نواشيُ كالغِزْلانِ نُجْلٌ عيونُها

« ويقال : ضَمَنْتُ الشَّيْءَ الشيءَ : أودعتَه إياه كما تودع الوِعاءَ المتاعَ ، وكلُّ شيءٍ أُحْرِزَ فيه شيء فقد ضُمِّنَهُ ، وأحورَ : يعني ظَبْيًا ، والحَوَرُ في العين : شدَّة سوادِ سوادِها وشدَّة بياض بياضِها ، أو تقولُ : هو نَقاءُ البياضِ وعند ذلك يتَّضِحُ السَّوادُ ، والكناس : حيث تكنِسُ البقرَةُ الوحشيَّة والظبية ، وهو أن تتخذ في الشجرة العاديَّة — (القديمة) كالبيت تأوي إليه وتَبعَرُ فيه ، فيقالُ إن رائحتَهُ أطيبُ رائحةٍ لطيبِ ما ترْعَى ، وأرْدَينَ : أهلكْنَ ، والرَّدَى : الهَلاك ، وعُرْوَةَ هو عُرْوة بنُ حِزام وصاحبته عفراء ، والمُرَقِّش هو المُرَقِّش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عمه ، والمرقش الأصغر هو ابن أخي الأكبر ، وصاحبته فاطمة بنت الملك المنذر ، والذهول : الانصراف ، يقال : ذَهَلَ عن كذا : إذا انصرَفَ عنه إلى غيرِهِ ، وأبو ذُؤَيْب الهُذلي مات عشقا بصاحبته أم عمرو ، وقوله : ولقد تَبَلْنَ كُثَيِّرًا ، فأصلُ التَّبل : العداوة والحقد والتِّرَة — الثأر — يُطْلب بها ، وتَبلَتْ المرأة فؤادَ الرجل كأنما أصابَتْه بِتَبَل ، والمراد هنا : أن يُسقِمَ الهَوَى الإنسانَ ويُفسِدَه ، وكُثَيِّرٌ هو كثير عَزَّة ، وجميل هو صاحب بثينة ، وابن أبي ربيعة هو عمر بن أبي ربيعة وصَّاف ربَّاتِ الحجال ، ومخبولا : مصابا بالخبل ، وهو : لون من الجنون » .

وقال أبو نُواس :

ضَعِيفةُ كرِّ الطَّرْفِ تحسبُ أنَّها قريبةُ عهدٍ بالإفاقةِ من سُقْمِ

وقال بعضهم : ويقال أنها للمعز لدين الله الفاطمي أول الخلفاء الفاطميين[1] بمصر . . .

---

(١) وكان المعز هذا أديبا شاعرا وهو القائل :

أطلع الحسن من جبينك شمساً فوق ورد في وجنتيك أظلا
وكأن الجمال خاف على الورْ دِ جفافا فمد بالشعر ظلا

لله ما صنعَتْ بنـــا تلكَ المَحاجرُ فى المعاجرْ(١)
أمْضَى وأنفَذُ فى القُلو ب مِنَ الخناجرِ فى الخناجرْ
ولقَدْ تعِبتُ بِبَيْنِكم تَعَبَ المُهاجرِ فى الهَواجرْ

وقال آخر :

يا منْ تَكَحَّلَ طَرْفُها بالسِّحْرِ لا بالإثْمِدِ
نَفْسِى كما عذَّبتِهـــا وقَتَلْتِها بالإثْمِ ، دِى

قوله : دِى فعل أمْر للمُؤَنَّثِ مِن « وَدَى » بمَعْنَى دَفَعَ الدِّيَة ، بسبب الإثم الذى وَقَع منها يقول : ادفعى ديةَ نفس كما قَتلتها .

وقال الناجم :

كادَ الغزَالُ يَكُونُها لكِنَّما هو دُونَهـــا
والنَّرجسُ الغَضُّ الجَنِىُّ أغضُّ منـــه جُفونُها
مَن كانَ يَعْرِفُ فَضلَها فعَنِ القِياسِ يَصونُها

وقال أبو فراس الحمدانىُّ :

وبِيضٍ بألْحاظِ العُيونِ كأنَّما هزَزْنَ سُيوفاً أو سَلَلْنَ خَناجِرا
تَصَدَّيْنَ لِى يوماً بِمَعْرَجِ اللِّوى فَغادَرْنَ قلبى بالتَّصَبُّرِ غادِرَا
سَفَرْنَ بُدُوراً وانتَقَبْنَ أهِلَّةً ومِسْنَ غصُوناً والتَفَتْنَ جآذِرا
وأطْلَعْنَ فى الأجيادِ للدُّرِّ أنجُماً جُعِلْنَ لِحَبَّاتِ القلوبِ ضَرَائِرَا

(١) المراد بالمحاجر هنا : العيون، جمع مَحْجِر وهو أيضا : مادار بالعين و بدا من البرقع من جميع العين ، وهو أيضا : ما دار بالعين من العظم الذى فى أسفل الجفن ، والمعاجر جمع مِعجر وهو ثوب تلفُّه المرأة على استدارة رأسها ثم تَجَلْبَبُ فوقه بجلبابها — خمارها — ومنه أخذ الاعتجار وهو لَىُّ الثوب على الرأس من غير إدارة تحت الحنك والمعاجر أيضا : العمائم.

وقال أبو الحسن على بن محمد التهامى :

وأرى العيونَ ولا كأعين عامرٍ ... قدرا مع القدرِ المتاحِ متاحا [1]

متوارثى مرض الجفون وإنما ... مرضُ الجفون بأن يكنّ صحاحا

أبرزن من تلك العيونِ أسنّةً ... وهززن من تلك القدودِ رماحا

يا حبّذا ذاك السلاحُ وحبّذا ... وقتٌ يكونُ الحسنُ فيه سلاحا

وجاء فى ذيل الأمالى للقالى : وأنشدنا أبو إسحاق إبراهيم ابن موسى ابن جميل :

غزتنى بجيشٍ من محاسنِ وجهها ... فعبّأ لها طرفى ليدفعَ عن قلبى

فلمّا التقى الجمعان أقبلَ طرفُها ... يريد اغتصابَ القلبِ قسرًا على الحربِ

ولمّا تجاذبنا بأسيافِ لحظنا ... جعلتُ فؤادى فى يديها على العضبِ [2]

وناديتُ من وقعِ الأسنّةِ والقنا ... على كبدى يا صاحِ مالى وللحبِّ

فصرتُ صريعًا للهوى وسطَ عسكرٍ ... قتيلَ عيونِ الغانياتِ بلا ذنبِ

وقال أبو تمام :

إنّ لله فى العبادِ منايا ... سلّطتها على القلوبِ العيونُ

وقال المتنبي :

الراميات لنا وهنّ نوافرٌ ... والخاتلاتُ لنا وهنّ غوافلُ [3]

---

(١) عامر اسم قبيلة مشهورة بجمال عيونها والمتاح : المقور .

(٢) العضب : السيف القاطع .

(٣) يقول : انهن يرمينا بسهام لحاظهن وهن عنا نافرات غير مقبلات علينا ، وكذلك يختاننا — يصددننا — بحسنهن غير عالمات بذلك .

كَافَأْنَا عن شِبْهِهِنَّ مِنَ المَهَا فَلَهُنَّ فى غَيْرِ التُّرابِ حَبَائِلُ (١)
مِنْ طَاعِنِى ثُغْرِ الرِّجَالِ جَآذِرٌ وَمِنَ الرِّماحِ دَمَالِجٌ وَخَلاخِلُ (٢)
وَلِذَا اسْمُ أَغْطِيَةِ العُيُونِ جُفُونُهَا مِنْ أَنَّهَا عَمَلَ السُّيُوفِ عَوامِلُ (٣)

وقال ابن الرومى :

يا عَلِيــلاً جعلَ الغِلَّةَ مِفْتَاحاً لِسُقْمِى
لَيْسَ فِى الأرض عليلٌ غيرُ جَفْنَيْكَ وَجِسْمِى

وَأَخَذَه محمد ابن هانِئ الأندَلُسى فقال :

المُدْنَفَانِ مِنَ البَرِيَّةِ كُلِّهَا جِسمى وَطَرفٌ بابِلِىٌّ أَحْوَرُ

« بابلىّ : ساحر » .

وَقال ابنُ مَيَّادَة (٤) :

---

(١) المَهَا : بقر الوحش تشبه الحسان بها لحسن عيونها ، والحبائل جمع حبالة : الشَّرَك ينصب للصيد ، يقول : هن يشبهن بقر الوحش فى سواد حدقهن وسَعَة عيونهن ، ونحن نصيد بقر الوحش ، فجازيتنا عنهن وأخذن بثأرهن فى صيدنا شِبْهَهُنَّ فصِدْنَنَا بحبائل نَصَبْنَهَا فى غير التراب ، يعنى بأعينهن .

(٢) الثغر جمع ثغرة وهى ثغرة النحر التى بين الترقوتين ، والجآذر جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية والمراد بالجآذر النساء ، والدمالج جمع دملج : حلى يلبس فى العضد ، والخلاخل جمع خلخل لغة فى خلخال يقول : إن هؤلاء النسوة الشبيهات بالجآذر يفعلن بجمال عيونهن ما يفعل الطاعن بالرمح ، أى يقتلن بسحر عيونهن ، وحليهن وتفعل كذلك فعل الرماح .

(٣) يقول : إنما سميت أغطية العيون جفونا لأنها تتضمن أحداقا تعمل ما تعمله السيوف فسميت أغطيتها باسم غطاء السيف وهو الجفن .

(٤) شاعر أدرك الدولة العباسية وميادة أمه واسم أبيه أبرد .

فيهنَّ صفراءُ المعاصمِ طفلةٌ بيضاءُ مثلُ غريضةِ التُّفَّاحِ
رَيَّشْنَ حينَ أَرَدْنَ أن يَرْمِينَنِي نَبْلاً بلا ريشٍ ولا بِقِدَاحِ
ونَظَرْنَ مِنْ خَلَلِ السُّتُورِ بأعينٍ مَرْضَى يخالِطُهَا السَّقَامُ صِحاحِ

« صَفْراء المعاصم فالمعاصم مواضع السوار وقد وضعَ المعاصم موضعَ المعصمين ، وصفراء المعاصم : يريد صُفْرةَ الزعفران وكان نساءُ العرب يتضمَّخْنَ به ، وطَفْلَة بفتح الطاء : ناعمة ، ومثل غريضة التفاح يريد : طراوة لحمها ، والغريض : الطرى ، ورَيَّشْنَ من قولهم رَيَّشَ السَّهم : ألزق به الريش ليخفَّ فى مَرِّه ، والنَّبل : السِّهام ، لاواحدَ له ، والقداح : السِّهام قبل أن تراشّ ، الواحد قِدْح ، يريد أن نَظَراتِهِنّ تصبْنَ إصابة السهام المريشة ، وخلل الستور : المواضع المنفرجة منها .

***

وقال ابن دُرَيْد :

ليسَ السَّليمُ سليمَ أفعَى حَرَّةٍ لكنْ سليمَ المُقلةِ النَّجلاءِ
نَظَرَتْ ولا وَسَنٌ يخالطُ عَيْنَهَا نَظَرَ المريضِ بِسَوْرَةِ الإغفاءِ

« السليم : اللديغ ، سُمِّى اللديغ — مَن تلدغُه الحية — سليما على التفاؤل له بالسلامة ، والحرّة : أرض ذات حجارة سود نخرات كأنها أحرقت بالنار » .

وقال عبد الله بن المعتز :

وتجرحُ أحشائى بعينٍ مريضةٍ كما لانَ مَتْنُ السيفِ والسيفُ قاطِعُ
عليمٌ بما تحتَ الصُّدورِ من الهوى سريعٌ بِكَرِّ اللَّحْظِ والقلبُ جازِعُ

وقال عَدِىُّ بن الرِّقاع :

لولاَ الحياءُ وأَنَّ رأسى قد عَسَا فيهِ المشيبُ لَزُرْتُ أُمَّ القاسِمِ (١)

---

(١) عَسَا فيه المشيب : اشتد بياضه ، من عسا النبات : اشتد وغلظ .

وكأنّهـــا بين النِّساء أعارَها ... عَيْنَيْهِ أحْوَرُ من جآذِرِ جاسِمِ (١)

وَسْنانُ أقصَدَهُ النعاسُ فَرَنَّقَتْ ... فى عَيْنِهِ سِنَةٌ وليسَ بنائِمِ (٢)

يصطادُ يقظانَ الرجال حديثُها ... وتطيرُ بهجتُها بروحِ الحالِمِ

وقال البحترى :

غداةَ تَثَنَّتْ للوَدَاع وسلمت ... بِعَيْنَيْنِ موصولٌ بجفنيهما السِّحْرُ

توهَّمتها ألوَى بأجفانِها الكَرَى ... كَرَى النومِ أوْ مالتْ بأعطافِها الخمرُ

وقال :

وفى القهـــوة أشكالٌ ... من الساقى وألوانُ (٣)

حبابُ مثلُ ما يَضْحَـ ... ـك عنـه وهو جَذْلانُ

وسُكْرٌ مثلُ ما أسْكَـ ... ـرَ طَرفٌ منه وسْنانُ

وطعم الريق إذ جا ... دَ بهِ والصَّبُّ هيمانُ

لنا مِنْ كَفِّهِ رَاحٌ ... ومِنْ رَيَّاهُ رَيْحـــانُ

وفى سِحْرِ العيون يقول بَشَّار :

أنا واللهِ أشتَهى سِحْرَ عَيْنَيْـ ... ـكِ وأخشى مَصارِعَ العُشَّاق

ويقول :

ومرنَّجَةِ الأردافِ مهضومَةِ الحشا ... تَمُورُ بِسِحْرِ عينِهـــا وَتَدُورُ

---

(١) الجآذر جمع جؤذر : ولد البقرة الوحشية وجاسم : قرية بالشام .

(٢) أقصده فالاقصاد : أن يصيبه السهم فيموت وهو هنا استعارة أى أقصده النعاس فنام ، ورنقت : دارت وماجت وخالطت ، والسِّنة : بقية آخر النعاس .

(٣) القهوة : الخمر .

إذا نظرتْ صبَّتْ عليكَ صبَابةً وكادَتْ قلوبُ العالمين تطير

وقال ذو الرمة :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعُولَيْنِ بالألبابِ ما تفعَلُ الخمرُ

« يُرْوَى أنَّ ذَا الرُّمَّة سَمِع إنْسَانًا يُنْشِدُ هذا البيت : فَعُولان . . .

فقال : فعولان ! كأنه تورَّعَ أن يقولَ : فعولَيْنِ فيكون ذلكَ بأمر الله تعالى » .

ومن أروع ما قيل فى النَّظَرِ قولُ ابن الرومى :

نَظَرَتْ فأقْصَدتِ الفؤادَ بِسَهْمِها ثم انثنتْ عَنْـــهُ فكادَ يهيمُ

ويلاى إن نظرتْ وإن هى أعرضَتْ وَقْعُ السِّهـــامِ ونَزْعُهُنَّ أليمُ

وقول الآخر :

ينظرْنَ من خَلَلِ السُّجُوفِ كأنَّما يُمطِرْنَ أحشاءَ الكريمِ نِبالا[1]

وقولُ عِنانَ صاحبة أبى نواس :

لو نظرَتْ عَيْنُهُ إلى حَجَرٍ وَلَّدَ فِيـهِ فُتُورُهَا سَقَمَا

هذا وليلاحَظْ أنَّ الذبولَ والفتورَ فى العيون هو الذى ترامَوْا إليه وقصدُوه من تشبيه العيون بالنرجس ، ألا ترى أن ابن المعتز نبَّه على ذلك بقوله :

وسِنَانُ قد طَرَقَ النُّعاسُ جفونَه فحكى بمقلتـــه عيونَ النرجس

أما ما ذكره بعضهم من أن التشبيه إنما وقع بنرجس فى أعلاه دائرة كحلاء يَحُفُّ بها ورق أبيضُ على شكل العين فغيرُ صحيح ، لأن ذلك لم يَثْبُتْ ولو ثبت لكان لا يُشَبَّهها به إلا من عَلِم وجودَه . والتشبيه واقع ممن

---

(١) السجوف جمع سجف : الستر .

علم وجود ذلك وممن لم يعلم . وقد سبق إلى وهم بعض أدباء الأندلس أن النرجس الذى تُشَبَّه به العيون هو نَوَّارٌ أصفر نسميه نحن البَهارَ ويسمونه هم نَرجساً ، ومن ثم أنكروا هذا التشبيه ونعَوْهُ علينا .

قال الشريشى[1] : وقد تمادَى إنكار أدباء وقتنا تشبيهَ العين بهذا النَّوار الأصفر المعروف عندنا بالنرجس ، فأكثرهم ينكر أن يقعَ به تشبيهٌ لأجل صفرتَه وإن ذكرْتَه لأحد قال : وأىُّ صفرة فى العين إلا أن يكون بصاحبها علةُ اليرَقان[2] ، ويَستهجن موضع التشبيه جداً ، وقد سألت عنه بعض أشياخى فى صغرى وأنا أقرأ عليه كتاب الجُملْ ، وكان أديباً شاعراً ، فأنكر وقوع التشبيه بهذا النَّوْر الأصفر وقال لى : النرجس عندهم بالمشرق نَوْرٌ يُشْبِهُ نَوَّارَ الفُول ، وأكثرُ مَنْ لقيته يستبعد التشبيهَ بهذا النَّوْر الأصفر لأجل لونه ، وذلك لقلة تحصيلهم معرفةَ كلامِ العرب وتشبيهاتِها ، والعرب تُوقِع تشبيهاتها على الصورة دون المعنى وعلى المعنى دون الصورة وعليهما جميعاً ، وهو أكمل وجوه التشبيه ، وتشبيه العيون بالسيوف والسهام إنما المراد به المضاء والقطع ، ولا يُلتَفتُ فى ذلك إلى اللون ، وكذلك تشبيه العيون بالنرجس الأصفر إذا قصد ما فيه من الفتور واقع متمكن فى التشبيه . والنرجس الذى يُشَبَّهُ به أهل المشرق العيونَ هو نبات له قضبان خضر فى رءوسها أقماعٌ يَخرج منها نَوْرٌ

---

(١) هو الإمام أحمد بن عبد المؤمن القيسى الشريشى الأندلسى شارح مقامات الحريرى وقد أطال فى كلمته هذه وأتى بكلام نفيس جداً فى هذا الموضوع وترى ذلك فى شرحه للمقامة الحلوانية .

(٢) اليرقان : مرض معروف يسبب اصفرار الجلد .

على الأقماع ورق أبيض فى وسط البياض دائرة قائمة من ورق صغير ، هذه الصفة التى تقع فى أشعارهم إذا ذكروا النرجس ، وبذلك وصفه كسرى أنوشران فقال : النرجس : ياقوت أصفر بين دُرٍّ أبيض على زُمُرُّدٍ أخضر... إلى أن قال الشريشى : والذى يسميه أهل المغرب نرجساً يسميه أهل المشرق بَهاراً ، وبلون النرجس يشبه أهل الأندلس المريضَ ، قال : فثبت أن نرجسَهم بهارُنا وأن بهارَهم نَرْجِسُنا .

* * *

وقد عدَّ بعضهم من محاسن العيون القَبَل ، وهو مَيلُ الحدقة فى النظر إلى الأنف ، وهو خلاف الحَوَل ، قال بعض أئمَّة اللغة : الأقبَلُ الذى أقبلت حدَقَاهُ على أنفه ، والأحول : الذى حَوِلَت عيناه جميعا .

وأنشد بعضهم :

أشتَهِى فى الطِّفلةِ القَبَلا لا كثيراً يشبه الحَولا

قال بعض الأدباء : لا أعلم لهذا الاستحسان وجهاً ، وهو إلى المعايب أقرب منه إلى المحاسن .

ومثل القَبَل الشُّطور ، يقال : شَطَر بَصرُه يَشْطِر شطوراً وشطْراً : صار كأنه ينظر إليك وهو ينظر إلى غيرك ، وَهو قريب من صفة الأحْوَل الذى يقول متبجحاً بحَوَله :

حَمِدْتُ إلٰهى مُذْ بُلِيتُ بحبـــه على حَوَلٍ أَغْنَى عَنِ النظرِ الشَّزْرِ
نَظَرْتُ إليْـــهِ ، وَالرقيبُ يُخَالُنِي نظرتُ إليْهِ ، فاستَرَحْتُ من العُذْرِ

« الضميرُ فى إليه الثانية يرجع إلى الرَّقيب » .

وكلُّ أولئِكَ من معايبِ العيون ومن معايبها الحَوَصُ ، وهو ضيقُ

العينين ، والخَوَصُ ، وهو غُؤُرُهُما مع الضيق ، وَالشَّتَرُ ، وهو انقلابُ الجَفْنُ ، والعَمَشُ ، وهو أن لا تَزَالُ العَيْنُ تُسِيلُ الدمع ولا يكادُ الأعمشُ يُبصِرُ بها ، ومثله الأَرْمَصُ ، والغَطَشُ : الضَّعْفُ فى البصر ، ويقال : هو الذى لا يفتح عينيه فى الشمس ، والجَهَرُ ، قال اللِّحْيانى : كُلُّ ضعيف البصرِ فى الشمس أَجْهَرَ ، وقال غيره : الأجهَرُ بالنهار ، والأعشى باللَّيْل ، والخَزَر ، وهو أن يكون الإنسان كأنه ينظرُ بِمُؤْخِرِ عَيْنَيْه ، والغَضَنُ ، وهو أن يكسِر عينَه خِلْقَةً أو عداوةً أو كِبْراً ، والشَّوَسُ ، وهو أن ينظر بإحدى عينيه ويُمِيلَ وجْهَهُ فى شِقِّ العينِ التى يريد أن ينظرَ بها ، يكون ذلك خِلْقَةً ويكون من الكِبْرِ والتِّيهِ والغَضَب ، ويقال : الشَّوسُ : رَفْعُ الرأسِ تكبُّراً ، والخَفَشُ ، وهو ضعفُ البَصَرِ مع ضيق العين ، ويقال : إنه فسادٌ فى العين يَضِيقُ له الجَفْن من غير وَجَعٍ وَلاَ قَرْحٍ ؛ وَالإطْراقُ ، وهو استِرْخاءُ الجفون ، وأَطْرَقَ : أَرْخَى عينيه ينظر إلى الأرض ؛ والجُحُوظُ ، وهو خروج مُقْلَةِ العينِ ونُتُوءها من الحِجاج ، ويُقال : رجُلٌ جاحِظُ العينين : إذا كانت حَدَقَتاهُ خارجتَيْنِ ، والبَخَقُ ، وهو أن يذْهَبَ البصرُ والعينُ مُنفتِحَةٌ ، والكَمَهُ ، وهو أن يولَدَ الإنسانُ أَعْمَى ، والبَخَصُ ، وهو أن يكون فوق العينين أو تحتهما لحمٌ ناتىٌ .

ومما يتصل بهذا الباب وَصْفُهم العيون تصاب بالرَّمد ، قال ابن المعتز ، وقيل إنَّها لابن الرومى . وقيل للناجم :

قالوا : اشتكت عينُه فقلت لهم ... مِن كَثْرَةِ الفَتْكِ نالها الوَصَبُ[1]

---

(١) الفتك يروى القتل والفتك أحسن ، والوصب : المرض والوجع الدائم وقد يطلق على التعب .

حُمْرَتُهَا مِنْ دِماه مَن قتلتْ والدَّمُ فى النَّصْلِ شاهِدٌ عَجَبُ (١)

وفى معنى البيتين قول بعضهم :

قالوا : الحبيبُ شكا جُعِلتُ فِداءه رَمَدًا أَضَرَّ بعينـــه كالعَنْدَمِ (٢)
فأجَبْتُهُمْ : ما زال يفتِك لَحْظُهُ فى مُهجَتِى حَتَّى تَلَطَّخَ بالدَّمِ

* * *

وكذلك وصفهم الدموع والبكاء — دموع المُحِبّين وَالمُحَبّين — أو المحبُوبين — : قال الصُّولى :

لو كُنتَ يومَ الوَداعِ حاضِرَنا وَهُنَّ يَشْكِين عِلَّةَ الوَجْدِ
لم تَرَ إلاّ الدموعَ جـــارِيَةً تَسْقُطُ مِنْ مُقْلَةٍ على خَدِّ
كأنَّ تلكَ الدّموعَ قَطْرُ نَدى يَقْطُرُ مِنْ نَرْجِسٍ على وَرْدِ

وقال بعضهم :

تَقُولُ غَداةَ البَين عنـد وَدَاعِها إلى الـكبدِ الحرّى : فَسِرْ، وَلَكَ الصَّبْرُ
وَقَدْ سَبَقَتهـــا عَبْرَةٌ فَدُمُوعُها على خَدِّها بِيضٌ وَفى نَحرِها حُمْرُ

« قوله : وفى نحرها حمر معناه : أنّ الدموع إذا انحدرت إلى نحرها احمرّت من الطيِّب كالزعفران » .

وقال ابن الرومىّ :

لَمّا دَنَا البَينُ وَزاح الدَّلُّ وَدَّعْتُهـــا وَدَمْعُها مُنْهَلُّ
وَخَدُّهَا مِنْ قَطْرِهِ مُنْهَلُّ كأنَّهُ وَرْدٌ عليـــه طَلُّ

وَقال آخر :

كأنَّ الدُّموع على خَدِّها بَقِيَّةُ طَـــلٍّ على جُلَّنَارْ

« الجلنار : زهر الرمّان »

---

(١) النصل : نصل السهم والسيف والرمح ، وقد يسمى السيف نصلا .
(٢) العندم : صبغ أحمر يختضب به .

وقال بَشَّار بن بُرْد :

ماءُ الصبابةِ ، نارُ الشَّوقِ تحْدِرُهُ فهل سمِعْتُم بماءٍ فاضَ مِن نارِ

وينظر إلى قول بشار قولُ أبى هلال العسكرى :

لهيب قلبى أفاضَ الدَّمعَ مِن بَصَرى والعُودُ يَقطُرُ ماءً وهو يَحترِقُ

وقال ذو الرُّمَّة :

لَعلَّ انحدارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ راحَةً مِنَ الوَجْدِ أو يَشْفِى شَجِىَّ البلابِلِ

وقالوا : إنَّ أبلَغَ ما قيل فى امتلاء العين من الدمع قولُ أبى حيَّة النُّميرىّ :

نَظَرْتُ كأنِّى مِنْ وَرَاءِ زُجاجةٍ إلى الدَّارِ مِن فَرْطِ الصَّبابةِ أَنْظُرُ

فعَيناىَ طوراً تغرَقانِ مِن البُكا فأعْشَى وطوراً تحسِرانِ فأُبْصِرُ[1]

وليس الذى يَهْمِى مِن العَين دَمْعُها ولكنَّه نَفْسٌ تَذوب فتَقْطُرُ

وتَبِعه ابنُ دُريد فقال :

لا تحسَبَنْ دَمْعِى تحَدُّر إنمـا نفسى جرَت فى دَمْعِىَ المُتحَدِّرِ

وقال :

قلب تقَطَّعَ فاستحالَ نَجيعاً فَجَرَى فصارَ مع الدُّموع دموعا[2]

رُدَّت إلى أحشائِه زَفَراتُه فَفَضَضْنَ منه جَوانِحاً وَضُلوعا

عَجَباً لِنارٍ ضُرِّمَت فى صَدرِه فاستنبَطَتْ مِن جَفنِه يَنْبُوعا

لَهَبٌ يكونُ إذا تَلَبَّس بالحشا قَيظاً ويَظهرُ فى الجفونِ ربيعا

« قوله عجبا لنار ... البيت نبَّهَ على هذا المعنى أبو تمام بقوله :

---

(١) تحسران من قلوبهم حسر البحر : إذا نضب الماء عن ساحله .

(٢) النجيع : الدم ، واستحال : تحوَّل

يا سَهْمُ للبَرْقِ الذى استطارا ثابَ على رَغْمِ الدُّجَى نهارا[1]
آضَ لنـــا ماءً وكانَ نارا أرْضَى الثَرَى وأَسْخَطَ الغبارا

ومن محاسن ما قيل فى الدموع قول السَّرِىّ الرَّفَّاء :

يَنفْسِىَ مَن رَدّ التَّحيَّةَ ضاحِكاً فَجَدَّدَ بعد اليأس فى الوَصْلِ مَطْمَعِى
إذا ما بَدَا أبْدَى الغَرامُ سرائرى وأظْهَرَ للعُذَّالِ ما بَينَ أضْلُعِى
وحالت دُموعُ العين بينى وبينه كأنَّ دُموعَ العَينِ تَعْشَقُهُ مَعِى

وقال الحَسنُ بن وَهب :

ابكِ فما أكثرَ نَفْعَ البُكا والحُبُّ إشفاق وتعليـــل
افزَعْ إليه فى ازدحام الجَوَى ففِيـــهِ مِسْلاةٌ وتَسْهِيلُ
وهو إذا أنت تأمَّلْتَـــه حُزنٌ على الخَدَّيْنِ محلول[2]

وقال عَبّاس بن الأحنف :

نَزَفَ البُكاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فاستعِرْ عَيناً لِغَيرِكَ دَمْعُها مِدْرارُ
مَنْ ذا يُعِيرُكَ عَينَه تَبْكِى بها أرأيت عيناً لِلْبُكاءِ تُعارُ

والمجنون :

ذُدِ الدَّمْعَ حتى يظعَنَ الحىُّ إنَّما دُمُوعُكَ إنْ فاضَت عليكَ دَليلُ
كَأَنَّ دُموعَ العين يومَ تحمَّلوا جُمانٌ على جَيبِ القميصِ يَسِيلُ

ومما يتصل بهذا الباب وصفهم الحواجب :

---

(١) يا سهم هو سهم بن أوس أخو حبيب ابن أوس — أبى تمـام — وسهم كان ينشد أشعار أبى تمام لأن أبا تمام كان تمتاماً .

(٢) حزن محلول يُريد أنه حزن ذائب .

قال الزاهى :

وأغيدَ مجدولِ القوامِ جبينُه ... سنا القمرِ البدرىّ فى الغصنِ الرّطب
تنكّبَ قوسَ الحاجبينِ فسهمُهُ ... لواحظُهُ المرضى وبُرْجاسُه قلبي

«البرجاس — كما قال صاحب اللسان — غرَضٌ فى الهواء يُرمَى به ، وقال بعضهم : هو شِبْهُ الأُمارة تنصب من الحجارة ولعل مراد الشاعر هنا أن يقول : وهدَفه قلبى » .

وقال عبد الله بن أبى الشّيص :

حَذِرْتُ الهَوَى حتى رُميتُ مِن الهَوَى
بأصْرَدِ سَهْمٍ مِن قِسِيِّ الحواجِبِ

« بأصْردسهم : أى بأنفذ وأشد إصابةً » .

قال محمد عبد الرحمن الكوفى :

ومُستَلْبٍ عَيْنَ الغَزالِ وقد تُرَى ... بجَبْهَتِهِ عَينُ الغَزالَةِ ماثلا
تناوَلَ قوسَ الحاجِبَيْنِ مُفوَّقا ... بأسْهُمِ ألحاظٍ تَشُكُّ المَقاتِلا

وقال اخر :

غزانِى الْهَوَى فى جَيْشِهِ وجُنودِهِ ... وعَبَّى عَلَىّ الخَيلَ مِن كُلِّ جانِبِ
بِمَيْمَنَةٍ أعْلامُها أعْيُنُ المَهَا ... ومَيْسَرَةٍ تَقْضِى بِزُجِّ الحواجِبِ

ومن محاسن الحاجب : الزَجَجُ ، وَهُوَ دِقَّة الحاجِبَين وامتدادُهما حتى كأنّهما خُطّا بِقَلَم ، والتزجيج : حَذفُ زَوائِد الشَّعَر ، وَزَجَّجَت المرأة حاجِبَيْها بالمِزَجِّ : دَقَقْتَه وَطوَّلَتْه ، وقيل : أطالَتْه بالإثْمد ، وقال الراعى :

إذا ما الغانِياتُ بَرَزْنَ يوماً ... وزَجَّجْنَ الحواجِبَ والعيونا[1]

(١) هـذه هى الرواية المشهورة ولـكن العلامة المصرى ابن برّى روى البيت هكذا : وهِزَّةِ نِسْوَةٍ مِنْ حَىّ صِدْقٍ ... يُزَجِّجْنَ الحواجب والعيونا

أتخنَ جمالَهنَّ بذاتِ غِسْلٍ سَراةَ اليوم يَمْهَدْن الكُدُونا

« قوله : والعيونا أردن : وكحلن العيونا ، وذات غسل : موضع ويمهدن : يوطئن ، والكدون جمع كِدْن وهو ما تُوطَّىء به المرأةُ مَرْكبها من كساء ونحوه » .

وفى صفة سيدنا رسول الله : أَزَجّ الحواجب ، ومن محاسن الحاجب : البَلَج ، وهو أن يكون بين الحاجبين فُرْجَة ، والعَرَبُ تستحب ذلك وتكرهُ القَرَن ، وهو اتصال الحاجبين ، وفى صفة سيدنا رسول الله : سوابغ فى غير قَرَن أى أن حواجبه دقّت فى حال سُبوغها ، ومن معايب الحاجب : الزَّبَب وهو كَثْرَة شَعْرها ، وقيل : الزَّبَبُ : كثرة الشَّعر فى الحاجبين والأُذُنين ، وفى المَثَل « كُلُّ أَزَبَّ نَفُورٌ » قالوا : لا يكادُ يكونُ الأَزَبُّ إلاَّ نَفوراً لأنه يَنْبُتُ على حاجبَيه شُعَيراتٌ فاذا ضَرَبَته الريحُ نَفر . وأنشدوا :

وَخَوفِيَ بالظَّنِّ أنْ لا ائتِلا فَ أوْ يتناسَى الأزَبُّ النَّفُورا

هذا وفى غرائب البدَع فى أيامنا هذه أن كثيراً من نسائنا يَعمدن إلى حواجبهنَّ فيحلقنها وَيَستَبدِلْن بها حواجبَ مصطنعة مُزَوَّرَةً ، كأنَّهن بذلك يُؤثِرن صُنْع الإنسانِ وَصِبْغَتَه التى هى أقبح على صُنْع الله وَصِبغَتِه التى هى أَحْسَن ! ومَن أَحْسَنُ مِن الله صِبغَة !

الشعر وجماله :

أسلفنا فى أول هذا الباب — باب حضهم على النظافة والتجمل والزينة — أن مما يجمل بالمرأة أن تُعْنَى به وبتنظيفه شَعَرَها ، فان شَعَر المرأة له مكانته فى جمالها ، وقد قالوا فى وَصاياهم « إذا تَزَوَّج أحَدُكم المرأةَ فليسألْ عن شَعَرِها ، فإنَّ الشعَر أحد الوجهين » .

وقال خالد بن صفوان : الشَعَر الأسود بُرنُسُ الجمال .

ومِن أحسَن ما قِيل فى الشَعَر قول ابن الرومى :

وَفاحِمٍ واردُ يُقَبِّلُ تَمْـــشاهُ إذا اختال مُرْسلاً غُدُرَه(١)
أقبَلَ كالليـــل مِنْ مَفارِقِهِ مُنحَدِراً لا نَذُمُّ مُنْحَدَرَه(٢)
حتى تنـاهَى إلى مَواطِئِهِ يَلْثِمُ مِن كُلِّ مَوطِئٍ عَفَرَه(٣)
كأنَّهُ عاشِقٌ دَنا شَغَفاً حتى قَضَى من حبيبه وَطَرَه

وقد أخذ بعضهم قوله : حتى تناهى إلى مَواطِئه .. البيت فقال :

ظباءٌ أعارَتها المَها حُسْنَ مَشْيِها كما قد أعارتها العيُونَ الجآذِرُ
فَمِن حُسْنِ ذاك المشْيِ جاءتْ فقبَّلَتْ مَواطِئَ مِن أقدامِهِنَّ الغدائِرُ

وقال المتنبي :

دَعَت خلاخِيلُها ذَوائِبَها فَجِئْنَ مِن فرقِها إلى القَدَمِ

* * *

وقال عبد الله ابن المعتز :

سَقَتْنِى فى لَيْلٍ شَبِيهٍ بِشَعْرِها شَبِيهَةَ خَدَّيْها بِغَـــيْرِ رَقِيبِ(٤)
فَأَمْسَيْتُ فى لَيْلَيْنِ بالشَّعْرِ والدُجَى وَشَمْسَيْنِ مِن خَمْرٍ وَخَـــدٍّ حَبِيبِ

وكأنَّ المتنبي نظر إلى معنى ابن المعتز فى قوله :

كَشَفَتْ ثلاث ذوائِبٍ مِن شَعْرِها فى لَيْـــلَةٍ فأرَتْ لَيالِيَ أرْبَعا
واستَقْبَلَت قَمَـــرَ السماء بِوَجْهِها فأرَتْنِيَ القَمَرَيْنِ فى وَقْتٍ معـا

(١) فاحم يريد شعراً أسود ، والوارد من الشعر : الذى يَرِدُ الكفل وما تحته ، وغدره : ضفائره .

(٢) لانذمّ منحدره أى انحداره (٣) عفره : ترابه .

(٤) شبيهة خديها معمول سقتنى ، أى سقتنى خمراً حمراء شبيهة خديها .

« أراد المتنبي بالقمرين : الشمس والقمر ، فجعل وجهها شمساً فى الحسن والضياء قابل من بدر السماء قمراً ، ويجوز أن يشبه وجهها بالقمر ، فهما قمران فى وقت واحد قال بعضهم :

وإذا الغزالةُ فى السماء تَرَفَّعَت ... وبَدَا النهارُ لوقتـــه يتزحَّلُ
أبْدَتْ لِوَجْه الشمس وجها مِثلَه ... يَلْقَى السماء بمِثـــل ما تَسْتَقْبِلُ

وقال صريع الغواني مسلم بن الوليد :

فَبِتُّ أُسِرُّ البَدرَ طوراً حَديثَها ... وطوراً أُناجِي البـدرَ أحْسِبها البدرا
إلَى أنْ رأيتُ الليل مُنكَشِفَ الدُّجَى ... يُوَدِّع فى ظَلْمائِه الأَنْجُمَ الزُّهْرا »

وقال بَكْر بن النَّطَّاح :

بيضاء تَسْحَبُ مِن قِيام فَرعَها ... وَتَغِيبُ فِيهِ وهو وَحْفٌ أسْحَم
فكأنَّها فِيـــه نَهارٌ ساطِعٌ ... وكأنَّه لَيـــلٌ عليها مُظْلِم

« قوله : تسحب بن قيام يريد : من بعد قيامها وذلك هو الغاية فى الطول والسبوغ ووحف : كثير حسن ، وأسحم : أسود » .

وقال مسلم بن الوليد :

أَجِدَّك ما تَدْرِينَ أنْ رُبَّ لَيلَةٍ ... كَأَنَّ دُجاها مِن قُرونِكِ تُنْشَرُ
نَصَبْتُ لها حتى تَجَلَّت بِغُرَّةٍ ... كَغُرَّةِ يَحيَى حين يُذكَرُ جعفر

« قوله كغرة يحيى من بارع الاستطراد إلى المديح » .

وقالَ ابنُ دُرَيد الأَزْدِيّ :

غَرَّاء لَوْ جَلَتِ الخُدُودُ شُعاعَها ... للشَّمْس عِند طُلوعِها لم تُشْرِقِ
غُصْنٌ على دِعْصٍ تألَّقَ فَوْقَهُ ... قَمَرٌ تألَّقَ تحت لَيلٍ مُطْبِقِ (١)
لو قيل للحُسْنِ اختكِمْ لم يَعْدُهَا ... أو قيل خاطِبْ غيرَها لم يَنطِقِ

(١) الدعص : كثيب الرمل المجتمع .

فكأننا مِنْ فَرْعِها فِي مَغْرِبٍ وَكأننا مِنْ وَجْهِها فِي مَشْرِقِ

وقالَ المتنبّي :

وَمَن كلَّما جَرَّدْتُهـــا مِن ثِيابِها كَساها ثِيابًا غَيَّرَها الشَّعرُ الوَحْفُ (١)

وقد سَبَق جميع الشعراء فى هذا الباب امرؤ القيس فى معلقته حيث يقول :

وفَرعٍ يُغَشّى المَتْنَ أَسْوَدَ فاحِمٍ أَثِيثٍ كَقِنْوِ النخلة المُتَعَثْكِلِ (٢)

غدائِرُهُ مُسْتَشْزِرات إلى العُـــلا تَضِلُّ العِقاصُ فى مُثَنًّى وَمُرْسَلِ (٣)

ومن طريف ما يتعلّق بالشَعَر ما أورده ابن بَسّام فى الذَّخيرة قالَ : ومن نوادر الآفاق ، الحلوة المساق ، الغريبة الاتفاق ، خبر النحلى مع المعتمد بن عبّاد ، وذلك أنه مَشَت بين يديه يوماً بَعض نسائه فى غلالة لا يكاد يفرق

---

(١) الوحف : الشعر الكثير الأسود الحسن .

(٢) يغشى المتن : أى يَكْسو الظَّهر لطوله وجثولتـــه ، ويروى بدل يغشى : يَزينُ ، وأثيث : ملتف كثير ، والفاحم : الشديد السواد والقنو واحد الأقناء والقنوات وهى العثاكيل جمع عثكول : العذق وهو فى النخل بمنزلة العنقود فى الكرم — شجر العنب — يقول : تبدى عن شعر طويل يغطى ظهرها أو يزينه إذا أرسلته عليه ثم شبه دؤاشيها بقنو نخلة متعثكلة أى خرجت عثاكيلها ، والذوابد تشبه بالعناقيد فى تجعدها والتفافها وكثرتها .

(٣) الغدائر جمع الغديرة وهى الخصلة من الشعر ، والاستشزار : الارتفاع والعقيصة : الخصلة المجموعة من الشعر يقول : ذوائبها وغدائرها مرتفعات إلى فوق ، يراد بذلك شدها على الرأس بخيوط ، ثم قال : تغيب عقائصها فى شعر بعضه مثنى وبعضه مرسل ، أراد وفور شعرها .

بينها وبين جسمها ، وذوائبَ تخفى آيات الشمس فى مدلهمها ، فسكبَ عليها ماء وَرْدٍ كان بين يدَيه ، فامتزج الجميع لِيناً واسترسالا ، وتشابهَ طيبا وَجمالا ، وأدركت المعتمدَ أُرَيحيَّة الطرب : ومالت بعطفيه راحُ الأدب ، فقال :

وهَويتُ سالِبَةَ النفوسِ عزيزةً تختـــالُ بين أسِنَّةٍ وبَواتِرِ

«قوله عزيزة حال من سالبة ويشير بذلك إلى المثل «من عَزَّ بَزَّ» أى من غلب سلب»

ثم تعذَّر عليه المَقال ، واشتغل عن تلك الحال ، فقال لبعض الخُدَّام القائمين على رأسه : سِرْ إلى النحلى وخُذْه بإجازة هذا البيت ، ولا تفارقه حتى يفرغ منه ، فأضافَ النحلى إليه ، لأول وقوع الرقعة بين يديه ، هذَيْنِ البيتين :

راقت محاسنُها ورَقّ أديمُهـــا فتكاد تُبْصِرُ باطناً من ظاهِرِ

يَنْدَى بماء الورد مُسْبِلُ شَعْرِها كالطَلِّ يسقط من جَناحَىْ طائِرِ

فلما قرأه المعتمد استحسنه واستحضره ، فقال : أوَ كُنْتَ مَعَنَا ؟ فقال النحلى ما معناه : يا قاتِلَ المحْل ، أوَ ماتلَوْتَ (وأوحَى رَبُّك إلى النحل !)

* * *

الشعر واللغة :

يقال : شعر جُفَالٌ : إذا كانَ مُجْتَمِعاً كثيراً ، قال ذو الرُّمَّة يَصِفُ امرأة :

تُريك بياضَ لَبَّتِهـــا وَوجهاً كقَرْنِ الشَّمْسِ أفْتَقَ ثُم زالا (١)

وأسْوَدَ كالأساودِ مُسْبَكِرّاً على المَتْنَيْن مُنْسَدِلاً جُفالا (٢)

(١) فتق قرن الشمس : أصاب فتقاً من السحاب فبدا منه .

(٢) واسود : أى شعراً أسود ، والأساود جمع أسود وهو العظيم من الحيات وفيه سَواد ، ومسبكرا : مسترسلا جنَبَتَا الظهر ، أو مكتنفَا الصلب عن يمين وشمال من عصب ولحم ، ومنسدلا : وقع على الظهر .

ويقال : شَعَرٌ وَحْفٌ — بسكون الحاء وفتحها — إذا غَزُرَ واسوَدَّ وَحَسُنَ واتّصل ، وسَبْطٌ : إذا كان مسترسلا ، ورَجْلٌ : إذا كان بين السُّبُوطَةِ والجُعُودَةِ ، أى كان غيرَ جَعْدٍ ولا سَبْطٍ ؛ والجَعْدُ : نقيض السبط ، أوالشَّعَرَ القصير ، وشَعَرٌ قَطَطٌ : إذا كانَ شَدِيدَ الجُعودَة ؛ وشَعَرٌ مُفَلْفَل : إذا كانَ نِهايَةً فى الجعودَة ، كشُعور الزَّنج . ومُغْدَودِن : إذا كانَ طويلا ناعِماً ؛ وأثيث : إذا كان كثيرا ملتفا ؛ ووَارِد . إذا كان طويلا مسترسلا يصل إلى الكفل.

هذا ، وقد قال الأصمعىُّ : من لم يحفَّ شعره قبل الثلاثين لم يَصْلَع أبدا ، ومَن لم يَحْمِلِ اللحْمَ قبل الثلاثين لم يحمِلْهُ أبدا . .

* * *

وبعد فها هوذا قد بانَ أَنّ أَحْسَنَ الشَعَرِ وأجمَلَهُ ما كانَ أَسْوَدَ طويلا مُرْسَلاً ، وليت شِعْرى كيف خَفِىَ هذا على ذَوق نساء اليوم ! أولئك اللاتى عَمِدْنَ إلى تلك البدعة التى ابتدعها بعض حَلاّق باريس ! وهى قَصُّ شُعورهنَّ ؛ كأنَّهُنَّ يحاولن بذلك التَّشَبُّهَ بالذَّكران ، ويبدين سخطهن على أُنوثَتِهِنَّ ، ومِن ثمّ أخذن يَتَرَجَّلْنَ شيئا فشيئا ، وقد نعى العقلاء قديما على النساء تَشَبُّهَهُنَّ بالرجال وكِفرَهِنَّ بأُنوثَتِهِنَّ ! وفى الحديث الشريف عن ابن عباس رضى الله عنه قال : (لَعَنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المتَشَبِّهِينَ من الرجال بالنساء والمتشبهاتِ من النساء بالرجال) . وليت الأمر وقف عند هذا الحَدّ ! وإنما تَجاوَزَه إلى صبغ شعورهِنَّ ذلك الصبغ الأصفر الذى يَشُقُّ منظره على الاحداق ، وينبو به الأذواق ، ويأنف منه الجمال والكمال ، أين أنتن من السَّوَادِ الذى هو أجمل ألوان الشَّعَر ! وأين أنتُن من الشعر الطويل المنسدل على الظهر ، ذى الغدائر والضفائر الذى افتتن به ذَوو الصبابَة من الشعراء والأدباء والغَزليين ! وغير

الشعراء من سائر الرجال الذين هم الحَكَمُ التُرْضَ حكومتهُ فى جمالِكُنّ .

سيداتى آنساتى ، أنشُدُكُنّ الجمال إلا ما أقلعْتُنّ عن التقليد ، وإذا كان التقليد ما منه بُدٌّ فى رأيكُنّ فليَكُنْ عن بَصيرة وروِيّة وطُول أناة ومُوَازنة ، وإنّى أظُنُّكُنّ قد فَطِنْتُنّ إلى أنكُنّ كثيراً ما أسرعتنّ إلى تقليد غيركن فى بدعَةٍ ما ثم لا تَلْبَثْنَ أن تُقلعن عنها بعد أن يتبين لكن أنها غير خليقة بالاتباع . وصَدَق من قال : فى العجلة النّدامة وفى التأنى السلامة .

الجبهة والجبين وما يتصل بهما من الطُرَر والسَّوالف :

الجبهة والجبين وما يتصل بهما من الطرر والسوالف :

الجبهة على التقريب : موضع السجود من الإنسان ، والجبينان يكتنفانِها من جانبيها ، قال ابن قُتيبة فى أدب الكُتّاب : لا يكاد الناسُ يُفرِّقون بين الجبهة والجبين ، فالجبهة مَسْجد الرَّجُل — موضع سجوده — الذى يصيبه نَدَبُ السُّجود[1] والجبينان يَكْتَنِفانها ، من كل جانب جبين ، وقال ابن سِيدَه : الجبينان : حَرْفانِ مُكْتَنِفا الجبهة من جانِبَيْها فيما بين الحاجِبَين مُصْعِداً إلى قُصاص الشَعَر .

ويُستَحَبّ مِن الجَبْهة استرسالُها ورِقَّةُ بَشَرَتِها وعَدَمُ تَغَضُّنِها ، ويقال لمن كانَ بِهَذِه الصِّفَةِ : صَلْت الجَبين ، وطَلْقُ الجَبين ، وواضح الجَبين ؛ وليس وَضَح الجبين كِنايَةً عن البياض إذ قد يقال ذلك لِمَن كان أسْمَرَ ، وضد صلت الجبين والواضح والطلق : الأغْضَن والمرأة غَضْناء ، وواحدُ الغُضون غَضْن وغَضَن ، وتُسَمّى الغضونُ الأسارِيرَ ، واحدها سرَر . فإنّ الأسارِير جمع

---

(١) نَدَب السجود : أثره جمع نَدَبَة وهى فى الأصل أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد .

أسرار والأسرار جمع سرر ، فالأسارير جمع الجمع ، ومثلُ السِّرِّ سِرَار ، وجمعه على هذا أسِرَّةٌ ، قال أبو كبير الهُذلى :

وإذا نَظَرْتَ إلى أَسِرَّةِ وَجْهه ... بَرَقَتْ كبَرْقِ العارضِ المُتَهَلِّلِ[1]

ويستحب فى الجبهة أيضا اتّساعُها مِن غير إفراطٍ .

وكانت عُلَيَّةُ بنت المَهْدِى أخت هارون الرشيد — كما رَوَى صاحب الأغانى — مِن أحْسَنِ الناسِ وأظرفهم ، تقول الشِعْرَ الجَيِّدَ[2] وتَصُوغُ فيه الألحانَ الحَسَنَةَ ، وكان بها عَيبٌ : كان فى جبينها فَضْلُ سَعَةٍ حتى تَسْمُجَ[3] ، فاتخذَت العصائبُ المكلَّلَةَ بالجَوْهر لتَسْتُرَ بها جبينها ، فأحْدَثَت والله شيئا ما رأيت فيما ابتدعهُ النساء وأحْدَثْنَه أحْسنَ منه .

* * *

الطُّرَّة :

قال الأعْشى :

غَرَّاءُ فَرْعاءُ مَصْقولٌ عوارِضُها ... تَمشى الهُوَيْنَا كما يَمشى الوَجِى الوَحِلُ

« غَرَّاء : بيضاءُ الوَجْهِ ، وعَنِ الأصْمَعِىِّ قال : قُلْتُ لأعْرابِيَّة : ما الغَرَّاء ؟

---

(١) العارض : السحابة تراها فى ناحية من السماء ، والمتهلل : المتلألئ بالبرق .

(٢) ومن شعرها :

بُنِى الحُبُّ على الجَور فلَو ... أنصفَ المَعْشوقُ فيه لَسَمُجْ
لَيْسَ يُسْتَحْسَنُ فى حُكم الهَوَى ... عاشِقٌ يُحْسِنُ تأليفَ الحُجَجْ
لا تَعِيبَنْ مِن مُحِبٍّ ذِلَّةً ... ذِلَّةُ العاشِقِ مِفتاح الفرَجْ
وقَليلُ الحبِّ صِرْفًا خالِصًا ... لَكَ خيرٌ مِن كثير قد مُزِجْ

(٣) عبارة النجوم الزاهرة : وكانَ فى جبهتها سعة تشين وجهها .

قالت : التى بين عينيها بَلَج ، وفى جبهتها اتِّساع يتباعد معه قُصَّتُها عن حاجبيها فيكونُ بينهما نَفْنَفٌ[1] وفرعاء طويلة الشَّعَر ، وعَوارِضُها : ثناياها أو هى ما يبدو عند الضحك ، ومصقولة : مجلوّة ، والوَجِى : الذى أصابَهُ الحَفَا — والحفا : أنْ تَرِقّ القدَمانِ مِن كَثرَةِ المشى ، والوَحِل : الذى ارتطَم فى الطِّين الرقيق ، وهذه القُصَّةَ التى وَصَفَتِ الأعرابية هى الطُّرّة ، وسُمِّيَت كذلك لأنّها مقطوعة مِن جُمْلَةِ الشَّعر ، تشبيهاً لها بِطُرّةِ الثَّوب وهى حاشيتُه التى لا هُدْب لها ... ومِن كلام الحريرى فى إحدى مقاماته « لا والذى زَيَّنَ الجباهَ بالطُّرَر ، والعُيونَ بالحَوَر » .

وهم يُشَبِّهون أطراف الشعَر المَصْفُونِ بِرؤس السِّينَاتِ إذا كُتِبَت ، كما يشبهونَ السينات بها قال التِّهامى :

وفى كتابك — فاعذر من تَهِيم به — مِن المحاسِنِ ما فى أجمل الصُّوَرِ
الطِّرْس كالخَدِّ والنونات دائرةٌ . مِثل الحواجبِ والسِّينات كالطُّرَرِ

السوالف :

السوالف كنايةٌ عن خُصَلٍ مِن الشَّعَر ترسل على الخَدّ ، واحِدُها سالف وسالِفة ، وفاعل إذا كان اسما ولم يكن صفةً يجمع على فواعل ، والسالفة فى الأصل : صفحة العنق ، فَسُمِّيت خُصْلة الشعر المذكورة سالفة لاتصالها شيئا من الاتصال بالسالفة ، إذِ السالفة هى موضع ارسالها ، وقد تُسَمَّى أيضا أصْداغاً ، إذ الصُّدْغ هو مُبتدأ إرسالها ، قال الجوهرى فى الصحاح : الصُّدْغ ،

---

(١) القصة تتخذها المرأة فى مقدم رأسها تقص ناجبتيها عدا جبينها والتنفف : الفرجة بين الشيئين .

خُصْلَةٌ من الشعر ترسل بين العين والأُذن ، قال بعضهم :

سَكِرْتُ مِن لَحْظه لا من مُدامَتِه ... ومالَ بالنَّوم عن عَيني تمايُلُهُ
وما السُّلافُ دهتني بل سوالفُهُ ... وما الشمولُ ازدهتني بل شمائله[1]
أَلْوَى بِصَبْرِيَ أصْداغٌ لُوين له ... وغُلُّ صَدْرِي بما تحوى غلائله[2]

وقال بعضهم :

أَرَى سَهْمَ لَحْظٍ حَوْلَ عَقْرَبِ سالِفٍ ... وكيف نَجَاتِي بين سَهْمٍ وعَقْرَبِ
وأَلْحَظُ ما طَلَّتْهُ باللَّحْظِ مِن دَمِي ... عَلَى وَجْنَتَيها والبَنانِ المُخَضَّبِ

وقال آخر وذكر الأصْداغ :

بِظِبـاءٍ كالدَّنانِـيرِ ... كِناسٌ فى المَقاصِـيرِ
وَقد عَقْرَبْنَ أَصْـدَاغاً ... كأَذْنابِ الزَّرازِيرِ

وقال آخر :

وَبِنَفْسِ مَنْ إذا لَمَسَتْه ... نَثَرَ الوَردُ عليـه وَرَقَهْ
وإذا مَسَّتْ يدى أصْدَاغَه ... أفلتَتْ مِنها فعادَت حَلَقَهْ[3]

---

(١) السلاف : الخمر وكذلك الشمول .

(٢) غُلٌّ من الغليل وهو هنا حرارَة الحبّ ، والغلائل جمع غلالة وهى الشعار يلبس تحت الثوب ، وألوى بصبرى : ذهب به .

(١) قوله فعادَت حلَقَة قال أبو عمرو الشيبانى إن الوَجْهَ تسكين اللام فى مثلى حلقه الحديد وحلقه الناس أما حلقه بفتح اللام فهى جمع حالِق وروى عن أبى عمرو بن العلاء حَلَقَه فى الواحد بتحريك اللام والجمع حَلَق وحَلَقات ، وقال ثعلب : كُلُّهم يجيزه على ضعفه وأنشد :

وهذا الآخر قد أخذ هذا المعنى من حديث يُرْوَى عن المغيرة بن عبد الرحمن. قال: حججت مع أبي وأنا غلام وعليَّ جُمَّة، فَجِئْنا للسلام على عُمَر بن أبي ربيعة فَجَعَلَ يَمُدُّ الخُصْلَةَ من شَعَرِي ثم يُرسِلُها، فترجع إلا ما كانت عليه، فيقول: واشباباه . . .

ومِمَّا وُصِفَ به الصُّدْغُ — والمُراد به كما أسلفنا الشَّعَر المُتَدَلِّي على الصُّدْغَين وهما ما بين العين والأذن — فمن ذلك قولُ عبد الله بن المعتز:

رِيمٌ، يَتِيهُ بِحُسْنِ صُورَتِهِ ... عَبَثَ الفتورُ بِلَحْظِ مُقْلَتِهِ[1]
فَكَأَنَّ عَقْرَبَ صُدْغِهِ وقفتْ ... لَمَّا دَنَتْ مِن نَارِ وَجْنَتِهِ

وقال ابن الرُّومي:

أَبَدًا نَحْنُ فِي خِلَافٍ: فَنِّي ... فَرْطُ حُبٍّ ومنكَ لِي فَرْطُ بُغْضِ

مَهْلًا بَنِي رُومانَ بَعْضَ وَعِيدِكُم ... وإِيَاكُمُ والهُلْبَ مِنِّي عَضَارِطا
أَرِطُّوا فقد أَقْلَقْتُمُ حَلَقَاتِكُم ... عَسَى أَنْ تفوزوا أن تكونوا رَطَائِطَا

« يقول: قد اضطرب أمركم من باب الجدّ والعقل فتحامقوا عسى أن تفوزوا بجهلكم وحُمقكم وفي المثل (أَرِطِّي فإنَّ خيرك في الرَّطيط) يضرب للأحمق الذي لا يرزق إلا بالحمق فإن ذهب يتعاقل حُرِم والهلب جمع أهلب وهو الكثير شعَر الأنثيين، والعضرط: العِجان، أو الخط الذي من الذكر إلى الدبر ويقال إن الأهلب العضرط لا يطاق، وأرطُّوا: أحمقوا ورطائطا: حمقى وقوله: أقلقتم حلقاتكم: أي أفسدتم عليكم أمركم.

وقد استعمل الفرزدق حَلَقة في حَلْقة القوم قال:

يا أيُّها الجالس وَسْطَ الحَلَقَهْ ... أفي زِنًا قُطِعَتْ أمْ في سَرِقَهْ

وفي المثل (هُمْ كالحَلَقَةِ المُفْرَغَةِ لا يُدْرَى أيها طَرَفُها) يضرب مثلا للقوم إذا كانوا مجتمعين مُؤْتَلِفِينَ كَلِمَتُهُمْ وأيديهم واحدة لا يَطمع عدوُّهم فيهم ولا ينال منهم.

(١) الريم: الظبي الخالص البياض شبه صاحبه به.

فبصدغيك فوق خطّ عِذارٍ ظُلُماتٌ بعضُها فوق بعضِ[1]

وقال الصاحب بن عبّاد :

وعهدى بالعقارب حين تَشْتُو تُخَفِّفُ لَذْعَها وتُقِلُّ ضُرًّا
فما بالُ الشِّتاء أَتَى وهذا عَقارِبُ صُدْغِهِ يَزْدَدْنَ شَرًّا

وقال أبو الفتح كشاجم :

ومَنَعْنَ وَرْدَ خُدودِهِنَّ فَلَمْ نُطِقْ قَطْفًا لها لِعَقارِبِ الأصداغ

وقال الشاعر الأندلسى أبو الصلت أمية بن عبد العزيز :

دَبَّ العِذارُ بِخَدِّهِ ثم انثَنَى عَنْ لَثْمِ مَبْسِمِهِ البَرُودِ الأَشْنَبِ[2]
لا غَروَ أَنْ خَشِيَ الرَّدَى فى لَثْمِهِ فالرِّيق سُمٌّ قاتِلٌ لِلْعَقْرَبِ[3]

• الخدود والوجنات :

الخَدَّان من الوجه : جانباه ، وهما مِن لَدُنْ مَحْجِرِ العين إلَى اللَّحْيِ ، أو ما جاوَزَ مُؤْخِرَ العَيْنِ إلى مُنْتَهَى الشَّوْق من جانِبَى الوَجه ، والوجنتان : ما نَتَأ مِن لَحْمِ الخَدَّين ، وَيقال : وَجْنَةَ ووِجْنَة ووُجْنَة ووَجَنَة وأُجْنَة وإجْنَة وأَجْنَة . . .

والشُّعراء يشَبِّهونَ حُمرة الخَدّ بِحُمْرَة التُّفاح والوَرْد وحُمرةِ الخمر والجَمْر والدَّم ، ونحن نُورِد عليك بعض عبقرياتهم فى الخدود والوَجَنات .

---

(١) العذار فى الأصل : ما سال من اللجام على خد الفرس والمراد هنا : الخصلة من الشعر التى تحاذى الأذن فى الفتيان .

(٢) الشنب : ماء ورقة تجرى على الثغر مع برد وعذوبة فى الفم .

(٣) لا غرو لا عجب ، لما شبه عذاره — الشعر المتدلى على صدغه — بالعقرب فى الالتواء والانعطاف علل على سبيل التخييل البديع عدم دنو عذاره من فمه وبعده عنه بأنه يخشى الهلاك من ريقه لما زعموه أن الريق قاتل للعقرب .

قال ابن الرومىّ :

يا وَجْنَتَيْه اللتَيْنِ مِن بَهَج ... فى صُدْغَيْهِ اللَّذَيْنِ مِن دَعَج[1]
ما حُمْرَة فيكما : أمِن خَجَلٍ ... أَمْ صِبغَةُ الله ، أمْ دَمُ المهج ؟

وقال أيضا :

وغَزالٍ تَرَى عَلَى وَجْنَتَيْهِ ... قَطْرَ سَهْمَيْهِ مِن دِماه القلوب[2]
لَهْفَ نَفْسِى لِتِلْكَ مِنْ وَجَناتٍ ... وَرْدُها وَرْدُ شارقٍ مَهْضُوبِ[3]
أُنْهِلَتْ صِبْغَ نَفْسِها ثُمَّ عُلَّتْ ... مِن دِماه القَتْلَى بِغَيْرِ ذُنُوبِ
جَرَحَتْه العيونُ فاقتصَّ منها ... بِجَوَى فى القلوبِ دامِى النُّدُوبِ[4]

وقال أبو بكر بن دُريد : أنشدنى محمد بن يعقوب لنفسه :

يَصْفَرُّ لَونِى إذا تأمَّلَهُ ... طَرْفِى ويَحمرُّ خَدُّه خَجلا
حتَّى كأنَّ الذى بِوَجْنَتِه ... مِن دَم قلبى إليه قد نُقِلا

وقال الوأواو الدمشقى من شعراء اليتيمة :

لا تَظْلِمُوا الناسَ ولا تطلبُوا ... بِثارِى اليومَ أَذَى مُسْلِمِ
ويالقومى دونَكُمُ شادِناً ... مُعْتَدِلَ القامَةِ والمَبْسِمِ
فإنْ أَبَى إلاَّ جُحودَ الهَوَى ... وَاكْتَمَ الأَمْرَ ولم يُعْلِمِ
قُولوا له يَكْشِفُ عن خَدِّه ... فإنَّ فيه نُقَطاً مِن دَمِى

---

(١) الدعج هنا : السواد ، أى سواد صدغيه وهما — أى الصدغان — الخصل من الشعر المرسلة بين العين والأذن من الجانبين .

(٢) قطر سهميه فسهماه هنا : كناية عن عينيه فعيناه تقطر دماً تسرب إليهما من دماء قلوب محبيه .

(٣) مهضوب : ممطور يعنى ورد الشروق الذى بلله المطر .

(٤) الندوب : الجروح أو أثرها .

وقال أبو القاسم عبد الغفار المِصْرى أحد شعراء اليتيمَة :

وَرْدُ الخدود أرَقُّ من ... وَرْدِ الرِّياض وأنعمُ
هـــذا تَنَشَّقُهُ الأُنو ... فُ وذا يُقبِّلُهُ الفمُ
فإذا عَدَلْتَ فأفضَلُ ... الوَرْدَيْنِ وَرْدٌ يُلثَمُ

وقال ديكُ الجِنّ :

بأَبِي الثَّلاثُ الآنِسا ... تُ الرَّائِقاتُ الغانِياتْ
أَقْبَلْنَ ، وَالأَصْداغُ فى ... وَجَناتِهِنَّ مُعَقْرَباتْ (١)
أَلْفاظُهُنَّ مُؤَنَّثـــا ... تٌ والجُفُونُ مُذَكَّراتْ
حتى إذا عايَنْتَهُنَّ ... وللأُمور مُسَبِّباتْ
جَمَّشْتَهُنَّ وقلتَ طِيبُ ... عِناقِكُنَّ هو الحياةْ
فَخَجِلْنَ حتى خِلْتُ أَنَّ ... خُدودَهُنَّ مُعَصْفَراتْ (٢)

وقال ابنُ الرومِىّ :

تَشْرَعُ الأَلحاظُ فى وَجْنَتِها ... فَتُلاقِى الرَّىَّ مِنْ مَشْرَبِها
فَهِىَ حَسْبُ العَينِ مِن نُزْهَتِها ... وَهِىَ حَسْبُ الأُذْنِ مِن مَطْرَبِها

وقال ابنُ المُعْتَزّ :

نُجُلُ العُيونِ سَواحِرُ اللَّحَظاتِ ... هَيَّجْنَ مِنكَ سَواكِنَ الحَرَكاتِ
أَقْبَلْنَ يَرْمِينَ الجِمارَ تَنَسُّكا ... فَجَعَلْنَ قلبَكَ مَوضِعَ الجَمَراتِ
فَكَأَنَّهُنَّ غُصونُ بانٍ ناعِمٍ ... يَحْمِلْنَ تُفَّاحاً على الوَجَنات

---

(١) الأصداغ هنا : الشعر المرخى بين الأذن والعين وهى السوالف ومعقربات : ملوية كالعقرب . (٢) معصفرات : مصبوغة بالعصفر وهو صبغ أصفر اللون .

وقال بعض شعراء الأندلس :

مالي بجَور الحبيب مِن قِبَل ... هل حاكِمٌ عادِلٌ فيَحْكُمَ لِي
حُمْرَةُ خَدَّيْهِ مِن دَمِي صُبِغَتْ ... وَيَدَّعِي أنهـــا مِن الخَجَل

وقال تميم بن المعز لدين الله الفاطمي :

ناوَلتُها شِبهَ خَدَّيْهـــا مُعَتَّقَةً ... صِرْفا كأَنَّ سَناها ضوءُ مِقْياسِ
فَقَبَّلْتُهـــا وقالت وهي ضاحكةٌ ... فكيف تَهْدِي خُدودَ الناس للنَّاس
قلت: اشربي فهي من دَمْعي وحُمرَتُها ... دَمِي وطابِخُها في الكأس أنفاسِي
قالت فإن كنتَ مِن حُبي بكيتَ دَما ... فأَسْقِنيها على العينينِ والراسِ
يا ليلةً بات فيـه البدر مُعتَنِقِي ... وباتت الشمس فيها بعضَ خُلاَّس
وبتُّ مستغنِياً بالثغر عن قَدَح ... وبالخدودِ عن التفَّـــاح والآسِ

النحور والصدور :

النَّحر : مَوضع القِلادَة مِن الصدر ، ومِثْلُه : اللَّبَّة ، واللَّبَبُ ، والجمع : لَبَّات ، ولِبابٌ ، ومِثْلُها : التَّربية ، والجمع تَرائب ، قال عزَّ وَجلَّ (خُلِق من ماءٍ دافِقٍ يخرج مِن بين الصُّلْب والتَّرائب) وقال امرؤ القيس :

مُهَفْهَفَةٌ بَيضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ ... تَرائِبُها مَصقولَةٌ كالسَّجَنْجَلِ

« المهفهفة : اللطيفة الخصر الضامرَةُ البطن ، والمفاضة : العظيمه البطن المسترخيه اللحم ، والصقل : إزالة الصدأ والدَّنس ونحوهما ، والسجنجل : المرآة .

يقول امرؤ القيس : هي امرأة دقيقة الخصر ضامرَة البطن ، غير عظيمة البطن ولا مسترخيتُه ، وصدرُها صافٍ متلألئٌ تلألؤ المرآة » .

فكلٌ من النحر واللَّبَّة والتربية : موضع القلادَة من الصدر .

وقال الحماسيّ — وهو زياد بن مُنقِذ :

سُودٌ ذَوَائِبُها بِيضٌ تَرَائِبُها دُرْمٌ مَرافِقُها فى خَلْقِها عَمَمُ

« سود ذوائبها : يقول : إن شعرها أسود ، لأنها شابّة ، أما قوله درم مرافقها فانه يقال : مرفقَ أدْرَم : إذا لم يكن له حجم لاكتنازه باللحم ، أى أن مرافقها ممتلئه لحما وفى خلقها عمَم : أى طول أو تمام وكمال » .

وقال الأعشى :

عَهْدِى بها فِى الحَىِّ قد سُربِلَت هيفاء مثـــلَ المُهْرَةِ الضَّامِرِ
قد حَجَمَ الثَّـدْىُ على صَدْرِها فى مُشْرِقٍ ذى بَهْجَـــةٍ ناضِرِ
يَشْفِى غليـلَ الصَّدْرِ لاهٍ بها حوراء تُصْـــبِى نَظَرَ الناظِرِ
لَيْسَتْ بِسَـــواء ولا عِنْفِصٍ تُسارِقُ الطَّرْفَ إلى الذَّاعِـرِ
عبهَـــرَةُ الخَلْقِ لُباخِيَّـــةٌ تَزِينُـــهُ بالخُلُقِ الطاهِـــرِ
لو أسنـدت مَيْتاً إلى نَحْرِها عاشَ ولم يُنقَـــلْ إلى قابِرِ
حتى يَقولَ الناس ممـــا رأَوا يا عَجَبـــاً للميت النـــاشِرِ

« حَجَم الثّدْى يَحجُم حجُوماً : بدا ونَهَدَ ، والعِنفِص : المرأة الذاعر : الفاجرة الفاسقة ، وعبهرة الخلق : حسنةُ الخلق ، ولباخيّة : كثيرة اللحم ضخمه باطن الفخذَين ، والناشر : من نَشَرَ الميّتُ : حيى ، يقال : نشر الله الميت ينشرُه نَشْراً ونُشوراً ، وأنشره أحْياه ، فَنَشَرَ الميت ، لا غير » .

وقال ابن المعتز :

وذاتِ دَلالٍ سَبَتْ مُهْجَتِى بِمُسْتَشْرِفَيْنِ عـــلى مَرْمَرِ
كأَنَّ العُقودَ عـــلى نَحْرِها نُجومٌ نَظَرْنَ إلى المُشْتَرِى

وقبله قال الحارث بن خالد المخزومى :

كأنَّما الحُلْىُ على نَحْرِها نُجومُ فَجْرٍ ساطِعٍ أَبْلَجِ

وقال العَبَّاس بن الحسين بن عُبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب — وكان هذا العباسى من شُعراء بنى هاشم وهو يعدُّ فى طبقة ابراهيم بن المهدى :

أتاحَ لكَ الهَوَى بِيضٌ حسانٌ سَبَيْنَكَ بالعُيونِ وبالشُّعورِ(١)

نَظَرْتَ إلى النُّحورِ فكِدْتَ تَقْضِى وأَوْلَى لَوْ نَظَرْتَ إلى الخُصُورِ(٢)

وَهُم يَصفون النحور أحيانا بالصُّفْرَة ، وإنما ذلك لصفْرة الطيب — الخَلُوق والزعفران ونحوهما — وقد يكون ذلك لصُفرة الحُلِى المُذْهب ، قال بشار بن بُرد :

وَصَفْراء مِثل الزعفران شَرِبْتُها عَلَى صَوتِ صفراء الترائبِ رُودِ(٣)

حَسَدْتُ عليها كُلَّ شىء يَمَسُّها وما كنتُ لولا حُبُّها بِحَسُودِ

وقبله قال الحسين بن مطير :

وصُفْرٍ تَرَاقِيها وحُمْرٍ أَكُفُّها وَسُودٍ نواصِيها وبِيضٍ خُدُودُها

وهذا البيت من أبيات غَزَلِيَّة جميلة ، يقول فيها :

لقد كُنتُ جَلْدًا قبلَ أَن تُوقِدَ النَّوَى عَلَى كبدى ناراً بطيئاً خُمُودُها

ولو تُرِكَت نارُ الهَوَى لَتَضَرَّمَتْ ولكنَّ شَوقاً كُلَّ يَومٍ يَزِيدُها(٤)

---

(١) سبينك : سباه : فتنه وأسره بحبه .

(٢) تقضى : تموت .

(٣) على صوت صفراء الترائب يروى : على نحر صفراء الترائب ، والرود :

(٤) لتضرمت يروى لتصرمت قال البكرى فى شرحه للأمالى : فمن رواه بالضاد المعجمة فمعناه : لو تركت لم تزل متضرمة متصلة الوُقود فكيف بزيادتها ضِراماً كل

وقد كنتُ أرجُو أن تَموت صبابَتى ... إذا قَدُمَت أيامُها وعهـــودُها
فقد جعلَتْ فى حَبَّـةِ القلب والحَشَا ... عِهادُ الهَوَى تُولِى بشوق يُعيدُها(١)
لَمُرْنَجَّةِ الأطْرافِ هِيفٍ خُصُورُها ... عِذابٍ ثناياها عجافٍ قُيودُها(٢)
وصُفْرٍ تَراقيها . . . . . البيت
مُخَصَّرَةِ الأوساطِ زانَت عُقودها ... بأحْسَنَ ممـــا زَيَّنَتْها عقُودُها
يَمَنَّيْنَنَا حتى تَرِفَّ قـــلوبُنا ... رَفِيفَ الخُزامَى باتَ طَلٌّ يَجُودُها(٣)

الأُنوف :

هُمُ يَصِفُونَ الأنفَ بالشَّمَمِ ، قال الجوهرى : الشَّمَم : ارتفاعٌ فى قَصَبَةِ الأنفِ مع استِواء أعلاه وإشرافِ الأرْنَبَةِ قليلا ، فإن كانَ فيهـا احْدِيداب فهُوَ القَنَا ؛ والشَّمَمُ فِى صِفاتِ الجَمال وعنوانُ السُّؤدَد وفى الرجال ، قال حَسّانُ ابن ثابت :

=يوم ، ومن رواه بصاد مهملة فمعناه : لو تركت لحدت وهمدت ولـكنها تُذْكى كل يوم ، وهما مذهبان للشعراء والأول أبلغ .

(١) تولى بشوق يُعيدها تروى يُولَى بشوق بعيدها أى يولَى بَعيدُها بشوق ، والعهاد جمع عهد وهو المطر الأول .

(٢) قيودها أى قيود الثنايا وهى اللثات والعمور .

(٣) قال البكرى : قال ابن الأعرابى : ترفُّ قلوبنا أى تَبْرُق ، قال البكرى : وليس للبريق هنا معنى ، وبَريق القلب شىء غير معروف ولا محسوس ولا مَرْئىّ ، وإنما ترفُّ هنا : تتحرك ثِقَةً بنيل المنى منهن حركة اختلاج لا حركة خفقان ، لأن الخفقان إنما يكون من الذعر وشبه الشاعر تلك الحركة بحركة الخزامى — نبت زهرة من أطيب الأزهار — إذا ثَقُلت بالطَّلّ ، وهى حركة ضعيفة : أصابه بالجود وهو المطر الغزير والطل : المطر الضعيف أو الندى والجوْد فى الأصل : المطر الغزير ولـكن المراد هنا : بات المطر يصيبها .

بِيضُ الوُجوهِ كريمَةٌ أحْسابُهم شُمُّ الأُنوفِ مِن الطِّرازِ الأوَّلِ

وقال : كعب بن زُهَير يمدح المهاجرين من أصحاب سيدنا رسول الله — من قصيدته بانت سعاد :

شُمُّ العَرانين أبطالٌ لَبُوسُهُمُ مِن نَسْجِ داود فى الهَيْجَا سَرَابِيلُ(١)

« العرانين : الأنوف ، وشُمّ العَرانين : كناية عن الرِّفعة والعُلُوّ وشرَف النفس » .

وقال الفرزدق من أبيات مشهورة فى على بن الحسين المعروف بزين العابدين وقد عزاها أبو تمّام فى حماسته للمَزِين الليثى :

فى كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهَا عَبِقٌ مِن كَفِّ أَرْوَعَ فى عِرْنِينِهِ شَمَمُ(٢)

ومن أوصاف الأنف الذَّلَف — بالذال المعجمة — قال الجوهري : هو صِغَر الأنف واستواء الأَرْنَبَةِ ، وهو مما يُستَحْسَنُ عند بعضهم ، قال أبو النَّجم :

لِلَّثْمِ عِنـــدِى بَهجَةٌ ومَزِيَّةٌ وأُحِبُّ بَعضَ مَلاحَةِ الذَّلْفاء

ومِنه سُمِّيت امرأةٌ قال الشاعر :

إنَّمـــا الذَّلفاءُ يا قُوتَةُ أُخرِجَت مِن كيس دِهقان

ومن صفات الأنف المَعيبَه : الخَنَس ، وهو قِصَرُ الأنف وارْتِفاعٌ يَسِيرٌ فى الأرنبة ، كأُنوف الظِّباء والبقر .

---

(١) أبطال : شجعان ، وقوله : لبوسهم الخ يقول : انهم يلبسون فى الهيجا : أى الحرب الدروع المنيعة المتقنة الصنع لأنه جعلها من نسج داود عليه السلام الذى ألان الله له الحديد وعلمه صنعة الدروع ، يصف المهاجرين بأنهم ذوو رفعة وعلو مقدار وأنهم فى الحرب فى غاية من الشجاعة ومنعة من السلاح .

(٢) الخيزران هنا المِخْصَرَة التى يمسكها الملوك بأيديهم يشيرون بها ويتعبّثون ، والأروع : الرجل الكريم ذو الجسم والجهارَة والفضل والسؤدد ، وهو أيضاً الجميل الذى يروعك حسنه ويعجبك إذا رأيته .

وحكى الأصمعى قال : كنتُ عند الرشيد يوما إذْ دَخَلَ عليه رَجُلٌ بجارِيَةٍ يريد بيعَها ، فتأمَّلها الرشيد ، ثم قال : خُذْ جاريتك ، فلولا خَنَسٌ بأنفِها ، وَكَلَفٌ بوَجهها[1] لاشْتَرَيْتُها ، فانطلق الرجل بها ، فلمَّا بلَغَتِ الباب طلَبَت الرجوع ، فأمر الرشيد بِرَدِّها ، فأنْشَدَته :

ما سَلِمَ الظَّبيُ على حُسْنِه ... كَلاَّ ولا البدرُ الذى يُوصَفُ

الظَّبْيُ فيـــه خَنَسٌ بَيِّنٌ ... والبدْرُ فيه كَلَفٌ يُعْرَفُ

فأعجبته بلاغَتُها واشتراها ، فكانت أَحْظى جواريه عنده .

ومِن معايب الأنف : القَمَع ، وهو اعوجاجٌ فى الأنف ؛ ومنها الفَطَسُ ، وهو انخفاضُ قَصَبةِ الأنف وانفراشها ؛ ومنها الكَزَم ، وهو قِصَر فى الأنف قبيح واتساعُ خُرْقَيه كأُنوفِ السُّودان .

ومِن معايب الأنف ضَخامَتُه وكِبَرُه .

قال صاحب الأغانى : كانت رَمْلَةُ بنت عبد الله بن خَلَف جميلَةَ حَسَنَةَ الجِسْمِ ، وكانَ أَنْفُها عظيما ، فكانَ ذلك يَعيبُها ، وَتَزَوَّجها عُمَر بن عُبيد الله ابن مَعْمَر ، وكانت عنده عائشَةُ بنتُ طلحة — تزوجها بعد قتل مصعب ابن الزبير — فقال يوما لعائشة : فَعَلْتُ يومَ أَبى فُدَيْكٍ[2] كذا ، وفَعَلت يوم سجستانَ كذا ، وأَقْبَلَ يُعَدِّد أَيَّامَ حروبه ، فقالت له عائشة : أنا أَعْلَمُ أنك أَشْجَعُ الناس ، وأَعْرِفُ لَكَ يوما كُنْتَ فِيهِ أَشجَعَ منك فى جميع الأيام التى ذَكَرْتَ ، قال : وما هو ؟ قالَتَ : يَومَ اجتلَبْتَ رَمْلَةَ وَأَقدَمْت على أَنفِها . . .

---

(١) الكلف : شىء يعلو الوجه كالسمسم ، وهو الذى يسمى « النَّمَش » .

(٢) أبو فديك : أحد الخوارج .

الأعناق :

العُنُق يقال له : الجِيدُ ، والتليل ، قال لبيد تتقيني بتليلِ ذِي خُصَلْ أى بعُنُقٍ ذِي خُصَلٍ من الشعَر ، وجمع التليل : أَتِلَّة ، وتُلُل ، وتَلائِلَ ؛ ويقال له : الهَادِى ، قال المُفَضَّل النُّكْرِى :

جَمومُ الشَّـــدِّ شائِلَةُ الذُّنابَى وهادِيها كأَنَّ جِذْعٌ سَحوقُ(١)

وجَمْع الهادِى : هوادى ، وسُمِّى العنق هادِيا لتقَدُّمِه على البَدَن ولأنَّها تَهْدِى الجسد ؛ ويقال للعنق : الكَرْد ، قال الفرزدق :

وكُنَّا إذا القَيْسِىُّ نَبَّ عَتُودُه ضَرَبناه بين الأُنْثَيَيْنِ على الكَرْدِ

العَتودُ : ما اشتَدَّ وَقَوِى من ذكور أولاد المعز ، ونبيبه : صوته عند الهياج ، وأراد بالأُنْثَيَيْنِ ههنا : الأذُنَين ، والكَرد هنا : أصل العُنق أو مَجْمَع الرأس على العنق ، قالوا : أنه فارسي معرب .

هذا ، وقد قالوا : إنَّ الجِيدَ لم تستعمِله العَرب إلاَّ فى المَدح ، فلا يقولون : جِيدٌ قبيح ، ولا جَعلتُ الغُلَّ — القَيد — فى جِيدِهِ ، أمَّا قوله عَزَّ وَجَلَّ : فى جِيدِها حَبلٌ من مَسَد ، فهو من قبيل قوله سبحانه (فَبَشِّرهم بعذاب أليم) وقول الشاعر تحيَّةُ بَيْنِهم ضربٌ وجِيعُ » .

ومن أوصاف الأعناق المستحسنة : التَّلَع ، وهو إشْرافُ العُنُق وانتصابُها ، وعُنُقٌ تَلِيعٌ وأتلع : أى طويل ، وامرأةٌ تلعاء ، قال الأعشى :

يومَ تُبْدِى لنـــا قُتَيْلَةُ عن جِيـــــدٍ تَلِيعٍ تَزِينُـــــه الأطواقُ

(١) فرس جموم : إذا ذهب منه إحضار — جَرْى — جاءه إحضار ، والشد : الجَرْى وشائلة الذنابى : أى أنها ترفع ذنبها فى العَدْو — الجَرْى — والجذع : ساق النخلة ، ونخلة سحوق : طويلة .

ومِن محاسن العُنق أيضا : السَّطَع ، وهو طُول العنق ، وفى حديث أُم مَعْبد فى وصف سيدنا رسول الله : وكانَ فى عُنقِه سَطَع ، أى طول وانتصاب ، ومن المحاسن : الجَيَد ، وهو قريب من السَّطع ، يقال : رَجُلٌ أَجْيَدُ وامرأةٌ جَيْداء ، قال قيس بن الخطيم :

حوراءُ جَيداءُ يستضاءُ بِهـــا كأَنَّها عُـــودُ بانَةٍ قَصِفُ[1]

وقال أيضاً قَيْسُ بنُ الخطيم :

وجيدٍ كَجِيدِ الرِّيم صافٍ يَزينُه وتَوقُدُ ياقُوتٍ وفَصْلُ زَبَرْجَدِ
كأَنَّ الثُّرَيَّا فَوقَ ثُغْرَةِ نَحْرِها تَوَقَّدُ فى الظَّلْماء أى تَوَقُّدِ

وقال دِعْبل :

أَتاحَ لكَ الهَوَى بِيضٌ حِسانٌ سَلَبْنَكَ بالعُيونِ وبالنُّحورِ
نَظَرْتَ إلى النُّحورِ فكِدْتَ تَقْضِى فأَوْلَى لو نَظَرْتَ إلى الخُصورِ

وقال الشَّمَرْدَلُ بنُ شُرَيْك بن عبد الله أَحَدُ بَنِى ثَعْلَبَةَ بن يربوع — شاعر إسلامى كانَ معاصِراً لِجَرير والفرزدق :

يُشَبِّهُونَ مُلوكاً فى تَجِلَّتِهِم وَطُولِ أَنْضِيَةِ الأعناق والأُمَمِ
إذا غَدَا المِسْكُ يَجْرِى فى مفارِقِهِم راحُوا كأَنَّهُمُ مَرْضَى مِن الكَرَمِ

« التَّجِلَّة : الجلالة والعظَمَة ، والأنضيَّة جمع نِضِىٍّ وهو هُنَا : ما بين الرأس والكاهل مِنَ العُنُق ، والأُمَم جمع أُمَّة وهى : القامة ، يقال : فلانٌ حَسَنُ الأُمَّة ، أى القامَةِ ، ومعنى البيت الثانى أنّ الممدوحَ شَديدُ الحياء والحلم لرِقَّةِ شمائله ، حتى لكأن الحياء مِن

---

(١) قصف (بكسر الصاد) مِن قَصِف العود كَطرب فهو قَصِف : إذا كان خَوَّاراً ضعيفاً لا شِدَّة فيه .

إماتته نفسَ هذا الممدوح وإزالته الأشرَ عنه قد غادره سقيما ، وهذا كقول الآخر :

تَخَالُهُمْ لِلْحِلْمِ صُمًّا عَنِ الخَنَا ... وخُرْسًا عن الفحشاءِ عند التَّهاتُرِ

ومَرْضى إذا لاقَوْا حياءً وعِفَّةً ... وعِندَ الحُروبِ كالأُيُوثِ الخوادِرِ

وقال التبريزى : يَصِفُهم بالحياء والوقار عند استعمال الطيب والعقود فى مجالس الأُنْسِ ، يَدُلُّ على ذلك قوله « إذا غدا المسك » وإن لم يُصَرح به ، لأنه على ذلك رَسْمُ الاصطباح وعادَةُ الملوكِ فى الشُّرْبِ عند الاجتماع » .

وَطُولُ العُنُقِ مما يُسْتَحْسَنُ ، ما لم يُفْرِطْ ، فإذا أَفْرَطَ آضَ ذَمًّا ، وكانَ واصِلُ بنُ عَطاءٍ أحد شيوخ المعتزِلة يُعابُ بِطُولِ عُنُقِهِ وقد هجاهُ بَشارُ بنُ بُرْد بذلك إذ يقول :

ما لِي أُشايِعُ غزَّالاً لَهُ عُنُقٌ ... كَعُنْقِ الدَّوِّ إنْ وَلَّى وإنْ مَثَلاَ (١)

عُنْقَ الزَّرافَةِ ما بالِي وَبالَكُمُ ... تُكَفِّرونَ رِجالاً كَفَّرُوا رَجُلاَ (٢)

وقال امرؤُ القيس :

تَصُدُّ وتُبْدِى عَن أَسِيلٍ وتَتَّقِى ... بناظِرَةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ

وجِيدٍ كجِيدِ الرِّيمِ ليس بِفاحِشٍ ... إذا هى نَصَّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ

« وَجْرَة : موضع ، ومطفل : لها أطفال ، والريم : الظبى الأبيض الخالص البياض ، والفاحش : ما جاوَزَ المقدار المحمود ، ونَصَّته : رفَعَتْهُ ، ومنه سمى ما تُحلى عليه العروس « مِنَصَّة » يقول امرؤ القيس : إن هـذه الجيدة تُعْرِض عنا فتظهر فى إعراضها خَدًّا

---

(١) عُرف واصل بن عطاء بالغزَّال لكثرة جلوسه فى سُوق الغزَّالين إلى أبى عبد الله مَولى قطن الهلالى ، والعنق : الظليم وهو ذَكَر النعام ، والدَوِّ : الفلاة .

(٢) تكفرون : تنسبونه إلى الكفر ، وكان بشار يدين بالرجعة — أى الايمان بالرجوع بعد الموت إلى الدنيا — فأخذ واصل يكثر من الإنكار على بشار والتشنيع عليه فبلغ بشاراً ذلك فقال هذين البيتين وغيرهما يهجو واصلا وعنق الزرافة بالنصب على النداء .

أسيلا — طويلا سَهْلا لَيِّنًا غيرَ مرتفع الوجْنَة — وتجعل بيننا وبينها عَيناً ناظِرَةً مثلَ عيون ظِباءِ وَجْرَة تلك التى لها أطفال ، وإنما خصَّهُنَّ بذلك لنظرهِنَّ إلى أولادِهِنَّ بالحُنُو والعطف والشفقة ، وهى أحسن عيوناً فى تلك الحال منهن فى سائرِ أحْوالهِنَّ ، ثم قال فى البيت الثانى : وهى لذلك تُبْدِى عن عنق كعنق الظبى غيرَ متجاوزٍ قدرَه المحمود إذا ما رفعَت عنُقَها ، وهو غير مُعَطَّل عن الحلى ، شَبَّهَ عنُقَها بعنُقِ الظبية فى حالِ رفعِها عُنُقَها ، ثم قال : إنه لا يشبه عنقَ الظبية فى التعطل عن الحلِىّ » .

وقال ذو الرمَّة :

لَها جِيدُ أُمِّ الخِشْفِ رِيعَتْ فأَتْلَعَتْ ... وَوَجْهٌ كمِثْلِ الصُّبْحِ رَيَّانُ مُشْرِقُ

وعَينٌ كَعَيْنِ الرِّيمِ فيها مَلاحَةٌ ... هى السِّحْرُ أَوْ أَدْنَى التِباساً وأَعْلَقُ

وقال العَرْجِى :

تُرِيكَ وَجْهاً فَوْقَ جِيدٍ لها ... مثلَ رُخامِ المَرْمَرِ المُدْمَجِ

كأَنَّما الحَلْىُ على نَحْرِها ... نُجومُ فَجْرٍ ساطِعٍ أَبْلَجِ

وقال جَميل بثينَة يخاطِبُ ظَبيَةً :

فَعَيْنَاكِ عيناها وجِيدُكِ جِيدُها ... سِوى أَنَّ عَظْمَ الساقِ منكِ دَقِيقُ

وقال اخر :

وَهْىَ هَيفاءُ هَضِيمٌ كَشْحُها ... ضَخْمَةٌ حَيثُ تَشُدُّ المُؤْتَزَرْ (١)

صَلْتَةُ الخَدِّ طَويلٌ جِيدُها ... ضَخْمَةُ الثَّدْىِ ولَمَّا يَنْكَسِرْ (٢)

---

(١) هيفاء : رقيقة الخصر ضامِرة البطن ، والهضم : خَمصُ البطون ولطف الكَشْح — الكشح : الخصْر — والمؤتزر : موضع الازار ، وهو الرِّدف والعجيزة ، يصفها بأنها ضخمة الردف كبيرته .

(٢) صلتة الخد : خدّها أملس واضح .

ومن معايب العنق : الوَقَصُ ، وهو قِصَرُ العنق ، يقال : امرأةٌ وَقْصاء ، ورجل أوقَصُ ، ومن المعايب . الهَنَعُ ، وهو تَطامُن والتواء فى العُنق ، يقال : امرأة هَنعاءُ ، ورَجُلٌ أهْنَع ، ومنها : الصَّعَر ، وهو مَيْلٌ فى العُنُق وانقلاب: فى الوَجْه إلى أحَدِ الشِّقَّين ، ومن ذلك قولهم : فلانٌ صَعَّرَ خَدَّهُ . إذا أَمالَهُ: مِن الكِبْر ، قال عزَّ وجَلَّ (ولا تُصَعِّرْ خَدَّك للناس) أى لا تُعْرِض عن الناس تكبُّرًا ، وقال المتلمِّس :

وَكُنَّا إذا الجَبّارُ صَعَّرَ خَدَّه أقَمْنا له مِنْ دَرْئِهِ فتَقَوَّما

« الدَّرْءُ : العِوَج يقال : أقَمْتُ دَرْءَ فُلان ، أى اعْوِجاجَه يقول المتلمس : إذا أمالَ متكبر خَدَّه أذللناه حتى يتقوَّم ميلُه » .

وأصل الصَّعَر : مَرَضٌ يُصيبُ الإبِلَ فيَلْوِى عُنُقَها .

ومِن معايب العنق : الغَلَب ، وهو غِلَظُ العنق مع قِصَرٍ فيها ، يقال : رَجل أغْلَب وامرأةٌ غَلْباء ، وقد يُستعمل هـــذا الحرف فى غير الحيوان كقولهم : حديقةٌ غلباء : أى عظيمة متكاثفة ملتفَّة ، وهم يصفُونَ أبَدًا السادَةَ بغلظ الرقبَةِ وطُولِها ، قالوا : ومَن كانَ أغْلَبَ لم يستطع أنْ يلتفِتَ إلاَّ بعُنُقِه كُلِّها .

المعاصم والأعضاد :

العَضُد : الساعِدُ وهُوَ ما بيْنَ المِرفَق إلى الكَتِف .

والمِعْصَم : مَوْضِعُ السِّوار مِنَ اليَدِ ، قال :

اليومَ عندَكَ دلُّها وحَدِيثُها وغدًا لِغَيْرِكَ كفُّها والمِعْصَمُ

وقد يُطْلَقُ المعصم ويُرادُ به الذِّراع نفْسُها ، قال الأعْشى .

فأَرَتْكَ كفًّا فى الخِضَا ب ومِعْصَما مِثْلَ الجِبارة

« الجِبَارَة واحِدَة الجبَائِر ، وهى : الأُسْوِرَةُ مِنَ الذهَبَ والفِضَّة » .

ويقال : مِعْصَمٌ خَدْلٌ : أى ممتلِىء رَيَّان ، كما يُقال : ساقٌ خَدْلَة : أى ممتلِئَةٌ ، ويقال : مِعْصَمٌ غَيْلٌ : أَىْ رَيَّانٌ ممتلِىء ؛ وكذلك : ساعِدٌ غَيْل ، وغلامٌ غَيْل : أى عظيمٌ سَمِين ، وامرأةٌ غَيْلة : عظيمةٌ سمينة .

وقال أبو المِخَشّ الأعرابىّ : كانت لِىَ ابنةٌ تجلِسُ مَعِى على المائدَة فَتُبْرِزُ كَفًّا كأنَّها طَلْعَة(١) فى ذِراعٍ كأنها جُمَّارَة(٢) فلا تقعُ عينُها على أُكْلَةٍ نَفِيسَة إلا خصَّتْنِى بها ، فزوَّجْتُها ، وصار يَجْلِسُ مَعِى المائدة ابنٌ لى فَيُبْرِزُ كَفًا كأنها كِرْنَافَة(٣) فى ذِرَاعٍ كأنها كَرَبة(٤) فوالله ، إنْ تَسْبِقْ عَيْنِى إلى لُقْمَةٍ طَيِّبَةٍ إلا سبَقَتْ يَدُهُ إليها .

« وتشبيه مِعْصَمِها بالجمَّارة لما فيهما مِنَ البياض والبَضَاضَة والفَضَاضة ، قال أبو حنيفة الدِّينَوَرِى : وربَّما شبَّهُوا بها المرأة فقالوا كأنها جُمَّارَة ، لأجْل ذلك » .

وقال أبو حَيَّةَ النُّمَيْرِى :

رَمَتْهُ أَناةٌ مِنْ ربيـــعَةِ عامِرٍ نُؤُومِ الضُّحَى فى مأْتَمٍ أَىَّ مأْتَمِ(٥)

---

(١) طلعة « بفتح فسكون » وجمعها طلع وهو نَور النخلة مادام فى الكافور وهو — أى الكافور — وعاؤه الذى ينشق عنه .

(٢) الجمارة : شحمة النخلة التى إذا قطعت قمة رأسها ظهرت كأنها قطعة سنام — سنام البعير — وجمعها جمار .

(٣ و ٤) الكربة واحدة الكرب : وهى أصول السعف الغلاظ العراض التى تيبس قتصير كالكتف ، والكرنافة طرفها العريض .

(٥) قال الأصمعى : الأناة من النساء : التى فيها فتور عند القيام وتأن وقال غيره : =

جاء كخوط البان لا مُتتابِعٌ ... ولكنْ بسيما ذى وَقارٍ ومِيْسَمِ (١)

فقُلْنا لها سِرًّا : فدِيناكِ لا يرُحْ ... صحيحاً وإنْ لم تقتُليه فأَلْمِمِى (٢)

فألقتْ قِناعاً دونَهُ الشَّمْسُ واتَّقتْ ... بأحْسَنِ موصولَيْنِ كَفٍّ ومِعْصَمِ (٣)

وقالت فلمَّا أفْرَغَتْ فى فؤادِهِ ... وَعَيْنَيْهِ منها السِّحْرَ قُلْنَ لَهُ قُمِ (٤)

فَوَدَّ بِجدْعِ الأنْفِ لَوْ أنَّ صَحْبَهُ ... تَنادَوْا وقالوا فى المُناخِ لَهُ نَمِ (٥)

=امرأة أناة : رزينة لا تصخب ولا تفحش ، والمآتم عند العرب : النساء يجتمعن فى الخير والشر ، وهو هنا مقام فرح ، ونؤم الضحى . كناية عن نعمتها ورفاهتها وأنها مخدومة مكفيّة المؤنة .

(١) الخوط : الغصن : يشبه به الشاب الناعم التام الخلق وقوله : لا متتابع أى لا هو متتابع : الذى يتهافت على أمر ليس بالمحمود يقال : تتابعوا فى الشر : إذا تهافتوا وسارعوا إليه ، والميسم : الحسن والوسامة ، يقول : إنه جاء كغصن البان غير مسرع فى مشيه ولكن جاء بهيئة ذى وقار ووسامة .

(٢) يقول : فقلنا لها فى السر جعلنا فداك ، لا تتركيه يرجع صحيحاً ، بل إما أن تقتليه وإما أن تفعلى به ما هو دون القتل ، فألمى : أى قارِبى .

(٣) يقول : فألقت قناعاً وراءه الشمس — يعنى وجهها — ثم سترته بمعصمها وكفها الجميلين .

(٤) يقول : فلما صبت فى قلبه وعينيه السحر وسحرته بجمالها قالت لضويحباتها : قلن له : قم الآن بوجد شديد وحسرة دائمة .

(٥) المناخ هنا : المقام ، وهو فى الأصل : ما تناخ — تبرك — فيه الإبل يقول : فود لو أن أصحابه يقولون له جميعاً بعد أن يدعو بعضهم بعضاً : نم فى مقامك ولا تسر معنا ويقطع أنفه .

فَرَاحَ وما يَدْرِى أَفِى اساعَةِ الضُّحَى تَرَوَّحَ أَمْ دَاجٍ مِنَ الليلِ مُظْلِمِ (١)

وإليك أبياتاً لعُمَرَ بن أبى ربيعة يَصِفُ فيها المعاصم والأعناق :

نَظَرْتُ إليها بالمحصَّبِ مِنْ مِنًى وِلِى نَظَرٌ لولا التحرُّجُ عارِمُ (٢)

فقلتُ : أَشَمْسٌ أَمْ مَصَابِيحُ بِيعَةٍ بدَتْ لَكَ خلفَ السَّجْفِ أَمْ أَنتِ حالِمُ

بعيدَةُ مهوَى القُرْطِ إمَّا لنوفَلٍ أَبُوها وإمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وهاشِمُ (٣)

ومَدَّ عليها السَّجْفَ يَوْمَ لَقيتُها على عَجَلٍ تُبَّاعُها والخـــوارِمُ

فلَم أَسْتَطِعْها غيرَ أَنْ قَدْ بَدَا لنا عَشِيَّةً رَاحَتْ وجْهُها والمعاصِمُ

مَعاصِمُ لم تَضْرِبْ على البَهْمِ بالضُّحَى عَصاها ووجْهٌ لَمْ تَلَحْهُ السَّمائِمُ (٤)

نُضارٌ ترى فـــيه أَساريعَ مائِهِ صَبِيحٌ تُغَادِيهِ الأَكُفُّ النَّواعِمُ (٥)

إذا ما دَعَتْ أَترابَها فاكْتَنَفْنَها تَمايَلْنَ أو مالَتْ بهِنَّ المآكِمُ (٦)

طَلَبْنَ الصِّبا حتى إذا ما أَصَبْنَهُ نَزَعْنَ وهُنَّ المسلِماتُ الظَّوالِمُ

---

(١) يقول انه ما كان يريد أن يسير لـكنه اضطر إلى ذلك فراح وهو لا يدرى أيسير نهاراً أم ليلا لفرط ما أصابه من الهيام أو لغزارة دموعه التى ملأت عينيه فصار لا يبصر . (٢) عارم : حاد .

(٣) بعيدة مهوى القرط كناية عن طول العنق .

(٤) البهم : الصغار من أولاد الضأن والمعز والبقر يقول : إن معاصمها ليست معاصم خشنة شثنة كما هو حال معاصم راعيات الغنم بل هى معاصم خدلة ريانة بضة غضة كما هو الشأن فى معاصم الشريفات المخدرات ، والسمائم جمع سموم وهى الريح الحارة ولاحته السمائم : غيرته وسفعت وجهه .

(٥) أساريع : الماء : طرائقه ، والمراد أنه يترقرق فيه ماء الشباب .

(٦) المآكم : جمع مأكمة وهى الردف والعجيزة .

الفرج والأرداف — الفرج فى اللغة :

من أسماء فرج المرأة : الحِرُّ ، والجمع أحْرَاحٌ ، قال :

إنِّى أقودُ جَمَلاً مِمراحا ذا قَبَةٍ مُوَقرةٍ أحْرَاحا

ومن أسمائه : الرَّكَبُ [١] ، قال الخليل : هو للمرأة خاصة ، وقال الفرّاء : هو للرجل والمرأة ، أى أنه يقال لقُبُل الرجل : رَكَبٌ ، وأنشد الفراء :

لا يُقْنِعُ الجارِيَةَ الخِضَابُ ولا الوِشاحَانِ ولا الجِلْبَابُ

مِن دُونِ أن تَلْتَقِىَ الأركابُ ويقعُـــدَ الأيرُ لَهُ لُعَابُ

ومن أسمائه : الهَنُ ، ويقال : الهَنُّ ، ومنها الشَّكْرُ ، وأنشدوا :

صَنَاعٌ بإشْفَاهَا حَصَانٌ بشَكْرِهَا جَوادٌ بقُوتِ البطْنِ والعِرضُ وافِرُ

« صَنَاعٌ بإشفاها يريد : عينَها ، أى أنَّها تصنَعُ فى القلوب بلحظِها صَنيعَ الإشْفَى — وهو — أى الإشفى — مِثْقَبٌ أو مِخْرَزُ الأسَاكِفَة — وقوله : جواد بقوت البطنِ يعنى : الحديث ، وهو قُوتُ بطنِ الكريم كما قال :

* أُحَدِّثُهُ إنَّ الحديثَ مِنَ القِرَى * ومن أسمائه : القُبُل ، والسَّوْأة ، قال تعالى : (فبدَتْ لهما سَوْآتُهما) » .

هذا وشُفْرُ الفرج : حَرْفُه ، وفيه الإسْكَتَانِ ، قال صاحب اللسان : الإسْكَتَانُ [٢] : شُفْرُ الرَّحِمِ ، وقيل : جانباه مما يلى شُفْرَيْهِ ، قال جرير :

بِهَـــا وضَحٌ بأسْفَلِ إسْكَتَيْها كعَنْفَقَةِ الفرزدَقِ حينَ شَابَا [٣]

---

(١) وقيل : الركب : هو موضع مَنْبِتُ العانة .

(٢) اختلف اللغويون : هل الاسكتان مفرد أو مثنى ؟ انظر المخصص واللسان والأظهر أنهما مثنى والمفرد : إسك .

(٣) وضح يروى : برص والوضح معناه البرص ، والعنفقة : شعرات بين الشفة السفلى والذقن . . .

ويقال للإنسان إذا وُصِفَ بالنَّتْن : إنما هو إسْكُ أَمَة ، والبَظْرُ : ما تقطَعُهُ الخاتنَة من الجارية — الفتاة — : ما بين الإسْكَتَيْن . ويقال : البَظْر ، والبُنْظُر ، والبَيْظَر .

***

وفى الفرْجِ الرحِمُ ، وفى الرحِمِ حلقتان : إحداهما التى على فَمِ الفَرْج عند طرفه ، والأخرى التى تنضَم على الماء — ماء الرجُلِ — وتنفتح للحيض وما بينهما : المهبِلُ .

ومن صفاتِ الفَرْج : المنهُوش ، وهو : القليل اللَّحم ، والكَعْثَب والكَعْثم : وهو الممتلئُ الناتِئُ ، يقال : امرأةٌ كَعْثَبٌ وكَعْثَمٌ ، وكَثْعَمٌ : إذا كانت ضَخْمة الركَبِ — والركَبُ هنا : مَنْبِتُ شعَرِ العانَةِ — ويقال : ركَبٌ جَهْمٌ : أى غليظ ، والعَرَكْرَك : الركَبُ الضَّخْم ، وفرج لهمُومٌ : وهو الذى يلتهِمُ مَتاعَ الرجُلِ ، والغُمُضُ : آخِر الفَرج ، وأنشدُوا :

حِرٌ يَمْلأُ الكفَّيْنِ جَهْمٌ مُزَعْفَرٌ لهُ غُمُضٌ مُستَحْصِفٌ مُتَضَرِّمُ
أَزُومٌ يئِطُّ الأَيْرُ فيه إذا انتحَى أَطِيطَ قَنِيِّ الهندِ حين تُقَوَّمُ

« الأزوم : العضوضُ ، ويَئِطُّ : يُصَوِّتُ ويقال : أطَّتِ القناة أطيطًا : صوَّتَتْ عند التَّقْويم » .

وقال النابغة يصف رَكَبَ المتجرِّدَةَ امرأة النُّعمانِ بن المنذر ، وقد كان النُّعمان سأله ذلك :

وإذا لَمَسْتَ لمسْتَ أخْمَم جاثِمًا مُتَحَيِّرًا بمكانِه مِلْءَ اليَدِ
وإذا طعَنْتَ طَعَنْتَ فى مستهدَفٍ رابِى المجَسَّةِ بالعبيرِ مُقَرْمَدِ
وإذا نَزَعْتَ نزعْتَ فى مُستَحْصِفٍ نَزْعَ الحَزَوَّرِ بالرِّشاءِ المُحْصَدِ

« الأخْثَم : الفرج الممتلىء الضَّيِّق ، والجاثم فى الأصل : اللاصق بالأرض الرابض ، ومتحيِّراً — بالراء — مستعار من تحيُّر الماء فى النهر : إذا اجتمع فيه وتملَّأ ، ومُستهدِف بكسر الدال من استهدَف لك الشيءُ : إذا انتصبَ ، كاهْدَف ، ورابى : مرتفع ، والمجَسَّة بفتح الميم : ما جَسَسْتَه بيدك ، ومُقَرْمَدِ : مطلِيٌّ ، والعبير : أخلاط من الطيب ، وأصل النزع : جَذْبُ الحبْل من البئر ، فاستعاره لجذب متاع الرجل من الفرج ، والمستَحْصِف : الضيِّق الشديد اليابس القليل البلَل ، والحزَوَّر : الغلام الذى اشتد وقوِىَ ، والرشاء : الحبل ، والمُحْصَدِ : المحْكم الفَتْل ، يريد مثل نزع الغلام حبل الدلو من البئر » .

وأنشد سيبويه :

إن لها لَرَكَبًا إرْزَبًّا كأنه جبْهَةُ ذَرَّى حَبًّا

« الركب : أعلى الفرج ، وإرزَبًّا : ضخما ، وذرّى حبًّا : اسم رَجُل » .

ومن أبيات الحماسة :

قامَتْ تَمَطَّى والقميصُ مُنْخَرِقْ فصادَفَ الخَرْقُ مكاناً قد حُلِقْ
كأنه قَعْبُ نُضارٍ مُنْفَلِقْ

« تمطَّى : تتمطَّى ، وأصل التمطى : التَّبَخْتُرْ ومَدُّ اليدين فى المشْىِ ومكاناً قد حُلِقْ يعنى : الفرج أو أعلاه ، والقعب : القدَحُ الضخْمُ ، والنضار : الخشب الجيِّد تتخذُ منه الأقْدَاحُ والقِصَاع ونحوُها » .

وقال الأعشى :

إذا انبطحَتْ جافَى عن الأرضِ بَطْنَها وخَوَّى بها رابٍ كهامَةِ جُنبُلِ
إذا ما علاها فارِسٌ مُتَبَذِّلٌ فنِعْمَ فراشُ الفارسِ المتبذِّلِ

« خَوَّى بها من خَوَّى البعير تَخْوِيةً : إذا بَرَكَ ثم مكَّنَ لثفِنَاتِه فى الأرض ، والجنْبُل : القدح العظيم ، يقول : إن كعْبَهَا اضخَمِه يخَوِّى بها إذا انبطَحَتْ فيتجافى

عن الأرض بَطْنُها ، والعرب تُشَبِّهُ الركَب الضخم بالقَعْب المكفُوء ، أى القدحُ المقلوب — ولذا قال: كهامة جُنْبُلِ ، وقوله: إذا ما علاها فارسٌ ... البيتَ. هو كقول الفرزدق:

مامَرَّ كبٌ وركوبُ الخيل يُعْجِبُنى كمركبٍ بين دُمْلوجٍ وخَلْخَالِ
أَلَذُّ للفارسِ المُجرى إذا انبهرت أنفاسُ أمثالِها من تَحْتِ أمثالِى

والفارس المتبذّل : أى اللابسُ لثياب بِذْلَتِهِ ، وهى المباذِل ، أى الثيابُ التى تُلْبسُ وتُمْتَهَنُ ولا تُصان » .

وقال الفرزدق :

إذا بُطِحَتْ فوقَ الأثافِى رَفَعْنَها بثدييْنِ فى نَحْرٍ عَرِيضٍ وكَعْثَبِ

« يقول : إنها إذا بُطِحَتْ على وجْهها لم يمسَّ الأرضَ منها شىء ، لأنَّ نهودَ ثدييْها وكبرَ كَبِها مثل أثافِى القِدْر لِبَدَنِها » .

* * *

وبعث الجُنيد بنُ عبد الرحمن المُرِّىّ إلى خالد بن عبد الله القَسْرىّ بِسَبْىٍ من الهند بيضٍ ، فجعل يَهَبُ منها لوجُوه الناس حتى بقيتْ جاريةٌ منهنّ جميلة كان يَدَّخرُها . فقال لأبى النَّجْم الشاعر الرجَّاز :

هل عندك فيها شىء حاضرٌ وتأخذُها السَّاعة ؟ قال : نَعَمْ أصلحك الله ! فقال العُرْيان بن الهَيْثَم النَّخَعِىّ : كذَبَ والله ما يقدِرُ على ذلك . فقال أبو النَجْم :

عَلِقْتُ خَوداً مِن بَنَاتِ الزُّطِّ ذَاتَ جِهاز مُضْغَطٍ مُلَطِّ[1]

---

(١) الزط جيل من السند ، والجهاز : فرج المرأة ، وملط : مستور ، من ألَطَّ الشىء إذا ستَرَه .

رَابِي المَجَسِّ جَيِّـــدِ المَحَطِّ كأنَّمـــا قُطَّ على مِقَطِّ (١)
إذا بَدَا مِنهـــا الذى تُغَطِّى كأنَّ تَحْتَ ثَوبِهـــا المُنْعَطِّ (٢)
شَطًّا رَمَيْتَ فَوْقَـــه شَطَّ لم يَنْزُ فى البَطْنَ وَلم يَنْحَطِّ (٣)
فِيـــه شِفاءٌ من أَذَى التَّمَطِّى كهامَةِ الشَّيخِ اليَمَانِى الشُّطِّ (٤)

وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى هامَةِ العُرْيان بن الهَيثَم ، فَضَحِكَ خَالِدٌ وقَالَ للعُرْيان : كيف تَرَى ا أَحْتاجَ إلى أَنْ يُرَوِّىَ فِيها يَا عُريانَ ؟ ا قال : لا والله ا ولـكِنَّه ملعون أبنُ ملعون . .

* * *

وقال بشار بنُ بُرد :

عَجْزَاءُ مِن سِرِّ بَنِى مالِكٍ لَهَا هَنٌ مِن بَطنِها أَرْفَعُ
زُيِّن أَعْـــلاهُ بإشرافِهِ وَانْضَمَّ من أَسْفَلِهِ المُشْرَعُ

وحَكى أبو الفَرَج صاحب الأغانى في أخبار ابن مَيَّادَة — وهو شاعر فصيح مقدّم من مخضرَمِى الدّولتين ، وكانَ عِرِّيضا للشّر مُولَعا بمُهاجاة الشعراء ومُسابَّةِ الناس — قال أبو الفرج : كانَ ابن مَيّادَة قد هاجَى سِنانَ بنَ جابِرٍ أَحَدَ بنى حُمَيْسٍ ، وكان مما هجاهُ به — وهُنا أورد أبو الفرج أبياتا نورد مايغنينا منها وهو هذا البيت :

وَتُبْدِى الحُمَيْسِيَّاتُ فى كُلِّ زِينَـةٍ فُروجًا كآثارِ الصِّغَارِ من البَهْمِ (٥)

(١) رَابِى المجس : مرتفع ما جَسَسْتَهُ منه ، وقُطَّ : قطع ، والمقط : ما يقط به القلم .
(٢) انعط الثوب : انشق .
(٣) الشط : جانب سنام البعير والعرب تشبه أعلى الفرج بسنام البعير .
(٤) الشط : الخفيف اللحية .
(٥) يرْمى نساء بَنى حميس بصغر فروجهن ، اذ يشبهها بآثار أظلاف الصغار من البَهم فى الأرض إذا مشت .

قال : ثُمَّ إنَّ ابنَ مَيَّادَةَ خرجَ يَبْغِى إبلاً له حتَّى وَرَدَ جُبَّاراً — ماءٌ — لُحَيْسِ بن عامر — فأتَى بيتا فوَجَدَ فِيهِ عجوزا قد أَسَنَّت ، فنَشَدَها إبلَهُ ، فذَكَرَتْها له وقالت: مِمَّن أَنتَ ؟ قال: رَجُلٌ مِن سُلَيم بن منصور ، فأَذِنَت له ، وقالت: ادخُلْ حتى نَقْرِيَكَ وقد عَرَفَتِهِ وهو لا يَدْرِى ، فلما قَرَتْه قال ابنُ مَيَّادَةَ : وَجدْتُ رِيحَ الطيبِ قد نَفَحَ عَلَىَّ مِن البيتِ ، وإذا بنت لها قد هَتَكَت السِّتْرَ ، ثم اسْتقبَلَتْنِى وعليها إزارٌ أَحمرُ وَهِىَ مُؤْتَزِرَةٌ بِهِ ، فأطلَقَتْهُ وَقالتْ : انظُرْ يَابْنَ مَيَّادَةَ الزَّانية[1] ! أَهذا كما نَعَتَّ ! فلمْ أَرَ امرأَةً أَضخمَ قُبُلاً مِنها ! نَبَا بينَ فخذَيْها كأَنَّهُ القَعْبُ المَكْفُوء — المقلوب — فقالت : أهذا لما قلت : وَتُبْدِى الحَمْيَسِيَّات فى كل زينة فروجاً كآثار الصِّغَارِ من البَهْمِ[2]

« المَقْيَسِرَة : الإبل الضخمة الكبيرة » .

قالَ : قُلْتُ : لا والله يا سيِّدتى ، ما هكذا قلت ولكن قلتُ :

وتبدِى الحَمْيَسيات فى كل زينة فروجا كآثار المَقْيَسِرَة الدُّهْمِ

وأحسنَ ابنُ الرومى فى وصفِ الفرج بالضِّيقِ والحرارة وذلك حيث يقول :

لها حِرٌ يستعير وَقْدَتَهُ من قلب صبٍّ وصدر ذِى حَنَق
كأَنما حرُّه لخابره ما أَوْقَدَتْ فى حشاهُ من حُرَق
يزدادُ ضيقاً على المِراسِ كما تزدادُ ضيقا أُنشُوطَةُ الوهَقِ[3]

---

(١) ميادة : اسم أم شاعر ، واسمه (الرمَّاح بن أبْرَد) .

(٢) البهم : جمع بهمة : الصغير من أولاد الضأن : الغنم والمعز .

(٣) الأُنشوطة : عقدة يسهل انحلالها مثل عقدة التكة ، ومن مجازها قولهم : ما عِقَالك بأنشوطة : أى ما مودتك بواهية ، ونشطت الحبل أنشطه نشطا : إذا ربطته وإذا حللته فقد نشطته ، والوهق : حبل فى طرفه أنشوطة يطرح فى عنق الدابة حتى تؤخذ .

وقال ابن سُكَّرة الهاشمي أحد شعراء اليتيمة — يتيمة الدهر للثعالبي :

وَسَوْداء بورك فى بَضْعِها ... ولا نالَ بؤساً فـــا أضْيَقَا
تَرَوْتُ عليهـــا ولا علم لى ... بأن لهـــا كعثباً مُحْرِقَا
فـكدتُ من الحر أن أنشوى ... ومن شـــدة الضيق أن أُخْنَقَا

وقال ابن الرومى فِى سعَته :

يسعُ السبْعَةَ الأقاليم طراً ... وهو فى إصْبَعَيْنِ مِنْ إقْلِيمِ
كضمير الفؤاد يلتهمُ الدنيا ... وتحـــويه دَفَّتَا حَـــيْزُومِ

النظر إلى الفرج : —

وهنا نورد خلافهم فى النظر إلى فرج الزوجة ، فقد قيل للإمام إصْبَغْ المالـكى : إن قوما يرون كراهة النظر إلى فرج الزوجة ؟ فقال : إنما يرى كراهته من يرى ذلك بالطب لا بالعلم ، ولا بأس به وليس بمكروه ، وقال القاضى أبو الوليد بن رشْد : أكثر العوام يعتقدون أنه لا يجوز للرجل أن ينظر إلى فرج امرأته فى حال من الأحوال ! قال : وقد سألنى عن ذلك بعضهم ، واستغرب أن يكون جائزا ! وعلى هذا أيضا مذهب الحنفية ، فهم يجيزونه ، وأما الشافعية فلهم فيه قولان : أحدهما الإباحة والآخر المنع ، والنظر إلى داخله عندهم أشد فى المنع .

ولبعض أئمتهم : يكره النظر إليه لأنه سَخَفٌ ودناءة ، أقول : وهذا ما أراه ويراه كل مهذب . . . حتى لقد روى فى الأثر (لا ينظر أحدكم إلى فرج زوجته ولا فرج أمَتِه فإن ذلك يورث العمى) .

عيوب الفرج :

وَقد ذكر الفقهاء أن مما ينفسخ به عقدُ النكاح عيوباً تسعة ، ثلاثة يشترك فيها الرجال والنساء ، وهى الجنون والجذام والبرص ، وَإثنان مختصان بالرجال ، وَهما : الجُبُّ : أى قطع الذكر — وَالعُنَّة — العجز عن الجماع ، إمَّا : لأن الذكر صغير لا يتأتى به الجماع وَإما لمرض يُسَبِّبُ عدم الانتصاب — وَأربعة مختصة بالنساء وهى : القرن ، وَالعَفَل ، وَالرَّتَق ، وَالفَتَق ، فأما القَرَنُ فهو شىء يبرُزُ فى الفرج كقرن الشَّاةِ ، لا يتمكن معه الرجل من الجماع ، وَأما العفَل فهو لحم يبرَز فى الفرج وَلا يخلو عن رشح ، يشبه الأُدْرَة للرجل — القَلِيطَة — وَأما الرَّتَق فهو إنسداد مدخل الذكر من الفرج ، فلا يمكن معه الجماع ، وَهذا الإنسداد قد يكون بِغُدَّةٍ لحم أوعظم ، وَأما الفتق أو الإفضاء فهو أن يختلط مسلك الذكر بمسلك البول أو الغائط ويقال للمرأة مشرُوم أو شَرِيم . ومن عيوب الفرج البَخَر « أى نَتْنُ الفرج »[1] .

الأرداف :

الرِّدف والكَفَل والعجُز والعَجيزة والمأكَمَةُ واحدٌ ، ويقال : امرأة عجْزَاء ، إذا كانتَ عظيمةَ العَجيزة ، وذلك عندهم من معانى المرأة المستحسنة ، ولكنهم مع ذلك كرهوا إفراط كِبَرها ، وكذلكَ يُقال : امرأة مُؤَكَّمَةٌ : أى عظيمة المأكِمَتَيْن ، والمأكِمَة : العَجيزة ، تفتح كافُها وتكسَرُ ، وضدُّ العجْزَاء : الزَّلاَّء ، والرَّسْحَاء ، وهما صِفتا ذمٍّ عند الجميع ، وفى الحديث الشريف

---

(١) أصبحت هذه الأمراض نادرة الوجود لأن علم الطب وخصوصاً الجراحة قد تقدم تقدماً كثيراً ويمكن استئصال هذه الأمراض بسهولة .

(لا تسترضعوا أولادكم الرسح ولا العمش ، فإن اللبن يورث الرسح) .

«الرسح : أن لا يكون للمرأة عجيزة ، وقد رسحت المرأة رسحا ، وهى الزلاء » .

وقال الشاعر :

إذا ضربتها الريح فى المرط أشرفت مآكمها والزل فى الريح تفضح

« المرط كساء من صوف ونحوه يؤتزر به ، والزل جمع زلاء : التى لا عجيزة لها » .

ومن كلامهم : العجيزة أحد الوجهين . . .

وكانت الثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة تصب الماء على رأسها فلا يصل إلى فخذيها منه شىء ، لوفور عجيزتها .

وحكوا أن عائشة بنت طلحة كانت تستلقى على قفاها ثم تدحرج الأترجة من تحت ظهرها فتخرج من الناحية الأخرى ، لوفور عجيزتها كذلك ، وفى عائشة بنت طلحة يقول الحارث بن خالد المخزومى — وذلك لما تزوجها مصعب بن الزبير ورحل بها إلى العراق — :

ظعن الأمير بأحسن الخلق وغدا بلبك مطلع الشرق
فى البيت ذى الحسب الرفيع ومن أهل التقى والبر والصدق
فظللت كالمقهور مهجته هذا الجنون وليس بالعشق
أترجة عبق العبير بها عبق الدهان بجانب الحق"(١)

(١) الأترجة : واحدة الأترج : ثمر معروف من جنس الليمون و يقال له أيضاً الترنج وهو ذو رائحة ذكية ، وفيه يقول جحظة البرمكى :

أترجة كالمسك فى طيبه والتبر فى بهجة إشراقه
كأنها فى كف أستاذنا مخلوقة من طيب أخلاقه =

وقال أعرابيٌّ — وهي مما اختاره أبو تمام في حماسته :

أَبَتِ الرَّوادِفُ والثُّدِيُّ لقُمْصِها مَسَّ البطونِ وأَنْ تَمَسَّ ظُهورا
وإذا الرِّياحُ مَعَ العَشِيِّ تناوَحَتْ نَبَّهْنَ حاسِدَةً وَهِجْنَ غَيورا

« الثُّدِيُّ جمع ثَدْي، والقُمُص جمع قَميص وهو درع المرأة ، يقول هذا الأعرابيُّ : إنَّ نُهودَ ثَدْيَيْهَا وارتفاعهما يمنَع ثيابها أن تمسَّ البَطنَ ، وضخامة ردْفيها تمنع ثيابَها أن تمسَّ ظهرَها ، وإذا الرياحُ تناوحت ، أي هَبَّتْ من كل ناحية وتقابلت التَصقَ من ثيابها ببَطْنها وظَهرها ما كانَ يمنَعُهُ ثدياها وردفاها قبل هُبوبها فظهر من محاسنها ما يُنَبِّهُ حَسَدَ الحاسدات ويَهيجُ غيرَةَ الغيور ، أو تقول : إذا هَبَّت الرياح وَجَدَت بين جِسْمها وثيابها هواءً خالِياً فتمكنت من رفع ثيابها فيبدو ما تحتها من المحاسن فيستيقظ حسد الحاسدات وتهيج غيرة الغيور » .

* وقال المتنبي :

تُرَفِّعُ ثَوبَها الأَرْدافُ عنها فَيَبْقَى مِن وِشاحَيْها شَسُوعا
إذا ماسَت رأيتَ لها ارتجاجاً له لولا سواعدُها نَزُوعا

« يقول المتنبي في البيت الأوّل : إنَّ أردافها عظيمة شاخصةٌ عن بَدَنها حتى إنها ترفع ثوبَها وتحول دون لصوقِه بجَسَدها حتى إنه يكونُ بعيداً عما توشحت به من القلائد ، فأراد بالوشاحين قِلادَتين تتوشّح بهما المرأة ترسل إحداهما على جنبها الأيمن والأخرى على الأيسر ، والشسوع : البعيد . ويقول في البيت الثاني : إذا ماست — أي مشت متبخترة — رأيت لردافها ارتجاجا وحركة يكادان ينزعان ثوبها عنها لولا أن سواعِدَها تمسك عليها ثوبها ، لدخولها في الكمين ، فالضمير في له للثوب ، ونزوعا صفة لا رتجاجاً » .

* * *

= ويقول ابن الرومي :

كلُّ الخِلالِ التي فيكم محاسِنُكم تشابَهَتْ منكم الأخلاقُ والخُلُقُ
كأنكم شجر الأُتْرُجّ طاب معاً حَمْلاً ونَوراً وطابَ العُودُ والورَقُ

وكان المأمون بن الرشيد كثيرا ما كان يجالس عمرو بن أبي عمرو الشيبانى ، قال عمرو : بينا أنا جالسٌ بين يَدَى المأمون إذْ دَخَلَ الحاجِبُ فألقَى إليه سرًّا أَصْغَى إليه بأُذُنِهِ ، فنهضْت لأذهب ، فقال : اجْلِسْ ، فلولا أَنَّ للحَجَبَة مُؤامراتٍ لا تصلح إلا باستطلاع الرأى فيها لكُنتَ عندَنا مِمَّن لا نحتَشِمُه . ولاَ نَسْتُرُ أَمْرًا عنه ! فقلت : الحمد لله الذى أَوْصَل لى هذا الفَضْلَ من أمير المؤمنين ، ثم التفت إلى الحاجب ، فما لَبِثَ أَنْ دَخَلَ بوَصائِفَ حِسَانِ الصُوَر ، فاعترضَهُنَّ ، ثم قال : أَيُّهُنَّ أَفْضَلُ عندك ؟ فقلت : إن كانَ لما جَمَعْت من الأوصاف المُسْتَحْسَنَة فهذه ! وأشرت إلى وَاحِدَةٍ منهن مُدْمَجَةِ الخَصْرِ راجِحَةِ الكفل ، ثم قُلت : لأمير المؤمنين رأيه واختياره وموقع شهوته ، فقال : قد وافقت شهوتى ما اختبرته برأيك ، وأمره بأخذها ، وخرج النخاسون — تجار الرقيق — وسائر الجوارى ، ثم التفت إلىّ وقال : ما قالت الشعراء المجوِّدون فى الأكفال ؟ قلت : الأبيات التى تتهاداها الرواة ، قال : كأنك تريد قول القائل :

وَتَنُوءُ تُثْقِلُها عجيزَتُها ... نَهْضَ الضَّعِيف يَنُوءُ بالوَسْقِ
ما صبَّحتْ أَحَدًا بِرُؤْيَتِها ... إلاَّ غَدَا بكواكِبِ الطَلْقِ (١)

---

(١) يقال : يوم طلق : أى مشرق لا بَرْدَ فيه ولا حرَّ ولا شىء يؤذى .
قال البحترى :
أتاكَ الربيعُ الطَّلْقُ يختال ضاحكا ... مِنَ الحُسْنِ حتى كادَ أن يتكلَّما
يريد أن من تُصبحه رؤيتها يرى الزمان صافياً سعيداً طيباً لروعتها وجمالها واستبشاراً بطَلْعَتها الرائعة .

وبيضٍ نَضيرات الوجُوه كأنما تَأَزَّرْنَ دُونَ الرَّيْطِ مِنْ رَمْلِ عالِجِ (١)
خِدالِ الشَّوَى لا تَحْتَشِى غيرَ خَلْقِها إذا الرُّسْحُ لم يَصْبِرْنَ دون المَنافِجِ (٢)
يَذَرْنَ مرُوط الخَزِّ مَلْأَى كأنَّها قِصارٌ وإنْ طالَتْ بِأَيْدِى النواسجِ

فقلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، هو الذى أردت ، قال : لعمرى لقد أحسن ، إلا أن أخا (٣) أسد أرق معنى وأحسن مغزى فى قوله :

يمشينَ مشْىَ قَطَا البِطاحِ تأوُّداً قُبَّ البُطُونِ رواجِحَ الأكفالِ (٤)
يَمْشِينَ بين حِجالِهِنَّ كما مَشَت بُزْلُ الجِمالِ دَلَجْنَ بالأَمْحالِ (٥)
فإذا أَرَدْنَ زِيادَةً فكأنَّما يَخْلَعْنَ أرجُلَهنَّ مِنْ أَوْحالِ
فيهنَّ آنِسَةُ الحديث حَيِيَّةٌ ليست بفاحشة ولا مِتْفالِ (٦)
وتكُونُ ريقتُها إذا نَبَّهْتَها كالمسك فوق سُلافة الجِرْيالِ (٧)

(١) عالج : موضع بالبادية به رمل قد تراكم ودخل بعضه فى بعض وهم يشبهون الردف بالكثيب من الرمل والريط : جمع ريطة : الملاءة وكل ثوب لين دقيق ، وتأزرن : أى كأنهن جعلن الرمل بدل الملاءة يصفهن بضخامة الردف .

(٢) خدال الشوى : ممتلئة الأطراف ، والمنافج : حشايا توضع فوق الأرداف .

(٣) هو الشاعر الكميت بن زيد الأسدى وهو من بنى أسد .

(٤) قب البطون : ضامرات البطون ، ورواجح الأكفال : ثقيلات العجيزة يقال امرأة رجاح وراجح أى ثقيلة العجيزة ، والبطاح : جمع الأبطح : مسيل الوادى .

(٥) الحجال : جمع حجلة وهى كالقبة تستر بالثياب ، والبزل : جمع بازل : البعير إذا استكمل السنة الثامنة وطعن فى التاسعة وذلك أقصى أسنان البعير .

(٦) فحشت المرأة : قبحت وكبرت ، والمتفال : المتغيرة الريح لترك التطيب والأدهان .

(٧) الجريال : من أسماء الخمر .

أفهمت ما أراد فى البيت الثانى ؟ قلت : قد أعطى الله أمير المؤمنين من المعرفة ما لا ينازع فيها ، فقال : إن الأحمال إذا أدلج بها حاملوها على الإبل استرخت أكفالها ، فإنما شبهها بها وهى على تلك الصفة . . .

ومن طريف هـذا الباب ما يروى : أن هند بنت عتبة أم معاوية بن أبى سفيان كانت وافرة العجيزة ، وجلس يوما أبو الجهم[1] بن حذيفة على المائدة مع معاوية ، فقال له معاوية : يا أبا الجهم ، من أسن أنا أم أنت ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، والله لكأنى أنظر إلى أمك وعظم عجيزتها وقد جئت أخطبها قبل أبيك وقبل زوجها الفالة بن المغيرة ، ثم تزوجها أبوك فأتت بك وبأخوتك ، فقال معاوية : إنها كانت تستكرم الأزواج ، وتقال الخداج[2] ؟ ثم قال له معاوية : يا أبا الجهم ، إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبى ، ويثب وثوب الأسد ، وهذه مائة ألف فاستعن بها والحق بأهلك ، وإياك ومثل هـذا ، فقبل أبو الجهم ما بين عينيه وقال : أبيت إلا حلما وكرما ، ثم أنشد :

نميـــل على جوانبه كأنا نميل إذا نميل على أبينا
نقلبه لنخـــبر حالتيه فنخبر منهما كرما ولينا

وقالت امرأة لأخرى : أتحتك وسادة ؟ فقالت : وسادة وسدنيها الله .

---

(١) أبو الجهم هذا أسلم يوم فتح مكة وهو من معمرى قريش ، بنى فى الكعبة مرتين مرة فى الجاهلية ومرة حين بناها عبد الله بن الزبير ، ومات فى تلك الفتنة .

(٢) الخـداج : النقصان ، وأصل ذلك من خداج الناقة : إذا ولدت ولداً ناقص الخلق أو لغير تمام ، وتقال الخداج أى ذا الخداج أى الناقص أى تراه قليلا أى لا تراه شيئاً .

وقال المتنبى :

كأنَّما قَدُّها إذا انفتلَتْ سَكْرَانُ مِنْ خمر طَرْفِها ثَمِلُ
يَجْذِبُها تحتَ خَصْرِها عَجُزٌ كأنَّهُ مِن فِراقِها وَجِلُ

« انفتلت : تثنت وتمايلت ، وطرفُها : لحظها ، ورجل ثمل : أخذ منه الشراب ، يقول : إنها تتمايل فى مشيها تمايل السكران فكأنَّ قَدَّها نظر إلى طرفها فسكر مِنْ خمر عينيها كما يسكر منه عاشقوها . ويقول فى البيت الثانى : إن ردْفَها ثقيل بكثرة اللحم فاذا هى هَمَّت بالنهوض جذبَها ردفها إلى العقود ، فكأنّ ردفها فى ارتجاجه واضطرابه لكثرة لحمه خائف من فراقها ، والخائف يوصف بالارتعاد ، وكذلك العَجُز إذا كثر لحمه ، كما قال القائل إذا ماست رأيتَ لها ارتجاجاً » .

وقال يَزيد بن الطَّثْرِيَّة — شاعر إسلامىٌّ ، والطثرية : أُمُّه مِن حَىّ يقال لهم طَثْر : —

عُقَيلِيَّةٌ : أَمَّا مَلاَثُ إزارها فَدِعْصٌ وَأَمَّا خَصْرُها فَبَتِيلُ[1]

ومن مختار هذه الأبيات وهى فى حماسة أَبى تمّام :

أَلَيْسَ قليلاً نَظْرَةٌ إنْ نَظَرْتُها إليكِ وكَلاَّ لَيْسَ منك قليل[2]

---

(١) عقيلية : من بنى عقيل ، وملاث الأزار : الموضع الذى يُشَدّ عليه الأزار وهو الكفل والرِّدف ، والدعص : الرمل المجتمع ، والبتيل : الدقيق الهضيم شبهَ ردفها بالدعص لكثرة اللحم عليه واكتنازه ، ثم قال : وأما خصرها فهو دقيق هضيم .

(٢) يقول — مُدلا بما يقاسيه من جَرّائها ويتحمله من أجلها — :
أليس قليلا نظرة منك إذا حصلت لى ، ثم استدرك على نفسه فقال « كَلاَّ » وهو حرف رَدْع ونفى ، أى لا قليل منك ، وهو مثل قول الآخر :

هل إلى نظرة إليك سبيلُ فَيُرَوِّى الظَّمَا ويُشفى الغليلُ
إنّ ما مِنْكِ قَلَّ يكثرُ عندى وكثيرٌ مِمَّنْ تُحِبُّ القليل

« القليل مبتدا مؤخر ، وكثير ممن تحب خبره » .

فيَاخُلَّةَ النفس التى ليسَ دونَها ... لنـا من أَخِلاَّء الصّفاء خليلُ (١)
وَيَا مَن كَتَمْنَا حُبَّـهُ لم نُطِـعْ به ... عَدُوًّا وَلَمْ يؤمَن عليه دَخِيلُ (٢)
أَمَا مِنْ مَقَامٍ أَشْتَـكِى غُرْبَةَ النَّوَى ... وَخَوْفُ العِدَا فيـه إليكِ سَبِيلُ (٣)
فديتُكِ أَعدائى كَثِيرٌ وَشُقَّتِى ... بَعِيـدٌ وَأَشْيَاعِى لَدَيكِ قَلِيلُ (٤)
وَكُنْتُ إذا ما جِئْتُ جِئْتُ بِعِلَّةٍ ... فَأَفْنَيتُ عِلاَّتِى فـكيفَ أَقولُ
فَمَا كُلّ يَوْمٍ لى بأَرضِكِ حاجَةٌ ... ولا كُلّ يومٍ لى إليكِ رَسولُ (٥)
صَحائِفُ عنـــدى للعتابِ طويتُها ... سَتُنْشَرُ يَوْمًا والعِتابُ طويلُ
فلا تَحْمِلى ذَنْبِى وَأَنْتِ ضَعِيفَةٌ ... فَحَمْلُ دَمِى يومَ الحِسابِ ثَقِيلُ

ويزيد بن الطَّثْرية هو القائل :

بِنَفْسِىَ مَن لو مَرَّ بَرْدُ بَنانِه ... على كَبِدِى كانت شِفَاءً أَنامِلُهْ
وَمَن هابَنِى فى كُلّ شَىءٍ وهِبتُه ... فلا هو يُعْطِينى ولا أنا سائِلُهْ

وكان ابن الطَّثْرية هذا يُسَمَّى المُوَدِّق ، سُمِّىَ بذلك لِحُسْنِ وَجْهِه وَحُسْنِ شَعَرِه وَحَلاوَةِ حَدِيثه ، فـكانوا يقولون : إنَّه إذا جلس بين النساء وَدَّقَهُنّ ، أى جعلهنَّ يَمِلْنَ إليه ، فالمُوَدِّق : هو الذى يجعل النساء يَمِلْنَ إليه. ويقال : استَوْدَقَتِ المرأةُ وَوَدِقَتْ : إذا مالت إلى الفحل لأجْلِ جِماعِها ، وأصل هذه

---

(١) يقول : الخلة : الخليل ، وخليل فى آخر البيت اسم ليس مؤخر .

(٢) به أى فيه ، والدخيل : الذى لا تطمئن اليه نفسك ، فهو المداخل المباطن .

(٣) مقام : موضع إقامة وجملة أشتكى غربة النوى صفته .

(٤) الشقة : السفر الطويل أو بُعد المسير إلى أرض بعيدة ، والأشياع : الأنصار .

(٥) يقول : فما كل يوم تعرض لى بأرضك حاجة أتعلل بها وليس بميسور لى أن أرسل إليك كل يوم رسولا .

المادَّةِ فى ذوات الحافِر ، يقال : وَدِقَتَ الفَرسُ وَالأَتَانُ والبغلَةُ : إذا اشتَهَتَ الفحْلَ ، وَبها وِدَاقٌ ، ثم استُعْمِل ذلك فى الإنسان .

* * *

ومن طريف ما قِيل فى ثِقَلِ العَجيزة قولُ بعضهم :

تَمْشِى فتُثْقِلُها رَوادِفُها ... فكأنَّها تَمشِى إلى خَلْف

وقول المُؤمّل بن أميل :

مَن رأى مِثْـــلَ حِبَّتى ... تُشْبِهُ البَـــدْرَ إذ بَدَا

تدخُل اليـــومَ ثُمَّ تَدْ ... خُلُ أردافُها غـــدا

النَّدى والنهود :

يقال : ثُنْدُوَةُ الرَّجُل ، وَثَدْى المرأة ، وخِلْفُ الناقة ، وضَرْعُ الشَّاةِ وَالبَقَرَة ، وَطُبْيُ الكلبة . ويقال للمرأة إذا كعَبَ ثَدْيُهَا ، أى ظَهَر : كاعِب ، فإذا فَلَكَ ، أى استدارَ ، قيل : مُفَلِّكَة ، فإذا نَهَدَ : أى علا وأشرَف قِيل : ناهِد ، وبعضُهم يجعل الناهد والمفلِّكة واحداً .

ومما يختار من عبقرياتهم فى النهود قول ابن الرومى :

صُدورٌ فوقَهُنَّ حِقَاقُ عاجٍ (١) ... وَحَلْىٌ زانَهُ حُسْنُ اتِّساقِ

يقول الناظِرونَ إذا رَأَوْها ... أَهٰذَا الحَلْىُ مِن هٰذِى الحِقاقِ

وما تِلكَ الحِقَاقُ سِوى ثُدِىٍّ ... قُدِرْنَ من الحِقاقِ عَلَى وِفاقِ

نَواهِـــدُ لاَ يُعَدُّلُهُنَّ عَيْبٌ ... سِوى مَنْعِ المُحِبِّ مِنَ العِناق

---

(١) العاج : أنياب الفيل ، واحدها : عاجة ، والحقاق جمع حق وتشبيههم الثدى بحق العاج إنما هو فى البياض والاستدارة .

وقال عبدُ الله بن أبي السمط بن مَرْوان :

كَأَنَّ الثُّدِيَّ إذا ما بَدَتْ ... وَزَانَ العُقُودُ بِهِنَّ النُّحورَا
حِقَاقٌ مِنَ العاجِ مكنونةٌ ... حَمَلْنَ مِن المِسْكِ شيئا يَسِيرَا

وقال عبد الله بن المعتز :

قَبيحٌ بِمِثْلِكِ أَنْ تَهْجُرِى ... وَأَقْبَحُ مِن ذاكَ أَنْ تُهْجَرِى
أُقَاتِلُ بِفُتور الجُفُونِ ... وَرِمَّانَتَيْنِ على مِنْبَرِ
كَحُقَّتَيْنِ مِن لُبِّ كافُورَةٍ ... بِرأْسَيْهِمَا نُقْطَتَا عَنْبَرِ

وقال علىّ بن الجهم :

كنت مُشتاقاً وَما يَحْجُزُنِى ... عنكِ إلاّ حاجزٌ يَمْنَعُنِى
شاخِصٌ فى الصَّدْرِ غَضبانٌ عَلَى ... قَبَبِ البَطْنِ وَطَىِّ العُكَنِ
يَمْلَأُ الكَفَّ وَلاَ يفْضُلُهُ ... وإذا أَثْنَيْتَهُ لا يَنْثَنِى

وقال ابن الرومى فى وَصْف مُغَنِّيات يَضربن بالعود :

وَقِيانٍ كأَنَّهَا أُمَّهاتٌ ... عاطفاتٌ على بَنِيها حوانِى
مُطْفِلاتٍ وَمَا حَمَلْنَ جَنِيناً ... مُرضِعاتٍ وَلَسْنَ ذَاتَ لبَانِ
مُلْقِماتٍ أَطْفَالَهُنَّ ثُدِيًّا ... ناهِداتٍ كأَحْسَنِ الرُّمَّانِ
مُفْعَمَاتٍ كأَنَّهَا حامِلاتٌ ... وهن صفْرٌ مِن دِرَّةِ الأَلبَانِ
كلُّ طِفْلٍ يُدْعَى بأَسماء شتَّى ... بين عُودٍ وَمِزْهَرٍ وَكِرَانِ
أُمُّهُ دَهرها تُتَرْجِمُ عنه ... وهو بادى الغِنَى عَنِ التُّرْجُمَانِ

وأول من وَصَفَ الثَّدْىَ بحُقّ العاج هو عَمْرو بن كُلثُوم فى معلقته قال :

تُرِيكَ إذا دَخَلْتَ على خَلاءٍ ... وَقَد أَمِنَتْ عيونَ الكاشِحِينا[1]

(١) الكاشح : المضمر العداوة فى كشحه وخص العرب الكشح بالعداوة لأنه موضع الكبد والعداوة عندهم تكون فى الكبد .

ذِرَاعَىْ عَيْطَلٍ أَدْمَاءَ بِكْرٍ هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا (١)
وَثَدْيًا مِثْلَ حُقِّ العَاجِ رَخْصًا حَصَانًا مِنْ أَكُفِّ اللَّامِسِينَا (٢)

والناسُ يختلفون ، فمنهم من يُفضّل صغرَ الثدى ، ومنهم من يفضل كِبَرَه ، قيل لابراهيم بن سيار المعروف بالنظام أحد شيوخ المعتزلة : أىّ مقادير الثَّدِىّ أَحْمَد ؟ فقال : وجَدْتُ الناسَ يختلفون فى الشهوات ، وسمعنا الله تعالى يقول حين وَصَفَ الحُور العِين (وَكَواعبَ أترابا) ولم يَقُل فوالك ولا نواهد . . . فآثر النظام ابتداء النهود وبالحَرَى صِغر الثَّدْى .

وقال النابغةُ :

والبَطْنُ ذوعُكَنٍ لَطِيفٌ طَيُّهُ والإِتْبُ تَنْفَحُه بِثَدْيٍ مُقْعَدِ

« الإِتْبُ : ثوب يؤخذ فيُشق من وسَطِه ثم تلقيه المرأة فى عنقها من غير جيب ولا كمّين ، وتنفحه : ترفعه ، يقال : نَفَحَ ثَدْىُ المرأة قميصَها : إذا رَفَعه ، وثدىٌ مقعَد : ناتىء على النحر لم يَنْشِزْ بَعدُ ، فهذا ممن يميل إلى الثَّدْى الكبير » .

ودَخَلَ مالك بن الحارث الأشتر على عَلِىٍّ بن أَبى طالب صبيحةَ بنائه — زفافِه — على بعض نسائه فقال له : كيف وَجَدْتَ أهلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : كخير امرأة ، لولا أنها جَدَّاءقبّاء ! فقال : وهل يريد الرجال من النساء إلاّ ذاك ! قال : لا ؛ حتَّى تُرْوِى الرَّضيع ، وتُدْفِئَ الضجيع .

---

(١) العيطل : الطويلة العنق من النوق ، والأدماء : البيضاء منها ، والبكر : الناقة التى حملت بطناً واحداً ، وهجان اللون بيضاءخالصة البياض ، ولم تقرأ جنيناً : لم تضم فى رحمها ولداً يقول : تريك ذراعين ممتلئتين لحماً كذراعى ناقة بيضاء ولم تلد بَعْدُ .

(٢) رخصا : ليّنًا ، وحصاناً : عفيفة يقول : وتريك ثدياً مثل حق من عاج بياضاً واستدارَة مصونةمن أكف من يَلمسها .

« الجدّاء : الصغيرة الثدى ، والقباء : الخميصة البطن اللطيفة الكشحين » .

فكأن عليًّا رضى الله عنه يفضل الكبيرة الثدى .

* * *

وكتب الحجاج بن يوسف الثقفى إلى الحكم بن أيوب أن يَخْطُبَ على ابنه عبد الملك امرأةً جميلةً من بعيد مليحةً مِن قريب ، شريفةً فى قومها ذليلةً فى نفسها ، أمَةً لبعلها ، فكتب إليه : إنى قد أصبتُها ، وهى خولة بنت مِسْمَعٍ ، لولا عِظمُ ثَدْيَيها ! فكتب إليه الحجاج : لا يَحْسُن نحرُ المرأة حتى يَعْظُمَ ثدياها ، وَزَوَّجَها ابنه .

ومن أبيات الحماسة التى تقدمت فى الأرداف وتقدم شرحُها :

أَبَتِ الروادِفُ والثُدِيُّ لِقُمْصِها ... مَسَّ البُطونِ وأن تَمَسَّ ظُهورَا

وإذا الرِّيَاحُ مَعَ العَشِيِّ تناوَحَتْ ... نَبَّهْنَ حامِدَةً وَهِجْنَ غَيورَا

وكذلك قول الفرزدق :

إذا انبَطَحَتْ فَوق الأنافِى رفعنَها ... بثَدْيَيْنِ فى صَدرٍ عريض وكعثب

وقد تقدم شرحه فى الفرج :

وأنشَد الحَجَّارِىُّ فى المُسْهِب لبعض الأندلسيين :

يا صاحِبَىَّ بِمُهْجَتِى خُمْصَانَةٌ (١) ... مالت فمال الغُصْنُ مِن أعطافِها

فى الصَّدْرِ منها للطِّعان أَسِنَّةٌ ... ما أُشْرِعَت إلا لحى قُطافِها

إن أنكرَت قتلى هناكَ ففَتِّشا ... تَجْدَادَمِى قَد جَفَّ فى أطرافِها

---

(١) خمصانة : ضامرة البطن .

ومثله لبعض الأندلسيين أيضا :

وحوراء تستعلي بنهدين أشرعا ... ولا غرو أن يدعو هواها فأتبعه
تقول وقد رقت لما بي : أجازعٌ ... وأنت حربي والأسنة مشرعه
فقلتُ لها : جفناكِ عزًّا تجلدي ... ونهداكِ نفسَ هيمانُ موجعه
وما زلت ألقى القرن يعلو رمحُهُ ... فكيف بمن تلقى الفؤادَ بأربعه

« الأربعة : عيناها وثدياها » .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي يداعبُ فتىً من فتيان المُلثَّمين ، وكانَ قد هزَّ رمحه عليه ،وأومأ به إليه : —

يهزُّ عَلَيَّ الرُّمْحَ ظَبْيٌ مُهفْهَفٌ ... لعوبٌ بألبابِ الرَّعِيَّةِ عابثُ
ولو كانَ رُمْحاً واحِداً لاتقيتُه ... ولكنه رُمْحٌ وثانٍ وثالثُ

« والرمح الثاني والثالث : القدّ واللحظ » .

الخصور والسرر والعكن :

قال امرؤ القيس يصف ضمورَ خصر صاحبته :

وكشحٍ لطيفٍ كالجديلِ مُخصَّرٍ ... وساقٍ كأُنبوب السَّقِيِّ المُذَلَّلِ

« الكشح : الخصر ، والجديل : العنان المجدول — المَضفور — ومخصّر : دقيق الوسط يصف خصرها بأنه ضامر يحكي في دقته الزمام المتخذ من جلد ، وقد تقدم شرح بقية البيت في السيقان » .

وقال يزيد بن الطثرية :

عُقيليةٌ أمَّا مَلاثُ إزارها ... فَدِعْصٌ وأمَّا خَصْرُها فبَتِيلُ

وقد تقدم هذا البيت مع أبيات أُخَرْ في الأرداف ، وشاهدنا هنا قوله :

وأمَّا خَصْرُها فبتيل ، والبتيل : الهضيم الدقيق ، والبتل : القطع يقول : إنه لدقته يكاد ينقطع .

ومثله قول ابن عبد ربه صاحب العقد :

يا لؤلؤًا يَسْبي العقول أنيقاً ... ورَشا بتقطيع القلوب خليقا
ما إنْ رأيت ولا سمعت بمثله ... دُرًّا يَعودُ من الحياء عقيقا
وإذا نَظَرْتَ إلى محاسِن وجههِ ... ألفَيتَ وجْهَك فى سناه غريقا
يا منْ تَقَطَّعَ خَصْرُهُ من رقه ... ما بالُ قلبك لا يكون رَقيقا

يقال : إن المتنبي لمَّا سمع هذه الأبيات صفَّق بيديه استحساناً لها وقال : والله يا بن عبد ربِّه لتأتينَّك العِراقُ حَبْوا ...

وقال المتنبي :

وخَصْر تثبت الأبصار فيه ... كأنَّ عليه من حَدَق نِطاقا

وقد تقدم .

* * *

أمَّا العُكن — جمع عكنة : ما انطوَى و تَثَنَّى مِن لَحم البَطْن — فانَّ من يستحسن من المرأة الضمور والهَيف لا يستحسن العُكن ، فان العكن لا تكون إلاَّ مع السِّمَن ، ولأجل هذا احتاج النابغة إلى التحرر فى قوله الذى أوردناه آنفاً وهو :

والبطنُ ذو عُكنٍ لَطيف طَيُّه

فان قوله لطيف طيه تحرر من السِّمَن المعيب إذ أنه أراد أن بَطنَها ألطف ما يمكن أن تكون عليه بطن ذات عُكن .

وقال ابن وكيع فيما يتصل بهذا الباب :

خُذْها بِكَفَّيْ فاتِرِ الْجُفُونِ مُدَامَةً كَدمْعَةِ المحزونِ
على غَدِيرٍ أمْلَسِ المُتُونِ مِثْلِ فِرِنْدِ صارِمٍ منونِ
أمْوَاجُهُ كَعُكَنِ البُطونِ

وقال ابن صارَةَ الأَنْدَلُسِيّ :

والنَّهرُ قد رَقَّتْ غلالَةُ مَتْنِهِ وعليهِ من ذَهَبِ الأصيل طِرَازُ
تَتَرَقْرَقُ الأمْواجُ حتى كأنَّها عُكَنُ البطونِ تَضُمُّهَا الأعْجازُ

وقال تميم بن المعز الفاطمى فى نيل مصر :

يومٌ لنا بالنِّيل مختصَرُ وَلِكُلِّ يومٍ مَسَرَّةٍ قِصَرُ
والسُّفْنُ تَصْعَدُ كالخيول بنا فى مَوجِهِ والماء يَنْحَدِرُ
فكأنما أمْواجُه عُكَنٌ وكأنما داراتُه سُرَرُ

* * *

أمّا السُّرر فقد جاء فى اللسان : السُّرّ : ما تقطعه القابلةُ مِن سُرّة الصبى، يقال : عَرَفْتُ ذلك قبل أنْ يُقْطَعَ سُرُّك ، ولا تقُلْ : سرتك ، لأنَّ السُّرّة لا تُقْطع ، وإنما هى الموضع الذى قُطع منه السُّرُّ ، أقول : وإذن تكون عبقرياتهم التى سنوردها فى هذا الموضع إنما هى فى السُّرَر التى هى موضع السُّرّ الذى يقطع فى الصغر .

ومن أوصاف السُّرّة الممدوحة فى النساء أن تكون متسعة ، وقولهم فى وصفها « كمدهن العاج » إشارة إلى اتساعها وبياضها ، وقال ابن المعتز — وجمع بين العُكن والسُّرَر — :

وتحتَ زنانيرٍ شَدَدْنَ عُقودَها زَنانيرُ أعكانٍ مَعاقِدُها السُّرَرْ

الاستحداد وتنظيف المغابن والخصاصة :

الاستِحْدَادُ :

ومما يندرِجُ فى بابِ النَّظَافَة حَلْقُ العَانَةِ أو انْتِيارُهَا ، وذلك معدودٌ مِنَ الفِطرة ، أو سُنَنِ الأنبياء .

جاء فى الحديث الشريف (مِنَ الفِطْرَةِ حَلْقُ العَانَة ، وتَقْليمُ الأظْفَار وَنَتْفُ الآباطِ والخِتَان » ومعنى أنَّ هذه الأشياء مِنَ الفِطرة : أنَّها إذا فُعِلَتْ اتَّصَفَ فاعِلُها بالفطرة التى فطر الله العباد عليها وحثَّهُمْ عليْها واستحبَّها لَهُمْ ليكونوا على أكمل الصِّفاتِ وأَشْرَفِها صورةً ؛ قال الإمامُ البيضاوى : إنَّ الفِطْرَةَ فى الأصل : الجبلَّة والاختراع والدِّين والسُّنة والمرادُ بها هنا السُّنة القديمة التى اختارَها الأنبياء واتفقَتْ عليها الشرائع ، وكأنها أمْرٌ جبلِّىٌّ فُطِرُوا عليه .

أقول : يؤَيِّدُ هذا قوله سبحانه (فأقِمْ وجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً ، فطرةَ الله التى فطرَ الناسَ عليْها ، لا تبديلَ لِخَلْقِ الله ، ذلك الدينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعْلمونَ) .

والعانة : الشَّعَر الذى فوق ذكَرِ الرجل وحوالَيْه ، وكذلك الشَّعَر الذى حوالَىْ فرج المرأة . . وحلقُهُ يسمَّى الاستِحْداد ، مِنَ الحديد ، والمرادُ حَلْقُه بِموسَى ، ويقومُ مَقامَ الموسى النُّورَة — ويقال منها: انتَوَرَتِ المرأة وانتارَتْ ، مِنَ النُّورَةِ [1] .

---

(١) النورة : الحجر يحرق ويُسَوَّى منه الكِلْس — الجير — ثم غلب على أخلاط تضاف إلى الكلْس يُزَال بها شعر العانة ، والنساء يعرفن النورة .

وقال القصصيّون : إنّ الجنّ هُمْ أوّلُ مَنِ اتّخذَ النُّورَة لبلقيسَ ، قالوا : إنّ سليمانَ عليـــه السلام لمّا راسلَها ، وكان ما قصّه الله تعالى من قصّتها ، وأتتْ إليه ، قالتِ الجنُّ : إنْ رآها سليمانُ واستحْسَنها وتزوّجها فأولَدَها غُلاماً لَنْ نبْرح من العبُودِيّةِ آخرَ الدهر !

وكانت بلقيسُ شعْرَاء السّاقَيْن ، فبنَوْا صَرْحاً مُمَرَّداً مِنْ قوارير ، : أى زُجاج ، وصوّرُوا فيه حيوانَ البحر ، وَجلسَ سُليمانُ فى أقصاه على كُرْسِيّ ، واستدعى بلقيسَ لتَراهُ وتتعجّبَ مِنْهُ ، وإنما أرادَ الجنُّ بذلكَ ليظهرَ لسليمانَ شعر ساقيها فتنبو عينه بها ، فلما رأته بلقيس حَسِبتْه لجة وكشفت عن ساقيها لتخوضه ، فرآها سليمان فأعجبه حسنها ، واستقبح شعرها . فعزمَ على بعض الجنّ أن يعرّفه بما يُذْهِبُ هذا الشّعر ، فاخترع النُّورة ، فانتارَتْ بها وتزوّجها سليمان عليه السلام .

ومِنْ كلامهم : اللذات أربع : فلذةُ ساعَةٍ ، وهِىَ الجماعْ ، ولذة يوم ، وهى الحمّام ، ولذة جُمُعة — أى أسبوع — وهى النورة ، ولذة حَوْلٍ — أى عام — وهى تزوجُ البكر .

ومن كلامهم : ألذُّ الجماع بالمرأة فى يوم انتِيارِها — إزالةِ عانتها — والرجل بعد ثلاث من استِحْداده — أى حَلْق عانته .

وقال يزيد بن المهلّب بن أبى صُفرَة : وددت لو كانت طلية نُورَة بمائةِ ألفٍ ، ولو كان فَرْجُ المرأة فى جَبْهَة أسَد ، حتى لا يطَّلِيَ إلا كريم ولا يَصِلَ إلى الفرْج إلاّ شجاع . . .

وهذه الكلمة — كلمة يزيد بن المهلب يُروَى قريبٌ منها للخليفة الخليع الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهى (وَدِدْتُ أنّ كُلَّ كاسٍ تُشْرَبُ من

خمرٍ بدينار وأنَّ كُلّ حِرٍ فى جَبْهَةِ أسد فلا يشْرَبُ إلا سَخِيٌّ ولا ينكِحُ إلا شُجَاع) ومن طُرَف ما رُوِىَ فى باب النورة والاطلاء بهـا أنَّ أعرابيًّا دخل الحَضَر مع صاحِبَيْن له فَأَحَبَّ صاحِباه دخولَ الحمَّام ، فنهاهما الأعرابى عن ذلك ، فأبيَا إلا دخولَه ، ورأيا رجُلاً ينتارُ ، فسألا عن ذلك ! فاخبرا بخبرَ النُّورَة ، فاستعملاها ولم يحْسِنَا استعمالَها ، فأحرقَتْهُما ، فقال الأعرابي وقد أورَد أبو تمام فى حماسَتِه هذه الأبيات — :

لعَمْرِى لقد حذَّرتُ قُرطًا وجارَهُ ... ولا ينفَعُ التحذِيرُ مَن ليس يَحْذَرُ

نَهَيْتُهُما عن نُورَةٍ أحرقَتْهُما ... وحمَّام سَـــوءٍ ماؤُهُ يتسَعَّرُ

فمـــا منهُما إلاَّ أتَانِى مُوَقَّعًا ... بِهِ أَثَرٌ مِن مَسِّهَا يتقَشَّرُ (١)

أَجِـــدَّكما لم تَعْلَمَا أنَّ جارَنَا ... أبا الحِسْلِ بالصَّحراء لا يَتَنَوَّرُ (٢)

ولم تَعْلَمـــا حَمَّامَنَا بِبـــلادِنَا ... إذا جَعَلَ الحِرْباءُ بالجِذْلِ يَخْطِرُ (٣)

* * *

(١) موقعاً : به أثر جروح ، من قولهم : بعير موقع : أى به آثار جروح ، وتقشر الجرح : علاه قشر .

(٢) أجدكما : كلمة لا تستعمل إلا مضافة ومعناها القسم ، ويجوز فى الجيم الكسر والفتح فاذا كسرت كان المعنى أنه يستحلفه بحقيقته وإذا فتحت استحلفه ببخته وحظه ، وأبو الحسل : كنية الضَّبّ ، يقول : أستحلفكما بحقيقتكما ألم تعلما أن الضب لا يستعمل النورة حتى تركتما الاقتداء به يريد أنكما من سكان الصحراء التى لا يعرف قطانها النورة فكيف تستعملانها وأنتم لستم من أهل الحضر ، وقد خطأ بعض العلماء قوله يتنور وإنما يقال من النورة انتارا انتيارا أو انتورا نتوارا أما تنوّر فانما يقال لمن نظر إلى النور ، وأجاز بعضهم تنور من النورة واستشهد بهذه الأبيات .

(٣) الحرباء : دويبة تستقبل الشمس برأسها دائماً ويضربون المثل بها فى كثرة=

ونوردُ هنا بعضَ عبقرياتهم فى الحمام ، فمِن ذلكَ قولُ ابن خَفاجه الأندلسى :

أهلاً ببيتِ النَّارِ مِن مَنْزِل ... شِيـــدَ لأبْرارٍ وَفُجَّارِ
يدخـــلُه ملتمِسٌ لَذَّةً ... فيدخُلُ الجَنَّـةَ فى النَّارِ

وقال أبو طالب المأمونى مِن شُعراء اليتيمة :

وَبَيْتٍ كأحْشاءِ المُحِبِّ دخلتُهُ ... ومالِى ثيابٌ فيـــه غيرُ إهابِى
أرَى مُحرِماً فيـه وليسَ بكعْبَة ... فمـــا ساغَ إلا فيه خَلعُ ثيابِى
بماءٍ كَدَمْعِ الصَّبِّ فى حرِّ قَلْبِهِ ... إذا أذَنَتْ أحْشاؤُهُ بذهابِ
توهَّمتُ فيه قِطعَةً مِن جهنَّمٍ ... ولـكنَّها مِن غيرِ مَسِّ عِقابِ
يُثيرُ ضبابًا بالبُخارِ مُجدَّلاً ... بُدُورُ زُجاجٍ فى سماء قباب

ومنَ الفِطْرَة تنظيف المغابن — وهى الأرفاغ والآباط — والأرفاغ جمع رُفغ : بواطن الأفخاذ عند الحوالب ، وفى حديث عكرمة « مَن مَسَّ مغابنَه فليتوضَّأ » وذلك منه احتياطا ، فإن الغالبَ على من يَلْمَسُ ذلك الموضعَ أن تقَع يدُهُ على ذَكَرِه ، وقد أسلفنا فى تقليم الأظفار قولاً على المغابن . وأمَّا الإبط فقد قالوا : إنَّ المقصودَ هو تنظيف الإبط ولو كان بالحلْق — أى بحلقِه بنحو مُوسَى — على أنَّ النَّتْفَ هو السُّنَّة ، وهو وإن كانَ مُوجعاً فى الابتداء غير أنه يَسْهُل على مَن اعْتادَه .

ومما قالوه فى نَتْنِ الإبطِ والجسَدِ :

وإبطُكَ قابِضُ الأرواحِ يرمى ... بِسَهْمِ الموتِ مِن تحتِ الثيابِ

= التلون ، والجذل : أصل الحطب العظيم ويخطر : يحرك ذنبه ، يقول : ألم تعلما أننا فى شدة أيام الحر والقيظ لا نغتسل فى الحمامات إذ ليس فى صحرائنا حمامات ولـكن نغتسل فى بيوتنا وأخبيتنا !

و : ريحُـــه ريحُ كلابٍ هارشَتْ فى يَومِ طَـــلّ

و : يا رحمتى لبخورِهِ مِن نَتنِه كم فِى الكنيفِ يَضِيعُ ريحُ العنبَرِ

و : فلانٌ أنتَنُ مِن رِيحِ الجَوْرَب .

وقال عبد الرحمن بن أبى عبد الرحمن بن عائشة — وكان خليعا من أهل البصرة — :

مَنْ يكُنْ إبْطُهُ كآباطِ ذا الخلْـــق فَإبْطَاىَ فى عِدادِ الفِقاحِ

لِىَ إبطانِ يَرْميانِ جَلِيسِى بِشَبِيه السُّلاَحِ أو بالسُّلاَحِ

فكأنِّى مِنْ نَتْنِ هذا وهذَا جالسٌ بينَ مُصْعَبٍ وصَبَاحِ

« الفقاح جمع فقحة : الدُّبُر أو حَلْقَتُه ، والسُّلاح : ما تُلْقيه من العِذرَة ، ومصعب هو مصعبُ بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العَوّام ، وصباح هو صباح بن خاقان المنْقَرى ، وكانا جليسين لا يكادان يفترقان ، وصديقين متُواصِلين لا يكادان يتصارَمان ، وكانا مِنْ مَشَايخ العِلْم والأدَب والمروءة ، يرميهما هذا الشاعر الخليع بالبَخَر » .

* * *

وأمَّا الخِفَاضُ أو الخفض فهو للفتَاة كالختان للصَّبي ، فالخفَاضُ هو قَطْعُ بَظْر الصَّبيَّه ، وقد جاء فى الحديث أن سيدنا رسول الله قال لأم عطية الخاتنة « إذا خفضتِ فأشِمِّي ولا تَنْهكى ، فانه أضْوأ للوَجه واحْظى لها عند الزوج » « يقال : أشَمَمْتِ الخافِضَةُ البَظْرَ : أى أخذت منه قليلا ، وقوله : ولا تنهكى : أى لا تأخذى من البظْر كثيرا ، شبَّه القطع اليسير بإشمام الرائحة والنَّهْكِ بالمبالغة فيه ، أى اقطعِى بعض النواة ولا تَسْتأصِليها ومِن ثم يجبُ أنْ يُوصَى الخافِضَاتُ بأن يراعينَ ذلك لَدَى الخِفاض فلا يُبالِغْنَ فى قطْعِ البَظْر فإنَّ إنهاكه —

أى استئصاله — يَحْرِمُ المرأةَ لذةَ الجماع ، فلا تَحْظَى عنـد زوجها . وسُنَّةُ الخِفاضِ مَتَى رُوعِى فيهـا الاعتدال كما علّمنا سيدنا رسول الله من السُّنَنِ المستَحَبَّةِ التى يُظاهرها الطِّبُّ وهى إنْ تُرِكَتْ أصلاً كان هذا التركُ مِنْ أسباب الغُلْمَة عند النساء[1] الأمر الذى قد يَضُرُّ بهنّ ويعصِفُ بحيويَّتِهِنّ إذ يؤدّى بهن إلى حُبِّ الجماع ، وقد تزِلّ أقدامهن مِن جرّاء ذلك .

وروى بعض قضاة الأندلس أنه أحصى فى إحدى القرى من خُفِضَ من النساء ومن لم يُخْفَض ، فوجد العفاف فيمن خُفِض وأكثر الفواجر بَظْراوات .

وكانت العربُ تعيبُ المرأة التى لم تُخْفَضَ ، ومن قولهم فى السَّبِّ : يا ابنَ المُتْكَاء . يَعْنُون البظراء ، أو عظيمة البظْر .

* * *

ومِن طَرِيفِ ما يُرْوَى فى حِكمة الختان — أى ختانِ الرجال — ما حكاهُ مُؤَرِّخ الأندلس ابن حيّان : أنَّ الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام أمير الأندلس وجَّهَ الشاعر الحكيم السِّياسِى اللبق الظريف يحيى ابن حكم الجَيَّانى الملقب بالغزال لجماله وأناقته ، إلى صاحب قُسْطَنطينيَّة — الامبراطور تيوفيلوس قيصر قسطنطينية — وقدمه الامبراطور إلى زوجه الامبراطورَة تِيُودُورَا ، فأنِسَتْ به وأُعجِبَتْ بظَرفه وسألته فيما سألت عن السبب الذى دعا المسلمين إلى الختان وتغيير خلق الله مع خُلوه مِنَ الفائدة ! فقال : إنّ فيه أكبر فائدة ،

---

(١) الغُلمة : هيجان شهوة النكاح .

وذلك أن الغضَ إذا زُبِرَ[1] قوى واشتد وغلُظ ، وإنْ لم يُفعل به ذلك كان رقيقا ضعيفا ، فضحِكتْ واستملحت كلامَه .

السيقان :

وعلى ذكرِ بلقيسَ وساقَيها نوردُ هنا صدراً من عبقرياتهم فى السِّيقان ؛ قال الثعالبى فى فقه اللغة : ويُسَمَّى الشَّعرَ الذى يكون فى ساق المرأة : الغَفْر ، قال علماء اللغة : الغَفْر : شَعَرٌ كالزَّغَب يكون على ساق المرأة والجبهة ونحو ذلك ، وكذلك الغَفَر ، قال الراجز :

قد عَلِمَتْ خودٌ بِساقَيها الغَفَرْ لِيَرْوِيَنْ أَوْ لِيَبِيدَنَّ الشَّجَرْ

هذا ، ويقال : ساقٌ خدَلَّجَةٌ ، أى ممتلئةٌ لَحْماً .

أَنْشَدَ الأَصمعىُّ :

إنَّ لهـــا لَساقِيًا خَدَلَّجَا لم يُدْلِجِ الليـلة فِيمَن أدلَجَا

« يعنى جاريةً — فتاة — قد عشقها فركبَ الناقةَ وساقها من أجلها » .

وكذلك يقال : ساقٌ خَدْلاءُ وخدْلَةٌ ، وتوصف به المرأة فيقال : امرأةٌ خَدْلاءُ وَخَدْلَةٌ : كناية عن امتلاء ساقَيها وذراعَيْها ، ومثل ذلك المكورَة ، يقال : امرأة مكورَةٌ : أى مُرتوية الساق خَدْلَةٌ ، وعلى الضِّدّ من ذلك فى صفة الساق الحموشة ، يقال : امرأة حَمْشَةُ الساقين : أىْ دقيقتهما . ومن عبقرياتهم فى وصف السِّيقان قول امرىء القَيس :

وَكَشْحٍ لطيفٍ كالجديل مُخَصَّرٍ وَساقٍ كأُنبُوبِ السَّقِى المذلَّلِ

(١) زُبِرَ : يريد قُطِعَ ومنه زبرة الحديد وهى القطعة منه قال تعالى (آتونى زبر الحديد) وقال سبحانه (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا) أى قطعا .

« الجديل : الزمامُ المجدولُ من أدَم — جِلْد — وكشيح مُخَصَّر : دقيق ، والسَّقِيُّ : البردىّ واحدته سَقِيَّة ، وهى لا يفوتها الماء ، سمى البردِىّ بذلك لنباته فى الماء أو قريباً منه ، والمذلَّلُ : أى الذى ذلِلُ بتدلى ثمار النخيل عليه ، يقول : إنها تُبدِى عن كشح ضامِر يحكى فى دقته الزمام المتخذُ من جلد ، وعن ساق يحكى فى صفاء لونه وامتلائه وبياضه أنابيبَ بردِىّ بين نخل قد ذللت بكثرة الحمل — الثمر — فأظلَّت هذا البردى ، وإنما اشترط ذلك ليكون أصفى لوناً وآنَقَ رَونقاً » .

وقال كُشاجِم :

وَإذا لبسْنَ خَـلاَخِلاً كَذَّبْنَ أَسْماء الْخلاخِلْ
يأبَى تخلخُلَهُنَّ سُو قٌ مُرَجَّحِنَاتٌ خَوادِلْ

قوله : كذَّبْن أسماء الخلاخل لأن من شأن الخلاخل أن يكونَ لها وسْوسَة وصوت يقول : لامتلاء ساقيها لم تتحرك الخلاخل فلم يكن لها صوت كما قال المُؤمَّل بن أُمَيل :

عجِبْتُ لِمَنْ يطيِّبُنِى بمسْكٍ وبى يتَطَيَّبُ المِسْكُ الفَتِيتُ
خَلاخِيل النساء لهـا وَجِيبٌ وَوَسْوَاسٌ وَخَلْخَالِى صَمُوتُ (١)

وقال خالد بنُ يَزيد بن مُعاوية فى زَوجه رَمْلَةَ بنتِ الزُّبير :

تجولُ خلاخِيلُ النساء ولا أَرَى لِرَمْلَةَ خَلخالاً يَجُولُ ولا قُلْبَا (٢)
فلا تُكْثِرُوا فيهـا الملامَ فإنَّنى تَخَيَّرْتُها منْهم زُبَيْرِيَّةً قَلْبَا (٣)

(١) الوسوسة : صوت الحلىّ وصوتها وَسْواس .
(٢) القلب : ضرب من الأسورة .
(٣) قَلْبا بفتح القاف أىْ خالِصةِ النَّسَبِ يقال : رجل قَلْب وامرأة قَلْب يريدون محض النسب خالصه .

أُحِبُّ بَنِى العَوامِ طُرًّا لُحبِّها ومِنْ أجْلِها أحْبَبْتُ أخْوالَها كلبا[1]

وزاد فيها شياطينُ الانسِ :

فان تُسْلِمِى أُسْلِمْ وإنْ تَتَنَصَّرِى يُعَلَّقْ رِجالٌ بين أعْيُنِهم صُلْبا

فَيُرْوى أنَّ عبدَ الملكِ ابن مَرْوَانَ ذُكِرَ له هذا البيت ، فقال : يا خالد ، أتروِى هذا البيت ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، على قائله لعنة الله . . .

وقال ابن أبى زُرْعة [2] :

استَكْتَمَتْ خلخالَها ومَشَتْ تحتَ الظلامِ بِهِ فما نطقا
حتى إذا ريحُ الصَّبا نَسَمَتْ مَلأَ العَبِيرُ بِسَيْرِها الطرُقا

وقالَ بعضُهُم :

ما أنْسَ لاأنسَ إذ زارتْ على فَرَقٍ والنجْمُ فى الجانبِ الغربىّ مهزومُ
واستمسَكَتْ حَلْيَها خوفاً فقال لها خَلخالُها : إنَّ ما تخشينَ مكتومُ
ونَمّ حَلْىُ التَّراقِى فانثنَى قلقاً وشاحُها رحمة والحسنُ مرحُومُ

وَمِمَّا قِيلَ فى السِّيقان :

ساقٍ تَجلَّى كأنَّهُ قمرٌ يَحمِلُ شَمْساً ، أفْدِيهِ من ساقِ
شَمَّرَ عَن ساقِهِ غلائلَهُ فقلتُ : مَهْلاً ، واكْفُفْ عَن الباقى

---

(١) وذلك أن رملة ومصعب بن الزبير أمهما أم الرباب بنت أنيف بن عُبيد بن مَصَاد من بنى كلب بن وَبْرة .

(٢) هو المعلى بن سلمة بن أبى زرعة الكنانى الدمشقى وكان معاصراً لديك الجن وكانا شاعرى الشام فى وقتهما .

لَمَّا رآنى ، وقـــد فتنت به من فَرطِ وَجْدِى وعُظم أَشْواقِ
غَنَّى وكأسُ المـــدام فى يده قامَتْ حُرُوبُ الهوى على ساقِ . .

الأقدام :

وإذْ أوردنا عبقرياتهم فى السيقان فلنوردْ هنا ذَرْواً من عبقرياتهم فى الأقدام ، والأقدام جمع قَدَم ، وهى مِن لَدُن الرُسْغِ[1] : ما يطأ عليه الإنسان ، وهى والرِّجْل مُؤنّثتان .

وأحسن الأقدام السَّبْطَة التى لاَنَ عَصَبُها وطابت سُلَامياتُها[2] وأصابعُها ، وضِدُّها الكَزْماء ، وهى القَصيرة المتقلّصة الغليظة ، ومن ثَمَّ كانَ تشبيههم القَدَم باللسان يكنُونَ عَنْ سبوطتها ولطافتِها .

وقال ابن الزومى :

تَغْشَى غواشِى فُروعِها قَدَماً بيضاءَ للناظِرينَ مُقْتَدَرَهْ
مِثْلَ الثُرَيّا إذا بَدَت سَحَراً بعـــد غَمامٍ وحاسِرٍ حَسَرَهْ

« مقتدرة بفتح الدال : لطيفة ، لا هى بالقصيرة ولا بالطويلة . والمقتَدَر : الوسط من كل وَسط شيء ، ورجُلٌ مقتَدَر الخلْق : أى وسَطُه ليس بالطويل ولا بالقصير[3] ، وحاسر حَسَره : أى وبعد حاسِرٍ حَسَر الغمام ، من حَسَرَ العمامة عن رأسه والثوبَ عن بَدَنِهِ : أى كَشَفَهُما » .

---

(١) الرسغ هنا : مجتمع الساقين والقدمين ، أو مفصل ما بين الساق والقدم .

(٢) السلاميات هنا : عظام الأصابع فى القدم .

(٣) مقتدره ومقتدَر أراها بفتح الدال وإن جاءت فى اللسان بكسرها وإنى أظنها خطأ مطبعياً وكم فى اللسان من أخطاء .

ومما يستحب فى القدم الدرم ، قال ابن سيده : درم الكعب والعرقوب والساق درما ، وهو أدرم : استوى ، قال الراجز :

قامت تريك خشية أن تصرما ساقا بخنداة وكعبا أدرما
وكفلا مثل النقا أو أعظما

« الأدرم : الذى لا حجم لعظامه ، ومنه الأدرم : الذى لا أسنان له ، يريد الراجز : أن كعبها مستو مع الساق ليس بناتىء ، فان استواءه دليل السمن ونتوءه دليل الضعف ، والبخنداة كالجبنداة : الساق التامة الممتلئة الريا ، والكفل : الردف ، والنقا : القطعة المحدودبة من الرجل » .

ومما يستحسن فى القدم أن يكون عرقوباها حسناوين ، وفى الأثر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أم سليم لتنظر امرأة فقال : (شمى عوارضها وانظرى إلى عرقوبيها) « العوارض : الأسنان التى فى عرض الفم وهى ما بين الثنايا والأضراس ، واحدها عارض ، أمرها بذلك لتختبر نكهتها — رائحة فيها — والعرقوب : ماضم أسفل الساق والقدم ، أو هو : العصب الغليظ المؤتر فوق عقب الانسان » قال الأصمعى : إذا اسود عرقوب المرأة اسود سائرها ، وهذا هو ما يغزوه — يقصده — النابغة بقوله :

ليست من السود أعقابا إذا انصرفت ولا تبيع بجنبى نخلة البرما

« إذا انصرفت : يريد اذا أدبرت ، ونخلة موضع والبرم : ثمر الطلح — وثمره السلم وثمر الأراك ، يقول : ان هذه المرأة ليست عراقيبها سودا ، وليست من أولئك اللائى يبعن الثمار فى الأسواق ، يريد أنها متنعمة لم تلق بؤس معيشة » .

***

وكانت عائشة بنت طلحة مِن أجمل النِّساء وَأَتمِّهنَّ محاسِنَ ، بَيدَ أنه مع ذلك كانَ فيها عيبانِ اثنان : كِبَرٌ فِي أُذُنَيها ، وَعِظَمٌ مُفرِطٌ فِي قَدَمَيها ، وكانَتِ ضَرَّتُها رَمْلَةُ بنت عبد الله بن خَلَف كبيرَةَ الأنفِ ، وكانت عائشة تعيبُها بذلك ، فَيبلغ ذلك رَمْلَةَ ، فتقول : أَتُراها نَسِيَتْ أُذُنَيها وَقَدَمَيها !

وقال صاحب تحفة العروس : وقال أبو بكر بن مجير الأندلسى — وهو مما يكتب على قبقاب — :

لا يَدَّعِي العاشِقونَ الحُبَّ منزلَةً ... إلاَّ إذا احتَمَلُوا لِلْحُسْنِ كُلَّ أَذَى
لو لم أَكُنْ أَنفَذَ العُشَّاقِ فيه لَمَا ... أَوْطأتُ خَدَّيَّ أَقْدامَ الحِسانِ كَذا

الألوان :

البياض :

قالت عائشة (البياض نصف الحسن) .

وقال المؤمل بن أميل :

شَهِدَ المؤمّل يومُ يَلقَى رَبَّهُ ... أَنَّ البياضَ طِرازُ كل جَمالِ

وقالوا : إنَّ البياضَ يُمازِجُهُ لونان يَزيدانِه حُسْناً : الحمرةُ والصُّفْرَةُ ، فأمَّا الحُمرَةُ فتعترى البياض مِنْ رقَّة اللَّون وصِحَّةِ الدَّم ، وأمَّا الصُفرة فتعترى البيضَ لاستتارهنَّ وملازَمَتِهنَّ الكِنَّ والنَّعْمَةَ — الرَّفَه — والخفض والدَّعَة ، وتعتريهنَّ أيضاً لملازَمَتِهنَّ التَضَمُّخ بالطيب — ومن أَشَدِّ ما يَتَضَمَّخ به تأثيراً فى لون البشرة وإحالة بياضها إلى الصفرة ما يعرف اليوم بالتواليت ، ويقال : إن المرأةَ إذا كانت عتيقَةَ الحُسْنِ ناعمَةَ البَدَن فانَّ لونَها يكونُ مِن أوّل النهار

إلى ابتداء العشيّة يَضْرِبُ إلى الحُمرة ، ومن ابتداء العشيّةِ إلى آخر النهار يَضرِبُ الى الصُّفْرَةِ ولذا قال الأعشى :

بيضاءُ غُدْوَتُها وَصفْراءُ العَشيّة كالعَرارَة .

ومعناه : أن المرأة الناصعةَ البياض الرقيقةَ البَشَرَةَ تَبْيَضُّ بالغداةِ ببياضِ الشَّمسِ وتَصْفَرّ بالعَشِيِّ باصفرارها ، والعَرارَة : واحدة العَرارِ وهو وردةٌ ناعمة صفراء طيبة الرائحة : قال الصِّمَّةُ بن عبد الله القُشَيرى :

أَقول لِصاحِبي والعِيسُ تَهْوِى بِنا بين المُنيفَةِ فالضِّمارِ (١)
تَمَتَّعْ من شَمِيمِ عِرارِ نجدٍ فما بعد العَشِيَّةِ من عرار (٢)
أَلاَ يا حَبَّذا نفحاتُ نَجْـــدٍ وَرِيًّا روضِهِ بعد القِطار (٣)
شُهورٌ ينقَضِين وما شَعَرْنا بأَنْصافٍ لَهُنّ ولا سِرارِ (٤)

قالوا : وهذا كله مُبالغة فى وَصف المرأة بالصَّفاء والنعمة ، وليس شيء منهُ على الحقيقة على أنه قد قيل فى بيت الأعشى ونظائِره إنَّهم يريدون أنها تُمْسى رادِعَةً — أى مُلَطَّخَة بالطيب — وتغتسل بالغَداةِ فتبْيضّ لأجل ذلك .

قال بشار بن بُرد :

بانَتْ بقَلْبِيَ صَفْراءُ رادِعَةٌ صَبَّتْ عليهـا مِن حُسْنِها فِتَنَا
كأَنَّهـا رَوضَةٌ مُنوِّرَةٌ تجمَعُ طيباً ومنظَرًا حَسَنَا

---

(١) المنيفة : ماء لبنى تميم والضمار اسم موضع .
(٢) الشميم مصدر
(٣) القطار جمع قطر وهو المطر .
(٤) السرار : آخر ليلة فى الشهر يقول : ان هـــذا الزمان شهور مضت وما علمنا بأنصافها ولا بأواخرها لما كنا فيه من السرور وطيب العيش .

فقد أخبر أن صفرتها إنما هى لأجل الطيب .

قالوا : ومَن شبَّهَ المرأةَ بالبَيضَةِ فإنَّما أراد الصفرةَ التى فيها ، وقد جاء ذلك فى قوله تعالى (كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مكنون).

وقول امرىء القيس :

كَبِكْرِ المُقَانَاةِ البياضَ بِصُفْرَةٍ غَذاها نَمِيرُ الماءِ غيرُ المُحَلَّلِ

«البكر فى كل شىء : ما لم يَسْبِقْه مثله ، والمقاناة : الخلط ، يقال : قانيت بين الشيئين : إذا خلطت أحدهما بالآخر ، والنمير : الماء النامى الناجع فى الرّى يقول : إن صاحبته كبكر البيض الذى قونى — خوطِطَ — بياضُه بصُفْرة ، قال الزوزنى : يعنى بيض النعام وهو بيضٌ تخالطُ بياضها صفرة يسيرة ، شبَّه لون صاحبته بلون بيض النعام فى أن فى كل منهما بياضاً خالطته صفرة ، ثم رجع إلى صفتها فقال : غذاها ماءٌ نمير عذبٌ صافٍ لم يكثرْ حولَ الناس عليه فيكدّرُهُ ذلك ، والماء إذا عذُبَ وصفا كان تأثيره فى رىّ شارب وغذائه أنجع وذهب بعضهم فى معنى البيت إلى غير ذلك والبياض فى البيت لك أن تقرأه بالفتح وبالخفض » .

وَفِى استحسان لون الصفرة يقول ذو الرُّمَّة :

بيضاء فى دَعَجٍ صفراء فى غُنُجٍ كأَنَّها فِضَّةٌ قد مَسَّها الذَّهَبُ[1]

وقال قيس بن الخطيم :

هيفاء ، مِثلُ الشمس عند طلوعِها فى الحُسنِ أَو كَدُنُوِّها لِغروبِ

وقال أحد شعراء الخريدة لابن بسام :

وَقَيْنَةٍ قال لهـــا ناقِصٌ كَمُلْتَ لولا صُفْرَةُ اللَّونِ

(١) الدعج شدة سواد العين وشدة بياض بياضها والغُنُج والغُنْج تكسّر وتدلّل وهو أيضاً ملاحة العينين .

قلتُ : اتَّئِدْ فالشَّمْسُ مُصْفَرَّةٌ وَهْيَ صَلَاحُ الأَرْضِ فِي الكَوْنِ

وَقَالَ البحترى :

بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي وَجْهِهِ إنَّ حَمْدَهُمْ مِنَ الدُّرِّ ما اصْفَرَّتْ نواحِيهِ فِي العِقْدِ

وَقَالَ الأَرَّجَانِيُّ :

راقَ ماءُ الحياةِ مِن وَجْنَتَيْهِ فَهْوَ مِرآةُ أَوْجُهِ العُشَّاقِ

وقال الأرَّجانيُّ أيضاً يصف صفاء الوَجه ورقَّة البَشَرَةِ :

وأُغْيِدَ رَقَّ ماءُ الوَجْهِ فيه فلو أَرْخَى لثاماً عنه ، سالا

تَبِينُ سوادَها الأبصارُ فيهِ فحيثُ لحظتَ منه حَسِبْتَ خالا[1]

وقال بشار :

وما ظَفِرَتْ عَيْنِي غَدَاةَ لَقِيتُها بشيء سوى أَطْرَافِها والمحاجِرِ

بحَوراء مِن حُورِ الجِنَانِ عَزِيزَةٍ يَرَى وَجْهَهُ فِي وَجْهِها كلُّ ناظِرِ

السمرة :

أَتى رَجُلٌ ابنَةَ الخُسِّ يستشيرُها فى امرأةٍ يَتزوَّجُها ، فقالت : انْظُرْها رَمكاء جَسيمَة ، أو بيضاء دَسيمَة ، فِي بيت جَدٍّ[2] ، أو بيت حَدٍّ[3] ، هؤلاء امَّهات الرجال قال : ماتَرَكْتِ من النساء شيئاً ! قالت : بلى ! شرُّ النساء تركت : السَّوداء المِراض ، والحُمراء المحياض ، الكثيرة المِظاظ .

---

(١) الخال : الشامَة وهى سوداء .

(٢) الجدُّ : الحظ .

(٣) المحدود : المحروم المضيق عليه فى الرزق .

« رَمْكاء : سمراء ، والرملة : لون الرَّمادُ ، ومنه قولهم : بعير أرمك ، وقولها فى بيت جَدّ أو بيت حَدّ فالبيت فى كلام العرب كناية عن الشرف ، وتريد بقولها هذا أنها اذا كانت شريفةً مجدودة فقد جمعت إلى شَرَفِها الثروة ، وإذا كانت محدودة كانت أرْضي باليسير وأقْنعَ بالبُلْغَة وأدْنى إلى الاستخذاء والألفة ، والمِظاظ : المُشارّة والمشاقّة »[١].

* * *

ومثل كلام ابنة الخُسّ ما يروى أنّ غيـــلانَ بن سلَمة قالَ لبنيه حين احتُضر : يا بَنِيَّ ، عليكم ببيوتات العَرب[٢] فإنّها مَدارج الـكرم ، وعليكم بِكُلِّ رَمْكاء ركينة[٣] أو بيضاء رزينة فى بيتِ جَدّ أو بيت حَدّ . .

وقال أعرابىٌّ :

مِنَ السُّمْرِ اللِّدَانِ إذا اسبكرَّت وَصِرْفُ المَوتِ فى السُّمْرِ اللدانِ[٤]
شبيهاتُ الرِّماحِ قَنًا مُتونٍ وَكَلْماً فى القلوب بلا سِنانِ[٥]

وقالَ بعضهم :

وَسَمْرَاء باهَى كُلْفَةَ البَدرِ وَجْهُها إذا لاحَ فى ليلٍ من الشَعَرِ الجَعْدِ[٦]

---

(١) المشارة من الشراى كثيرة الشر والمشاقة : أى كثيرة الشقاق .

(٢) أى باشرافهم . (٣) رمكاء : سمراء ، وركينة : متزنة عاقلة .

(٤) اللدان : اللينات ، وصرف الموت : أى الموت الصرف ، والسمر اللدان : الرماح ، واسبكرت : اعتدلَت قامتُها .

(٥) كلْماً : جرحا ، وقنا متون فالمتون : الظهور وقنا جمع قناه ، وقناة الظهر : التى تنتظم الفقار ومن كلامهم : فلانٌ صُلْب القناة أى صلب القامة والقناة عند العرب : القامة .

(٦) الـكلفة : لون بين السَّواد والحمرة ، وباهاه : فاخره فى الحسن والشعر الجعد : غير المسترسل ، والعرب تتمدح بالشعر الجعد لأن سبوطة الشعر هى الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس وجعودة الشعر هى الغالبة على شعور العرب .

مُحَبَّبَةٌ مِن حَبَّةِ القَلب لونُها وطِينتُها لِلمِسْكِ والعنبَرِ الوَرْدِ[1]

وقال بعض شعراء الأندلس ، واسمه ابن فتّوح ، كما فى الذَّخيرة لابن بسّام :

قَدٌّ قضيب وَبَدْرُ دَيْجُورِ وثَغر دُرٍّ ولَحْظُ يَعْفُورِ[2]
نَازلَ صَبْرِى وأىُّ مُصْطبَرٍ يَبْقِى بِتِلْكَ اللواحِظِ الحُورِ
كأنمـــا نُورُهُ وَسُمْـــرَتُه مِسكٌ مَشوبٌ بِذَوب كافورِ

وقال ابن بُرد الأصفر من شعراء الأندلس :

كيف لا أَعْشَقُ ظَبْياً سارِحا فى ظِـــلِّ مُلْكِ
إنَّمَا السُّمرَةُ فيـــه مَزجُ كافُورٍ بِمِسْكِ

السوّار :

ليس للنساء السُّود من الصفات المستحسنة ما يمتَزْن به إلاَّ نقاءَ الثُّغور وحرارَةَ الفروج ، أمَّا الصفات المذمومَة مِن تَشَقُّقِ الأطراف والشفاهِ وصغَرِ الفروج وَنَتْنِ العَرَق وشراسة الأخلاق فهى الغالِبة عليهن ، وهناك من النساء السود من هُنَّ سالمات من هذه الصفات المذمومة جمعاء .

وفى وصف السُّود يقول أبو حفص الشَّطْرَنجى :

أَشْبَهَكِ المِسْكُ وَأَشْبَهْتِه فَأَنْتِ فى لَوْنِه فَاعِـــدَهْ
لا شَكَّ إذ لَوْنُكما وَاحِـدٌ إنكما مِن طينة واحِـدَهْ

---

(١) العنبر الورد : أى الأحمر قال ابن سيده : الورد : لون أحمر يضرب إلى صفرة حسنة فى كل شىء .

(٢) اليعفور : الظبى .

وقال أعرابيٌّ :

أُحِبُّ لِحُبِّهَا السُّودانَ حَتَّى ... أُحِبُّ لِحُبِّهَا سُودَ الكلاب

وأَنْشَدَ الجاحظ :

وَإِنَّ سَوادَ العَينِ فى العَين نُورُها ... وما لبياض العـــين نُورٌ فيُعلَما

أخذ المتنبى من هذا إذ يقول يمدح كافوراً :

فجاءتْ بِنَا إنسانَ عـــينِ زَمانه ... وخَلَّت بياضاً خَلْفَها ومآقيا

« شبَّه من عدا كافور ببياض العين لأنه لا ينتفع به فى النظر وجعل كافوراً إنسان العين — كنى بذلك عن سواد لونه وأنه هو بيت القصيد فى أبناء هذا الدهر فإن البصر فى سواد العين وما حوله بياض ومآق ليست هناك » .

وقال الشريف الرضى :

أُحِبُّكِ يا لَونَ الشباب لأَنَّنِي ... رأَيتُكُما فى القلب والعـين تَوْأما

سَكنتِ سَوادَ القلبِ إذ كُنتِ شِبْهَهُ ... فَلَمْ أَدْرِ مِن عِزِّ مَنِ القلبِ فِيكُما

وما كانَ سَهْمُ العَـينِ لولا سَوَادُه ... لِيَبْلُغَ حَبَّاتِ القلوب إذا رَمَى

إذا كُنتَ تَهْوَى الظَّبْيَ أَلْمَى فلا تَلُمْ ... جُنُونِى عن الظَّبْيِ الذى كُلُّه لَمَى

أخذ هذا بعضهم فقال :

يَكونُ الخال فى خَدّ مليح ... فيكسوهُ المَلاحَـــة والجمالا

فـكيفَ يلام معشُوقٌ على مَن ... يراها كُلّها فى العـين خالا

« الخالة : الشامة » .

وقال العباس بن الأحنف :

أُحِبُّ النساء السُّودَ مِن أَجْلِ تُـكْتَمٍ ... ومِن أَجْلِها أحببتُ مَن كانَ أَسْوَدا

فَتْنِي بِمِثْلِ المسك أَطيبَ نفحةً وجِئْنِي بِمِثْلِ الليلِ أطيبَ مَرْقَدَا

وقال بَشار :

يَكونُ الخالُ فى خَدٍّ نَقِيٍّ فَيُكْسِبُهُ الملاحَةَ والجمالا
وَيُونِقُهُ لأعْيُنِ مُبصِريهِ فكيف إذا رأيتَ اللَّون خالا

وقال آخر :

إنْ أَزْهَرَتْ لَيْلاً نُجُومُ السما بيضا على أَسْوَدَ مُرْخَى الإزارْ
وَأَوْجَبَ العكس مِثالا لهـا فالسُّودُ فى الأرضِ نُجُومُ النَّهارْ

وقال ابن رشيق :

تيهِي على البِيضِ واستَطيلِي تِيهَ شبابٍ على المَشيب[1]
ولاَ يَرُعْكِ اسوِدادُ لَونٍ كمُقْلَةِ الشَّادِبِ الربيب[2]
فَإِنَّمَا النُّورُ عن سَوادٍ فى أَعْيُنِ الناسِ والقلوب

وقال إمام النحاة أبو جبال الثَّغْزى الغَرْناطى :

عَلِقْتُهُ سَبَجِيَّ اللونِ قَادِحَهُ ما ابيضَّ منه سِوَى ثَغْرٍ حَلَى الدُّرَرَا[3]
فقد صاغَهُ من سَواد العين خالِقُه فكُلُّ عين إليه تُدْمِن النظرا

ومن طريف هذا الباب قول بعض شعراء المغاربة فى سوداء تسمى دُرَّة :

يا رُبَّ سَوْداء تُسْمى دُرَّةً ومِن العجائبِ دُرَّةٌ سوداء

---

(١) يقول : إن هذه السوداء كالشباب الذى شعره أسود والبيض كالمشيب فهو أبيض مثلها ، والشباب أحسن من المشيب فكذلك السود .

(٢) الشادب من أولاد الظباء : الذى قوى واستغنى عن أمه ، والربيب : المربَّى .

(٣) سبجى : نسبة إلى السبج وهو خرز أسود ، والقادح : القاتم الشديد السواد .

سوداءُ لَيلُ الوَصْلِ منها أبيضٌ ومِنَ العجائبِ ليلةٌ بيضاءُ

أمَّا مَن أبدع فى وصف السوداء وفاق سائر من وصفوها وأطال وأحسن فهو ابن الرومى وذلك أنه كانَ عند عبد الملك بن صالح سوداء وكانَ يُحِبُّهَا حُبًّا شديدا فطلبَ من ابن الرومى أن يَذكُرَهَا فى شِعْره ويستغرق أوصافَهَا البَاطِنة والظاهِرَةَ ، فقال من أبيات طويلة :

سَوْدَاءُ لم تَنْتَسِبْ إلَى بَرَصِ الشُقْرِ وَلا كُلْفَةٍ وَلا بَهَقِ (١)
وَبَعْضُ مَا فُضِّلَ السوادُ بِهِ وَالْحَقُّ ذُو سُلَّمٍ وَذُو نَفَقِ (٢)
أَلاَّ يَعِيبَ السَّوادَ حُلْكَتُهُ وقد يعاب البياضُ بالبَهَقِ
لَيسَتْ مِنَ العُبَّسِ الأكُفِّ ولا الفُلْحِ الشفاهِ الخَبائثِ العَرَقِ (٣)
بَلْ مِن بَناتِ الملوكِ ناعِمَةٌ تَنْشُرُ بالدَّلِّ مَيِّتَ الشَّبَقِ (٤)
فى لِينِ سَمُّورَةٍ تَخَيَّرَهَا الفَرَّا ءُ أو لِينِ جَيِّدَ الدَّلَقِ (٥)
تُذْكِرُكَ المِسْكَ والغوالِيَ والسُّـ ـكَّ ذَوَاتَ النَسِيمِ والعَبَقِ (٦)

---

(١) يريد بالكلفة : النمش يوجد فى وجه البيض ، والبرص والبهق معروفان .

(٢) قوله والحق ذو سلم وذو نفق جملة اعتراضية يقول : إن الحق يتصرف فى جهات وضرب الصعود والنزول لذلك مثلا .

(٣) الفلح الشفاه فالفلح : تشقق فى الشفاه وضخم واسترخاء ، شأن شفاء الزنج غالباً .

(٤) الشبق : شدة الغلمة واشتهاء الجماع .

(٥) السمّور : حيوان برّى أكبر من ابن عرس قليلا ويشبهه لونه أحمر مائل إلى السواد تتخذ من جلده فراء ثمينة والفرّاء : تاجر الفراء والدلق : حيوان يقرب من السنور — القط — فى الحجم وهو أصفر اللون بطنه وعنقه مائلان إلى البياض .

(٦) الغوالى جمع غالية أخلاط من الطيب ، والمسك : ضرب من الطيب .

غُصْنٌ من الآبنُوسِ رُكِّبَ مِنْ مُؤْتَزَرٍ مُعْجِبٍ وَمُنْتَطِقِ[1]
يَهْتَزُّ مِن نَاهِدَيْهِ فى ثَمَرٍ ومِن دَوَاجِى ذُرَاه فى وَرَقِ[2]
أَكْسَبَهَا الْحُبَّ أَنَّهَا صُبِغَتْ صِبغَةَ حَبِّ القلوبِ وَالْحَدَقِ
فَانْصَرَفَتْ نحوها الضمائرُ والأبـــصارُ يَعْشَقْنَ أَيَّما عشقِ[3]

وكرّر هذا المعنى فى قوله :

لامَ العَواذِلُ فى سَوداء فاحِمَةٍ كأَنَّها فى سوادِ القلبِ تمثالُ
وهامَ بالخالِ أقوامٌ وما علِمُوا أَنَّى أَهِيمُ بشَخْصٍ كُلُّهُ خالُ

وللشريف الرضى فى معنى أبياته التى أوردنا : وهى أبيات قالها على لسان رجل سأله وصف جارية :

لاَمُوا وَلَوْ وَجدُوا وَجْدِى لقد عُذِروا وَذَنبُ مَن لامَ ذنبٌ غيرُ مغتفر
لمَّا تمادَوا عَلَى عَـذْلِى أَجَبْتُهُمُ بِعِـزِّ مُعْتَرِفٍ لا ذُلِّ مُعْتَذِرِ
أَهوَى السَّوادَ برَأْسِى ثُمَّ أَمْقُتُهُ فكيف يَختلفُ اللَّوْنَانِ فى نَظَرِى
تَأْبَى طلائِعُ بيضٍ ذَرَّ شارِقُها فى عارِضِى أَنْ تكونَ البيضُ مِن وَطَرِى
جعلتُه لِسَوادِ العينِ تذكرةً إنْ تُفْقَدِ العَينُ يَرْضَ القلبُ بالأثَرِ
والليل أَسْتَرُ للخالِى بلَذَّتِه والصُّبحُ أفضح للسارِى على غَرَرِ
وكيف يذهب عن قلبى وعن بَصرِى مَن كانَ مثلَ سَوادِ القلب والبَصَرِ

---

(١) مؤتزر : موضع إزار يريد كفلها وعجيزتها ومنتطق موضع النطاق يريد خصرها .

(٢) دواجى ذراه يريد شعرها .

(٣) يعشقن أيما عشق يروى : يُعنقن أيما عنق ، والإعناق الاسراع فى المشى والرواية الأولى هى الأوجه .

وقال ابن قلاقس السكندرى :

رُبَّ سوداء وَهْى بيضاء مَعْنًى نافَسَ المسكَ عندها الكافورُ
مِثلُ حَبِّ العيونِ يحسَبُهُ النـاظِرِ سَواداً وإنما هو نُورُ

وقال ابن الرومى :

يَفْتَرُّ ذَاكَ السَّوادُ عَنْ يَقَقٍ مِنْ ثَغْرِهَا كاللآلئ النَّسَقِ (١)
كأنَّهـا والمِزاحُ يُضْحِكُهَا ليلٌ تفرَّى دُجاه عن فَلَقِ (٢)
لَهـا حِرٌ يستَعيرُ وقْدَتَهُ مِن قَلْبِ صَبٍّ وصَدْرِ ذي حَنَقِ
كأنَّما حَـرُّهُ لخابِرِهِ ما أَلْهَبَتْ حَشَاهُ من حُرَقِ
يَزْدادُ ضِيقاً على المِراسِ كما تَزْدادُ ضِيقاً أُنشوطَةُ الوَهَقِ (٣)
أُخْلِقْ بها أنْ تقومَ عَنْ ذكَرٍ كالسيفِ يَفْرِى مُضاعَفَ الحَلَقِ (٤)
إنَّ جُفونَ السيوفِ أكثرُهَا أسودُ والحَقُّ غيرُ مُختَلَقِ
خُذْهَا أبا الفضْلِ كُسْوَةً لَكَ مِن خَزِّ الأماديحِ لا مِنَ الخِرَقِ
وَصفْتُ فيها التى هَوَيْتَ على الوَهْـ ـمِ ولم نَختَبِرْ ولم نَذُقِ
إلاَّ بأخبارِكَ التى وَقَعَتْ مِنكَ إلينا عن ظَبْيَةِ البُرَقِ (٥)

السمن والضمور :

قال أبو الفرج الأصبهانى : أكثرُ البُصَراء بجواهر النساء الذين هم

(١) يصف أسنانها ويقق : شديد البياض ، والنسق : المنسقه .
(٢) تفرَّى : انشق ، والفلق : الصبح .
(٣) الوهق : حبل فى طرفه أنشوطة يطرح فى عنق الدابة حتى تؤخذ .
(٤) يفرى : يقطع ومضاعف الحلق : الدرع .
(٥) البرق جمع برقة : مكان تكثر فيه الظباء .

جهابذَةُ النَّقْدِ يُقَدِّمُون المجدُولَةَ ، التي تـكونُ بينَ السَّمِينة والممشوقَة ، ولا بد أن تـكون كاسية العظام ، ولذلك قالوا : كَأَنَّهـا غُصْنُ بان وقضيبُ خيزُران ، وجَدْلُ عِنان[1] ، قال : والتَثَنِّى فى مَشْيِ المرأة أحسنُ ما فيها ، ولا يمكنُ ذلك مع السِّمَن .

وقال الشاعر الجاهلِىّ قيْسُ بنُ الخَطِيم :

بينَ شكولِ النساء خِلْقتُها قَصْدٌ فلا جَبْلَةٌ ولا قَضَفُ

« شكول : ضروب ، وقصد : لا طويلة ولا قصيرة ولا جسيمة كأن خلقتها يَجِئُ بها القصد من الأمور والمعتدل الذى لا يميل إلى أحد طرفى التفريط والإفراط كما قال بعد ذلك ، وجبلة بكسر الجيم و بفتحها : غليظة ، وقال ابن بَرّى : جَبْلَة فى شعر قيس بفتح الجيم اسمٌ فاعل من جبل يجبَلُ فهو جَبِلَ وجَبْل : إذا غَلُظَ : والقضَف : الدِّقَّةُ وقلة اللحم » .

وقال حُميد بن ثور :

رَعَابِيبُ بيضٌ لا قِصارٌ زَعَانِفٌ ولا قِمعـاتٌ حُسْنُهُنَّ قريبُ

« الرَّعابيب جمع رُعبوبة وهى البيضاء الحسَنَةُ الحُلْوَة ، والزَّعانِف : اللئيماتُ الخسائِسُ وزعانفُ كلّ شىء : رديئُه ورذالة ، وقمعات : ذليلات . وحسنهن قريب : أى لا تستحسن إذا بعُدَت عنك و إنما تستحسنها عند التأمُّل لدمامَةِ قامتها » .

وقال أبو نُواس :

فَوْقَ القَصيرَة والطويلةُ فوقَها دونَ السَّمينِ ودونَها المهزُولُ

---

(١) جدل الشىء يجدُلُه ويجدِلُه جَدْلا : أحكم فتله ومنه جارية مجدولة : أى حسنة الجدل ، ومن ذلك قيل لزمام الناقة الجديل .

وكان الفرزدق يفضل زوجته حمدراء على زوجته النوار ، وكانت حمدراء عربية هيفاء مجدولة ، وكانت النوار حضرية جسيمة ، وفي ذلك يقول :

لعمري لأعرابية في مظلة ... تظل بروقي بيتها الريح تخفق (١)
كأم غزال أو كدرة غائص ... إذا ما بدت مثل الغمامة تشرق
أحب إلينا من ضناك ضغنة ... إذا رفعت عنها المراوح تعرق (٢)
كبطيخة الزراع يعجب لونها ... صحيحا ويبدو داؤها حين تفلق

وقالت عائشة رضى الله عنها : تسابقت مع النبي صلى الله عليه وسلم وأنا جويرية — فتاة صغيرة — فسبقته ، فلما حملت اللحم قال لى رسول الله : تعالى أسابقك ، فقلت : وكيف أسابقك يا رسول الله وأنا على هذه الحال ! قال : لا بد ، فسابقته ، فسبقنى ، فقال : هذه بتلك . . .

وقالت : أرادت أمى أن تسمنني لدخول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم أقبل على شيء مما تريده ، حتى أطعمتني القثاء بالرطب ، فسمنت عليه كأحسن السمن . . .

ودخل مالك بن الحارث الأشتر على علي رضى الله عنه صبيحة بنائه على بعض نسائه ، فقال : كيف وجد أمير المؤمنين أهله؟ فقال : كخير امرأة لولا أنها قباء جداء ! قال : وهل يريد الرجال من النساء إلا ذاك يا أمير المؤمنين ! قال : كلا ، حتى تدفئ الضجيع ، وتروى الرضيع .

---

(١) روق البيت : مقدمه ، أو سقف فى مقدم البيت .

(٢) امرأة ضناك : ضخمة ، قال العجاج يصف امرأة فهى ضناك كالكثيب المنهال : امرأه ضغنة : كثيرة اللحم رخوة .

« القبّاء : الخميصة البطن اللطيفة الكَشْحين ، والجداء : الصغيرة الثَّدْيين ، وهذا الكلام من علىٍّ يدل على استحسانٍ منه لضخم المرأة وسِمَنها ، ولكِبَرِ الثَّدْى ، وهذا كِبَرُ الثدْيِ له موضعٌ آخر » .

* * *

وَقال الحَسَنُ البصرى : لا تُسَمِّنُوا نساءكُم ، فإن كنتُم فاعلين فاحفَظُوهُنَّ .

« أقول : ومعنى ذلك ماقال بعضهم : السِّمن فى النساء غُلْمَة ، وفى الرِّجال عُقْلة

«الغُلْمَة : هَيَجَانُ الشهوة ، وفى الحديث : خيرُ النساءِ الغَلِمَةُ على زوجها والعُقْلة : الحبسة ، أى أن السمن فى الرجال لا يمكنهم من أداء ما يؤديه غير السمين » .

الطول والقصر :

قَالَ المبرِّدُ فى الكامل : والعَرب تمدَحُ بالطُّول ، وَتَضَعُ من القِصَرِ ، فلا يذكُرُه إلا مُحْتَجٌّ عن نفسِه ، ولا يمدَحُ به غيرَه ، قال عنترة :

بَطَلٌ كأنَّ ثِيَابه فى سَرْحَةٍ يُحذَى نِعالَ السِّبْتِ ليس بتوأَمِ[1]

---

(١) السرحة : الشجرة العظيمة ، والسبت بكسر السين — الجلد المدبوغ بالقرظ والنعال التى تعمل منه كانت لألى النعمة والترف منهم . وليس بتوأم : لم يشارك فى الرحم ومتى كان الانسان غير توأم كان كامل الخلقة مستكمل القوة يقول عنترة : وهو بطل مديد القامة كأن ثيابه ألبست شجرة عظيمة من طول قامته واستواء خلقه وهو لرفعة شأنه تجعل الجلود المدبوغة بالقرظ نعالا له وأحذية ولم تحمل أمه معه غيره ولمناسبة قوله ليس بتوأم يروى أن الشعبى دخل على عبد الملك بن مروان ، فجعل ينظر إليه — وكان الشعبى قد وُلد توأماً مع أخيه فكان نحيفاً — فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى زوحمت فى الرحم .

وَقَالَ جَرِيرٌ :

تَعَالَوْا فَفَاتُونَا فِي الْحُكْمِ مَقْنَعٌ ... إِلَى الْغُرِّ مِنْ أَهْلِ الْبِطَاحِ الْأَكَارِمِ[1]

فَإِنِّي لَأَرْضَى عَبْدَ شَمْسٍ وَمَا قَضَتْ ... وَأَرْضَى الطِّوَالَ الْبِيضَ مِنْ آلِ هَاشِمِ

قال المبرِّد : ويقال : إنَّ علىَ بنَ عبد الله بن العبَّاس بن عبد المَطلبَ كانَ إلى مَنكب عبد الله ، وكانَ عبدُ الله إلى مَنكب العباس ، وكانَ العباس إلى منكب عبد المُطّلب ، قَال : وطافَ علىٌّ بنُ عبد الله بالبيت وهُناكَ عجوزٌ قديمة وعلىٌّ قد فَرَعَ الناس — عَلاَهُم — كأنه راكب والناسُ مُشاةٌ .

فقالت المرأة : مَن هـذا الذى فرَعَ الناس ؟ فقيل : علىُّ بنُ عبد الله ابن العباس ، فقالت : لا إلهَ إلاَّ الله ، إنَّ الناسَ لَيُرْذَلُونَ[2] ! عَهدِى بالعباس يطوفُ بهذا البيت كَأَنَّهُ فُسْطاطٌ أبيَضٌ — تريد : كأنه بناء أبيض مُرْتَفِع —

قال المبرِّد : ويُرْوَى أَنَّ رسولَ الله عليه الصلاة والسلام وهوَ الأُسْوَةُ وَالْقُدْوَةُ كانَ فوق الرَّبعَةِ[3] ، ولم يكُنْ بالطويل المشذَّب[4] ، وكانَ إذَا

---

(١) تعالوا : يخاطب الفرزدق ورهطه ، وفاتونا : حاكمونا ، وأهل البطاح الذين نزلوا من قريش أباطح مكة ، وهم أكرم من قريش الظواهر وهم الذين نزلوا حول مكة بعد هذا البيت :

فإن قريش الحق لن تتبع الهوى ... ولن يقبلوا فى الله لومـة لائم

(٢) أظنها تريد أن تقول : إن الناس يؤولون إلى الرذل الدون فى منظره وحالاته ، تعنى أن عليا على طوله لا يلحق فى ذلك من تقدمه من آبائه فكأن الخلف دائماً أقل من السلف .

(٣) فوق الربعة — بسكون الباء وفتحها — أى أنه عليه السلام فوق المربوع الخلق الذى لا هو بالطويل ولا بالقصير .

(٤) المشذَّب : المفرط فى الطول ، مأخوذ من النخل المشذب الذى قطع جريده فظهر طوله .

مَشَى مع الطِّوال طالَهم[١] ...

قَالَ المبرّد : ولم يختلِفْ أَهْلُ الحكمةِ والنظرِ من العَرَبِ والعَجَمِ أَنَّ الكمالَ فى الإعتِدالِ ، وَلاَ يُقالُ غيرُ هذا عن حَكِيم ، وَأَبْيَنُ ما فِيهِ مَا اختارهُ اللهُ تعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام .... وقال شاعرٌ من طيء اسمه أنيف البنهانى يَذكر يومَ ظهرِ الدهْناء — وكان بين طيء وأسد بن خزيمة : —

ولَمَّا التقى الصَّفانِ واختَلفَ القَنَا نِهالاً وَأَسْبَابُ المنايا نِهالُها[٢]

تَبَيَّنَ لِى أَنَّ القماءةَ ذِلَّةٌ وَأَنَّ أَشِدَّاء الرجالِ طِوَالُها[٣]

وقال عبد الله بن عَجْلاَن النَّهدى — شاعر جاهلى تَيَّمَهُ الحبُّ فقتله ، يقول هذا الشعر فى زَوجه هند ، وكانَ قد فارَقها — أسفاً عليها — :

وَحُقَّةِ مِسْكٍ مِن نِساء لبستُها شَبَابى ، وكأسٍ باكَرتْنى شَمُولُها

جَدِيدَةِ سِربالِ الشَّبابِ كأَنَّها أَباءَةُ بَرْدِيٍّ نَمَتْهَا غُيُولُها

وَمُخْمَلةٍ باللحم مِنْ دُونِ ثوبِها تَطُولُ القِصارَ وَالطِّوالُ تَطُولُها

---

(١) طالهم : غلبهم فى طول القامة وذلك فى رأى العين و بدء النظر ، يرى الرائى من ظهوره صلوات الله عليه أن أطول القوم آية خصه الخالق بها .

(٢) واختاف القنا نهالا يريد : أن كلا الصفين سقا قناه من دم الآخر ، فنهالا : عطاشا والناهل العطشان والريان فهو من الأضداد .

وقال أبو العباس المبرد . قوله : نهالا يريد قد وردت الدم مرة ولم تُثَنَّ وذلك أن الناهل : الذى يشرب أول شربه ، فاذا شرب ثانية فهو عالٌّ ، يقال : سقاه علاّ بعد نهل وعللا بعد نهل ، وقوله : وأسباب المنايا نهالها لا يريد : أن أول ما يقع منهـــا يكون سبباً لما بعده .

(٣) القماءة هنا : المراد بها صغر الجسم .

« حُقَّة مسك : كناية عن امرأة ، جعلها لِطيبِ رِيَّاها كحُقَّةٍ نُحِتَتْ من عاج ونحوه مملوءة مسكا ولِبسُتها : تَمَتَّعْتُ بها ، وشبابى : منصوبٌ على الظَّرْفِيَّة ، أى مدة شبابى ، وكأسٍ عطف على حُقَّةِ مِسْكٍ ، والشمول : الخمرة التى لها عصفَةٌ كعصفَةِ الشمّال ، أو هى التى تشتمل على العقل فتذهب به . وجديدة سربال الشباب يعنى : أنها فى عُنْفُوان شَبَابها ، وأدخل الهاء على جديدة والأكثر أن يقال : ملحفة جديد ، وإن كانت جديدة فى قولهم مِلحَفَةٌ جديدة من جد الحائك الثوب يجُدُّهُ (بالضم) : قطعه فهو جديد وهى جديد بدون هاء لأنه فى معنى مجدود ، وفعيل بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث أما جديدة فى قول شاعرنا فهى من جد الثوب . . يجِدّ بالكسر » إذا كان جديداً نقيض بَلِيَ فهو جديدٌ وجديدة والأباءة : القصبة — والبرْدِىّ : نبات كالقصب كان قد ماء المصريين يستخدمون قشره للكتابة ، وشبَّه هذه المرأة بالبرْدى المسقى لحسْنِ بِنْيَتِها وكمالِ خِلْقَتِها ، ألا تَرَى إلى قوله : نَمَتْها غُيُولُها والغيول جمع غيل وهو الماء يجرى بين الأشجار ، وقوله : ومُخْمَلَة باللحم من دون ثوبها فمعنى مخملة باللحم أن أعضاءها تساوَتْ فى ركوب اللحم إياها وظهور السِّمَن عليها ، فكأن اللحمَ جُعِلَ لها خَمْلاً ، والخَمْل : الهُدْب مما يُنْسَجُ وتفضُلُ له فُضول — وفائدة (من دون ثوبها) أنها مِلء دِرعها ، فلهذا تكون سمينةَ المعرَّى ، وقوله : تطول القصار يريد أنها رَبْعَةٌ » .

وقال كثيِّر عَزّة[1] :

وأنتِ التى حَبَّبْتِ كُلَّ قَصِيرَةٍ إلَىَّ وَمَا تَدْرِى بذاكِ القصائرُ

(١) من الغريب أن كثير عزة قائل هذين البيتين كان قصيراً جداً إلى حد أنه لا يبلغ ضروع الابل ، وكانوا يلقبونه « زب الذباب » لقصره ، وكان إذا دخل على عبد الملك ابن مروان قال له : تطأطأ لا يصب رأسك السقف! ولذلك قال له لما رآه : تسمع بالمعيدى لا أن تراه ، لقاءته .

وفيه يقول الشاعر الحزين الكنانى :

يكاد كثير من تقارب شخصه يعض القراد بأسته وهو قائم

عَنَيْتُ قصيراتِ الحِجالِ ولم أُرِدْ قِصَارَ الخُطَى شَرُّ النِّساءِ البَحَاتِرُ

« القَصَيرَةُ ومِثلُها قَصُورَة : المحبوسة المقصُورَة فى البيت لا تُترَكُ أن تخرُج ، والبحاتر : القصيرات ، من قِصَرِ القامة ويروى بدل البحاتر : البهاتر وهى قبل كالبحاتر ، والحجالة جمع حَجَلَة وهو بيت كالقبَّة يُسْتر بالثياب ويكون له أزرار كبار » .

وقال ابن الرومى :

كَأَنَّما أُفرِغَتْ من ماءِ لُؤْلُؤَةٍ فى كُلِّ ناحِيَةٍ منْ وَجْهِها قَمَرُ
كما اشْتَهَتْ خُلِقَتْ حتى إذا اكتملَتْ تَمَّتْ قَوَاماً فلا طُولٌ ولا قِصَرُ

وقالَ بَهاءُ الدين زُهير :

وهيفاءَ تَحْكِى الرُّمحَ لوناً وقامَةً لَهـا مُهجَتِى مَبذولَةٌ وَفُؤادِى
لَقد عَابَها الواشِى فقال : طويلةٌ مَقَالَ حَسُودٍ مُظهِرٌ لِعِنادِى
فقلت له : بُشِّرْتَ بالخيرِ إنَّهَا حياتى فان طالت فذاك مرادى
وما عابها القَدُّ الطويل وإنه لأوَّل حسنٍ للمليحَةِ بادِى
رأيتُ الحُصُونَ الشُّمَّ تحفَظُ أهلَها فأعدَدْتُها حِصْناً لِحِفْظِ وِدَادِى

وورد فى الأثر : أن رسولَ الله « ص » مرَّ برجُلٍ نُغَاش — وفى رواية : برجل نغاشى — فخَرَّ ساجداً لله ، ثُمَّ قال : أسأل الله العافية .

« النُّغَاش والنغاشى : القصيرُ أقصرَ ما يكون » .

وَرُوِى أنَّ رسولَ الله « ص » رأى رجلاً قصيرا فقال : من رأى مُبتَلىً فقال : الحمدُ لله الذى عافانى مما ابتلى به غيرى وفضَّلَنى عليه وعلى كثير ممن خَلق تفضيلا ، عافاهُ اللهُ مِمّا ابتلاه به كائنا ما كان . . . فعَدَّ رسول الله القصرَ بَلِيَّة يُستعاذ بالله منه .

وكانَ المغيرةُ بنُ شُعْبَةَ أعْوَرَ دَميمًا آدَمَ قصيرًا فهجاهُ رُجُلٌ من أهل الكوفة فقال :

إذَا رَاحَ فى قُبْطِيَّةٍ مُتَأَزِّرًا فَقُلْ جُعَلٌ يَسْتَنُّ فِى لَبَنٍ محضِ

فأُقسِمُ لَوْ خَرَّتْ مِنَ اسْتِكَ بَيْضَةٌ لَمَا انْكَسَرَتْ مِن قُربِ بَعْضِكَ مِنْ بَعْضِ (١)

« القُبْطِيَّة : ثيابٌ من الكَتَّان تُنْسجُ بمصرَ منسوبَة إلى القِبْط على غير قياس ، قالوا : إذا نَسَبْتَ الناس إلى القِبط قلت : قِبْطىّ — بكسر القاف — وتُنْسَبُ إليهم الثياب فتقول : قُبْطِىّ بضم القاف ، للفرق » .

« والجعل : ضرب من الخنافس ، ويَسْتَنُّ : يذهب ويجىء

وقال بعضهم : مَنْ أَرَادَ النجابة فعليه بالطِّوال ، ومن أراد اللَّذة فبالقصار ، فإنهنَّ لذيذاتُ النكاح .

وقال الحجَّاجُ بن يوسُف : مَنْ تَزَوَّجَ قصيرَةً فَلَمْ يَجِدْها على الموافقة فَعَلَى مَهرُها ...

وقال الأصْمَعِى : كان أعرابِىٌّ طويلا قبيحا ، فخطب امرأةً وقال : أريدها قصيرةً جميلةً ، ليأخذَ الولدُ طولى وجمالَها ، قال : وتزوَّجَها على تلك الصفة ، فجاء ولدُهُ على قُبْحِهِ وقِصَرِها ...

---

(١) قال ابن دريد لأبى حاتم : ما أظنُّ أحداً سبقهُ إلى قوله : جُعل يستن فى لبن محض ؟ فقال : بلى ، كان ابراهيم بن عربى والىَ اليمامة ، فصعد المنبر وعليه ثياب بيض ، فبدا وجهه وكفَّاهُ فقال الفرزدق :

تَرَى مِنبرَ العبد اللئيم كأنما ثلاثَةُ غِرْبانٍ عليه وقوعُ

وخرج نُصَيْب من عند هشام وعليه ثيابٌ بيض فقال الفرزدق :

كأنَّما لمـــا بَدا للناسِ أيْرُ حِمار لُفَّ فى قِرطاس

وقال ابن الزُّبَيْر: لا يَمْنَعُكُم مِن تَزَوُّج امرأةٍ قصيرةٍ قِصَرُها ، فإنَّ الطويلة تَلِدُ القصير ، والقصيرةُ تلد الطويل ، وإيَّاكم والمذَكَّرَةَ فإنَّها لا تُنْجِبُ . . .

« المذكَّرَةُ المشبَّهَة بالذكور » .

وقال أعرابيّ وهو يَنْعَتُ امرأةً : ليسَ بها قِصَرٌ يُذِيلُها ، ولا طُولٌ يُخْرِقُها ، فإنَّ الطُّولَ مَخْرَقَة . .

« قوله يخرقها : أى يكون لها خُرْقًا ، والخريق : الذى لا يحسنُ العَمَل » .

وكانَ كُثَيِّر عَزَّة يُلَقَّبُ «زُبّ الذباب» لِقِصَرِه ، قال زَوجُ عَزَّة يهجوه :

لَعَمْرُكَ ما زُبُّ الذُبابِ كُثَيِّرٌ بِفَحْلٍ ولا آباؤه بِفُحولِ

قالوا : إنَّ كُثَيِّرًا كانَ قَصِيرًا لا يَبْلُغُ ضُرُوعَ الإبل ، وكانَ إذا دَخَل على عَبد الملك بن مروانَ قال له : تَطَأْطَأْ لا يُصِبْ رأسكَ السَّقفُ ، وقال له لَمّا رآه « تَسمَعُ بالمُعَيْدِيِّ لا أَنْ تَراه » لقَماءَتِه .

الثياب والحلى والطيب :

كُلُّ ما أَسْلَفْنَا فى هذا الباب — باب حضهم النساء على الزينة والتجمّل والنظافة — إنما هو خاصٌّ بنظافة البدن وأعضاء البدن وعبقرياتهم فى وصف أعضاء المرأة ، وفى هذا الموضع نوردُ عبقرياتهم فى العناية بما يُحِيطُ بالبدن ، من الثياب والحلىّ والطِّيب .

* * *

وأوَّلُ ما يَجْمَلُ العنايةُ به فى ذلك وأَوْلاهُ هو الثياب ، فجدير بالمرأة أنْ تنظِّف ثيابها لئلاَّ يُسْرِعُ تعلُّق الأدران بها ، وأن تختار من الثياب ما يوائم

الذوق العام ولا ينبو به ذوقُ عصرها وأهلُ جيلها ، وأن تراعِيَ فى ذلك ذوقَ زوجها وما عساه تجلب به رضاه وإقبالَه عليها .

وقد أجمعَ ذوو البصر بالأمور على أنَّ اجتلابَ ميْل الرجل — أعنى الزوج — إلى زوجه إنما يكونُ بأن يراها فى الهيئة الموثِقَة ، والزينة الموافِقة ، التى تُحرّك ذَوى الانكسار والفتور ، وتزيدُ ذوى النشاط نشاطاً ، والمرأة الفطِنة اللَّبِقة الحَسَنَةِ التبعُّل يجب عليها أن تراعى ذلك وما سواه مما يتمّ به إقبال الرجل — أعنى الزوج — عليها ، وأن تتفقَّد مِنْ أحْوال ظاهرها وباطنها وشاهدها وغائبها ما تأمَنُ معه أنْ يَسْبِقَ إلى طَرفِ بَعْلِها أو أَنْفِهِ شىءٌ يذُمُّه منها أو يكْرَهُهَا مِنْ أجْلِه ، وأن تعتقد مع ذلك أنَّ عِنايتها هذه واحتِفالها إنما هو لِنَفْسِها وعائِدٌ عليهـــا ، خَشْيَةَ أن يتبيَّن لزوجها التقصير فتطمح نَفْسُهُ إلى غيرها . . .

وكلُّ ذلك فى الأوقات التى جرَتِ العادَة بأن يقرب منها فيها ، وهي فى الأعَمِّ الأغلب الأوقات التى ذكرها الله سبحانه فى كتابه الكريم ، وذلك حيث يقول عز وتقدس (يا أيها الذين آمنوا لِيَسْتأْذِنْكمُ الذين ملكَتْ أيمانكم والذين لَمْ يبلُغُوا الحُلُمَ منكم ثلاث مرَّات : مِنْ قبلِ صلاةِ الفجْرِ ، وحِينَ تضعُونَ ثيابكُمْ مِنَ الظهيرَة ، وَمِنْ بَعْدِ صلاةِ العِشاء ، ثلاثُ عَوْراتٍ لكم ليْسَ عليكم ولا عليهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ) .

« انظر القول على هذه الآية الكريمة فى باب حضهم المرأة على الحشمة »

وَهُنَا أَنْصَحُ للمرأة نصيحتَين : فأمَّا أولاهما فأنْ لا تُمعِنَ في الزينـــة ، فإنّ الإفراط فى الزينة كالتفريطِ فيها كلاهما مذموم ، تنفر منه الأذواق .

وأما الأُخْرَى فإذا كانت الزينة المفرطة مذمومةً مِنَ الفتيات فَأَوْلى أن تُذَمَّ مِنَ المُسِنَّات وحَسْبُ المُسِنَّة أن تكون نظيفة فى بَدَنِها وثيابها ، أمَّا الإفراط فى التجمل والزينة فهو لون من الوقاحة والسماجة . . .

كان لرجُل منَ الأعراب امرأةٌ عجوز ، وكانت تشترى العِطْر بالخبز ، فقال :

عَجُوزٌ تُرَجِّى أَنْ تكون فَتِيَّـــةً ... وقدلُحِبَ الجَنْبانِ واحدَوْدَبَ الظهرُ (١)

تدُسُّ إلى العَطارِ سِلْعَة بيتِها ... وَهلْ يُصْلِحُ العَطَّارُ مَا أَفْسَدَ الدهرُ

وما غَرَّنِى إلاَّ خِضابٌ بكفِّها ... وكُحلٌ بعيْنَيْها وأثوابُها الصُّفْرُ

وجاءوا بهـــا قَبْلَ المُحَاقِ بليْلَةٍ ... فكانَ مُحَاقًا كُلُّهُ ذلِكَ الشَّهرُ (٢)

فقالت امرأته :

ألم تر أنَّ النَّابَ تُحْلَبُ عُلْبَـةً ... ويُتْرَكُ ثلْبٌ لاضِرَابٌ ولا ظَهْرُ (٣)

وليتَ شِعْرِى ماذا يقولُ هذا الأعرابىّ إذا هو قد رُدَّ إلى عصرنا هذا فى مصرنا هـذا فرأى عجائزنا ولا سيَّما ساكِناتِ القُصُور والمتشبِّهاتِ بهنَّ وقد غالينَ فى الزينة ، وذهبْنَ فيها كُلَّ مَذْهَب ، فصبغْنَ شُعُورَهُنَّ ، ولَوَّنَّ وجوهَهُنَّ وشِفاهَهُنَّ بتلك الأصباغ المختلفة بين أبيض وأحمر وأسود وأصفر ، فغيَّرْنَ صِبغة الله الجميلة حتى فى إدبارها ، وصِرْن بهذا الصنع سُخْرِيَّةَ الناظرين ،

---

(١) لحب الجنبان : قل لحمهما .

(٢) المحاق « مثلث الميم : آخر الشهر أو ثلاث ليال فى آخره .

(٣) قولها ألم تر أن الناب تحلب علبة تقول : فيها منفعة على حال ما والناب : الناقة المسنة والعلبة : إناء لهم من جلد يحلب فيه ، والثلب : الذى قد تناهى فى السن من الإبل ويستعار للإنسان تقول : إن الرجل العجوز لا فائدة منه البتة .

وضُحْكَةَ الغادِينَ والرائحين ! وقد غاب عنهنَّ — لهنَّ الله — أنَّ جمالَهُنَّ فى أنْ لا يتجمَّلْنَ ، وزينتهنَّ فى أنْ لا يتزيَّنَّ .

أليْسَتِ المُسنَّاتُ الريفيَّاتُ العاطِلاتُ[1] اللاتي يتركْنَ أنفسَهُنَّ بدونِ زينةٍ أجمل من حضرياتنا فى مثل هذا التجمل البَهْرَج !

ما أوْجُهُ الحضَرِ المستَحْسَناتُ بِهِ ... كأوجُهِ البدويَّات الرعابيبِ[2]

حُسْنُ الحضارَةِ مجلوبٌ بتطرِيَةٍ ... وفى البداوةِ حُسْنٌ غيرُ مجلُوبِ[3]

أيْنَ المَعيزُ مِن الآرامِ ناظرةً ... وغيرَ ناظرةٍ فى الحسنِ والطِّيبِ[4]

أفدِي ظِباءَ فَلاةٍ ما عرفْنَ بِها ... مَضْغَ الكلامِ ولا صَبْغَ الحواجِيبِ[5]

---

(١) العاطلات : أى من الحلى .

(٢) الرعابيب : جمع رعبوبة وهى المرأة السمينة يقول المتنبى : ليست الأوجه المستحسنات بالحضر كأوجه نساء البدو وقد بين السبب فى البيت التالى .

(٣) الحضارة بكسر الحاء وفتحها : الإقامة فى الحضر والبداواة : الإقامة فى البدو ، والتطرية : المعالجة تقول طرى الطيب إذا خلطه بالأفاوية وطرى الطعام : خلطه بالتوابل : يقول : إن حسن أهل الحضارة متكلف مجلوب بالحيلة والعلاج أما حسن البدويات فهو خلقة لا يعرفن التكلف والحسن المجلوب بالاحتيال .

(٤) شبه نساء الحضر بالمعيز ونساء البدو بالآرام — الظباء الخالصة البياض يقول : أين تقع المعيز من الظباء فى الحسن والطيب أكانت مقبلة أم معرضة فالظباء تفضلها عيوناً وغير عيون .

(٥) يريد بظباء الفلاة البدويات ، ومضغ الكلام : ترك ابانته كأن المتكلم يمضغ شيئاً ، يقول : إن نساء البدو فصيحات مُبينات لا يمضغن كلامهن غنجاً وتخنيثاً كنساء الحضر ولا يصبغن حواجبهن طلباً للزينة مثلهن .

ولا برزْنَ مِنَ الحمَّام مائلةً أوراكُهُنَّ صقيلاتِ العراقيبِ (١)
ومِنْ هوَى كُلِّ مَنْ ليْستْ مموِّهةً تركْتُ لوْنَ مَشيبي غيْرَ مخضُوبِ
وَمِنْ هوَى الصِّدقِ فِي قوْلي وعادَتِهِ رَغِبْتُ عَنْ شعَرٍ فِي الرأسِ مكذُوبِ.

ومثلُ البدويَّات الريفيَّات ... وإني وأيْمُنُ الله ، ما وقعَ نظري على ريفيَّةٍ عَجُوز ، وقد تلفَّعتْ مِلْفَعَتَها وانتعلتْ حذاءها أو « بلْغَتَها » وَفاحَ مِنها عَبيرُ عِطرها النَّسوى الريفى الساذج ، إلا كسَتْنِي توقيراً لها وحنانا ، وَرَوْحاً وريحانا ، وَبَرْداً وسلاما ، وإكباراً وإعظاما ! حتى إذا أخَذَتْ عيني تلكَ الحضريَّةَ العجوز وقد ازَيَّنَتْ ضُرُوباً مِنَ الزينة وألوانا وافتنَّتْ فيها افتِنانا رأيتُني وقد غَشَّتْ نفسي ، وَتلذَّعت كبدي ، وشقَّ منظرُها وكلامُها على الآذان والحدق ... وَهَبْنِي عَذَرتُ الفتاة إذا هي ازَّيَّنَتْ فما العذر فى الزينة إذا المرأة شاخت ونالت مِنها السِّنون ! إنني لا أنْعَى على المرأة زينتَها ، لأنَّ حُبَّ الزينة جبلَّة فى النساء ، كما قلت . ولكنَّ العجوز يخلُقُ بها أن تتزين الزينة الوقور ، التى لا تبلغ مبلغ المسْخ والتدليس والزور ؛ أيتها العجائز ، احترمن أنفسكن ، واعلمن أن جلال الشيخوخة فى الشيخوخة ، وأن الجمالَ المتصنَّع إنما هو لَدَى انعام النظر أقبحُ القبح ، وأنتُنَّ إذا جهلتن أو تجاهَلتنَّ ذلك فوطِّنَّ أنفسكنَّ على السخرية منكن ولا أبعد الله إلا مَن سفِهَ نَفْسهُ .

* * *

(١) مائلة : شاخصة ، والعراقيب جمع عرقوب وهو العصب الغليظ فوق عقب الرجل يقول : وليست البدويات كالحضريات يجلبن حسنهن بأن يدخلن الحمام فيخرجن منه وقد شددن خصورهن فشخصت أوراكهن من تحتها وصقلن عراقيبهن .

الثياب :

الرخصة فى إجادة الملبس :

قال عبد الله بن عباس : كُلْ ما شئتَ والبَسْ ما شئت ما أخطأك شيآن : سرَفٌ أو مَخيلَة .

«المخيلة : الخيلاء والكبر يقول : ما دمت فى أكلك ولبسك مجانبا الاسراف والكبر فإنَّ ذلك محمود ، أمَّا إنْ أسرفتَ فى أكلك ولبسكَ أو كنتَ تقصِدُ إلى الخيلاء والكبر فهذا مما نهى الله عنه . وفى الحديث : (إياكم والمخيلة : فقيل يا رسُولَ الله ، نحنُ قومٌ عَرب ، فما المَخيلة ؟ قال : سَبلُ الإزار — أىْ إرساله إلى الأرض » .

وقال عز وتقدّس (يا بَنِى آدمَ خُذُوا زينتكُم عنـد كلّ مَسْجد وكلوا واشرَبُوا وَلا تسْرِفُوا ، إنه لا يحبُّ المسرفين ، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ الله التى أخرجَ لِعباده والطيبات مِنَ الرزق) .

«الزينة : الثياب وكلّ ما يُتَجَمَّلُ به ، وعند كُلّ مسجد : أى كُلَّمَا صليتم أو طُفتم بالبيت ، والسنَّة : أن يأخذ الرجل أحْسَنَ هيئته للصلاة ، وكانوا يطوفون بالبيت وهم عُراةٌ تفاؤلا ليتعرَّوا من الذنوب كما تعرَّوا من الثياب فَنُهُوا عن ذلك » .

قال الزمخشرى : يُحكى أنَّ الرشيد كان له طبيب نَصرانِىٌّ حاذِق فقال لعلىّ بن الحسين بن واقد : ليس فى كتابكم من علم الطب شىء ، والعِلم عِلمان : علم الأبدان وعلم الأديان ! فقال له : قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه، قال : وما هى ؟ قال : قوله تعالى (وكُلوا واشربُوا ولا تُسرِفُوا) فقال النصرانى : ولا يُؤثرُ من رسُولكم شىء فى الطب ! فقال : قد جمع رسول الله (صلعم) الطب فى ألفاظ يسيرة ، قال : وما هى ؟ قال : قوله : » المِعدَة بيتُ

الداء وَالحِمْيَةُ رأسُ الدَّوَاء[١] وَأَعْطِ كل بَدَنٍ ما عَوَّدْتَه » فقال النصرانى : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوسَ طِبًّا ...

وقالوا : كُلْ ما تشتَهِيه نَفْسُكَ وَالْبَسْ ما تَشْتَهِيه النَّاس .

وروى ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة وابن عبدربه فى العقد : إن الربيع بن زياد الحارثى[٢] أصابته نُشَّابة — سهم — فى جبينه ، فكانت تنتقض عليه فى كل عام — أى تنتكس بعد بُرْئها — فأتاه على بن أبى طالب عائدا ، فقال : كيف تجدك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال أجدنى لو كان لا يُذْهِبُ مابى إلا ذهَابُ بصرى فَديتُه بها ، قال له على : وما قيمة بصرك عندك ؟ قال : لو كانت لى الدنيا فديته بها ، قال : لا جرم ليعطينك الله على قدر ذلك إن شاء الله ، إن الله يعطى على قدر الألم والمصيبة ، وعنده بعد تَضْعِيفٌ كثير . . . وقال له الربيع : يا أمير المؤمنين ، ألا أشكو إليك عاصم بن زياد[٣] ؟ قال : وماله ؟ قال : لَبِسَ العَباء وتخلى عن الدنيا[٤] وغَمَّ أهله وأحْزَنَ ولده .

---

(١) هى المِعِدَةُ والمَعْدَة ، والحمية : الاحتماء من الطعام ، أى الجوع ، (جوعوا تَصِحُّوا) وقد غاب عن على هذا الحديث الذى هو جماع الصحة وهو (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع) .

(٢) الربيع بن زياد هذا هو الذى افتتح بعض خراسان وهو الذى قال فيه عمر بن الخطاب : دلُّونى على رجل إذا كان فى القوم أميراً فكأنه ليس بأمير وإذا كان فى القوم ليس بأمير فكأنه الأمير بعينه ، وهو صاحب الوقعة مع عمر لما أحضر عُمَّالَهُ فتقشف له الربيع وأكل معه الخشن من الطعام فأقره على عمله وصرف الباقين « انظر المجلد الأول من هذا الكتاب — الذخائر والعبقريات » .

(٣) هو أخو الربيع .

(٤) العباء جمع عباءة : وقد تلين الهمزة فيقال : عباية يريد أنه تقشف .

فقال : عَلَيَّ به[١] فلما أتاه عَبَسَ — قطب — فى وجهه ، وقال : يا عُدَيَّ[٢] نفسه ، أترَى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أخذَكَ منها !

لأنت أهون على الله من ذلك ! أوَما سمعته يقول : (مَرَجَ البَحْرَيْن يَلتقيان بينهما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيان[٣]) ثم قال : (يخرج منهما اللؤلؤ والمَرْجان[٤] وقوله (وَمِنْ كُلٍّ تأكلون لَحْماً طَرِيًّا وتستخرجون منه حِلْيَةً تَلْبَسُونها) أما والله إن ابتذال نعم الله بالفعال أحبُّ إليه من ابتذالها بالمقال[٥] ، وقد سمعته عز وجل يقول (وَأَمَّا بنعمة ربك فَحَدِّث) ويقول (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله التى أَخرَجَ لِعبادِهِ والطيِّبات مِنَ الرِّزْقِ) وإن الله عز وجل خاطب المؤمنين بما خاطبَ بِهِ المرسلين فقال (يا أيُّها الرسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ واعْمَلُوا صالِحاً إنِّى بِما تعمَلُونَ عَلِيم)

---

(١) يقال : علىّ بفلان : أى أحضره ، والأصل أعجل به علىّ فحذف فعل الأمر ودَلَّ الباقى عليه .

(٢) تصغير عدو وقد يراد به التحقير وقد يخرج مخرج التحنن والشفقة كقولك يا بنى

(٣) المرج : الخلط يقول سبحانه : خلط البحر الملح والبحر العذب حتى التقيا وبينهما حاجز من قدرة الله لا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة .

(٤) قال منهما مع أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر الملح لأنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز ذلك وهذا كما يقال خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحدة من دوره .

(٥) أظنه يريد بهذه العبارة أن التمتع بنعم الله وطيباته التى أعطانا إياها ، بالفعل أحب إليه سبحانه من التمتع بهـا بالقول فكأن معنى قوله تعالى « وأما بنعمة ربك فحدث » أى أظهرها بالتمتع بها ، وهذا هو ما أوردناه بحديث الأصمعى بعد ذلك .

فقال عاصم : فَعَلَام اقتصَرْتَ أنت يا أمير المؤمنين على لُبْسِ الخَشِن وأكْلِ الخَشِن[1] ؟ قال : وَيْحَكَ ، إنى لَسْتُ كأَنْتَ ، إنَّ الله تعالى افترضَ عَلَى أَئِمَّةِ العَدْل أن يقدِّرُوا أنفُسَهُم بِضَعَفَةِ الناس كيلا يَتَبَيَّغُ بالفقير فَقْرُه).

« قوله أن يُقَدِّروا أنفُسَهُم بِضَعَفَة الناس يريد : أن يفترضوا أنفسهم من ضعفَة الناس وفقرائهم فيتشبهوا بهم ، أى أنه يجبُ على الامام العادل أن يُشَبِّه نَفْسَهُ فى لباسِهِ وطعامه بضعَفَةِ الناس لكيلا يهلِكَ الفقراء ، فإنهم إذا رأوا أمامَهُمْ بتلك الهيئة و بذلك المطْعَم كان أدْعَى لهم إلى سُلوان لَذَّاتِ الدنيا والصبرِ عن شهواتِ النُّفُوس ، فقوله يَتَبَيَّغُ هو من تَبَيُّغَ الدمُ بصاحِبِه : أى هاجَ به ، وفى الحديث (عليكم بالحجَامَة لا يتبيَّغُ بأحدكم الدم فيقتله) أى لا يَتَهَيَّجْ » .

* * *

وأراد جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك يوماً حاجَة كان طريقه إليها على باب الأصمعى ، فدفع إلى خادم كيساً فيه ألف دينار وقال : إنى سأنزل فى رجعتى إلى الأصمعي ، وسيحدِّثُنِى وَيُضْحِكُنِى ، فإذا ضحِكتُ فضَعِ الكيس بينَ يديْه ، فلما رجعَ ودخل عليه رأى حُبًّا[2] مكسُورَ الرأس ، وجرة مكسورة العُنُق وقصْعَة مُشَعَّبة وَجَفْنَة أَعْشَارا ، ورآه على مصلًّى بالٍ وعليه بَرَّكان[3] أجردُ ، فغمز غلامَه ألاَّ يضعَ الكيسَ بين يديه ، ولم يدع الأصمعىّ شيئاً مما يضحِكُ الثكلان إلا أَوْرَدَهُ عليه ، فما تبسَّم وخرج ، فقال لرجل كان يُسَايِرُه : « مَن استَرعى الذئبَ ظلَم » ومن زرع سَبَخَه حصَدَ الفقر ،

---

(١) طعام خشن : غليظ أولا إدام معه .

(٢) الحب : الخابية فارسى معرب .

(٣) كساء أسود .

فإنى والله لو علمتُ أن هذا يكتُم المعروف بالفعل لما حفلْتُ نشره باللسان ، وأين يقع مدح اللسان من مدح آثار الغنى ، لأن اللسان قد يكذب والحال لا تكذب ، ولله دَرُّ نُصَيْب حيث يقول :

فعاجُو فأثْنَوْا بالذى أنتَ أَهْلُهُ ولو سَكَنُوا أَثْنَتْ عليكَ الحقائِبُ[1]

ثم قال له : أعلمت أنَّ ناووس أبرويزَ أمدحُ لأبرويزَ من شعر زهير لآل سِنان .

وكان الحسَنُ البصْرى على زهده يلبَسُ ثوْبًا بأربعمائة درهم ، وفرقَدٌ السبخى الصوفى يلبَسُ المسُوح ، فلقيَه الحسنُ ، فقال له فَرْقَد : يا أبا سعيد ، ما أَلْيَنَ ثوبَك ! فقال الحسَنُ : يا فُرَيقد ، ليس لِينُ ثيابى يباعدنى من الله ، ولا خُشُونَتُها تقرِّبُك مِنْه ، إن الله جميل يُحِبُّ الجَمال . .

وجاء سيَّار أبو الحكم إلى مالك بن دينار فى ثياب اشتَهَرَها مالك — شنَّع بها — فقال له مالك : ما هذه الشهرة ؟ فقال له سيار : أتضَعُنِى عندك أم ترفَعُنِى ؟ قال : بل تضَعُك ، قال : أراك تنهانى عن التواضُع ! فنزل مالك وقعدَ بَيْنَ يديه .

* * *

وقالوا : لكُلِّ شىء راحَةٌ ، فراحة البيت كنْسُه ، وراحَة الثوبَ طَيُّه . .

وقالوا : يقول الثوب : اطْوِنى أجَمِّلْك ، ويقول أيضا أكْرِمْنِى داخِلاً أُكرِمْك خارِجًا . .

---

(١) فعاجوا : عَطَفُوا إبلَهم عليه .

وقال رجل يهجو رَجلا برَثاثة الحال :

يأتيك فى جُبَّةٍ مُخرَّقَةٍ أطوال أعمار مثلها يوم
وطيلسانٍ كالآل يلبَسُه على قميص كأنه غلمُ

من ساء لبسه وصفت نفسه :

وبعد فقوام التجمل بالثياب أن لا يكون هناك اسراف ولا كبرياء وأن تكون الثياب نظيفة ، ومن هنا نرى كثيراً من العُقلاء مَنْ لا يأبَه للثياب فتَراهم يلبَسُون الثِّياب الخشِنة والمرقَّعات ، ولكنْ مع مُراعاةِ النظافة .

قال ابن عباس رأيتُ عمرَ بن الخطاب يطوف بالبيت وإزارُه مرفوع بأدمَ — جلدٍ — وكان له — لعمر — رضى الله عنه قميصٌ قيمتُه أربعة دراهم ، وقال : إنى أخشى أنْ أُسْأَلَ عن لِينه يومَ القيامة ! فبكى سالم غلامُه وقال له : رأيتك قبل الخلافة لبستَ ثوبا بأربعين ديناراً ، فاستحسَنْتُه ، فقال : يا سالم ، إنى كنت لم أَنَلْ شيئاً إلا طلبتُ ما فوْقَه ، فلَمَّا نِلتُ الخلافة علِمْتُ أنْ ليْسَ فوقَها إلا الجنة ، فدَعْنِي أَطلُبْها .

* * *

ودخل العالِم النَّسَّابة النَّحار العذرى على مُعاوية فى عباءةٍ له فاحتَقَره ، فرأى ذلك النَّحَّار فى وَجْهـــــه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، ليْسَت العباءة تُكلِّمُكَ ، إنما يكلِّمُكَ مَنْ فيها ، ثم تكلم ، فلَمَّا سَمِعَه ثم نَهَضَ ولم يسأَلْهُ ، فقال معاوية : ما رأيتُ رجُلاً أحقرَ أوَّلاً ولا أجلَّ آخِراً منه . .

ودخل محمد بن كعب القُرظِيّ — من التابعين — ومن أفاضل أهل المدينة عِلْماً وفِقْهاً — على سليمان بن عبد الملك فى ثياب رَثَّة ، فقال له سليمان

ما يحملُكَ على لُبْسِ مثل هذه الثياب ؟ فقال : أكْرَهُ أنْ أقولَ الزُّهْدَ فأُطْرِيَ نفسي [١] أو أقول الفَقْرَ فأشكُوَ رَبِّي ؛

ودخل سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب على هشام بن عبد الملك فى ثياب وعليه عمامة تخالفُها . فقال له هشام : كأنَّ العِمامة ليستْ من الثياب ؟ قال : إنَّها مُستَعارَة ؟ فقال له : كم سِنُّك ؟ قال : ستونَ سنَة ، قال : ما رأيتُ ابن ستين أبْقَى كَدَنَةً منك ! — الكدنة : كثرة الشحم واللحم أو السمن والامتلاء — ما طعامُك ؟ قال : الخبز والزَّيتُ ، قال : أمَا تأجُمُها ؟ — أى ما تكرهُهما — قال : إذا أجَمْتُهُما تركتهما حتى أشتَهِيَهُما ، ثم خرج من عنده وقد صُدِع ، فقال : أترونَ الأحول قد لَقَعَنِي [٢] بعينه فماتَ مِنْ تِلْكَ العِلَّة . . .

* * *

ونُظِرَ إلى عمرو بن العاص على بَغْلَةٍ قد شَمِطَ وجهها هَرَماً [٣] فقيل له : أتركَبُ هذه وأنت على أكرم ناخِرَة بمصر [٤] ؟ فقال : لا ملل عندى لدابَّتِي ما حملت رِجْلَيَّ ، ولا لامرأتى ما أحْسَنَت عِشْرَتى ، ولا لِثَوْبِي ما ستر

---

(١) فأطْرِى من الإطراء وهو مجاوزة الحد فى المدح .

(٢) لقعه : أصابه بعينه لما يصيب العائن المعين ومثله زلقه قال تعالى (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) .

(٣) ناخرة من النخر وهو صوت يمد فى خياشيم الأنف يريد : وأنت وال على مصر وقال بعضهم : معناه : وأنت لك أكرم ناخرة وهى شجاعة الخيل .

(٤) شمط وجهها : أبيض وجهها وذلك كناية عن ضعفها .

عورَتى ، ولا لصديقى ما حفظ سِرّى ، إنَّ المَلَلَ مِن كواذب الأخلاق .

* * *

وقال أبو هَفَّان — وهو عبد الله بن أحمد بن حَرْب المهزمىّ العبدى ، رواية عالم بالشعر والغريب شعره جيد إلا أنهُ مقل ، وهو من شعراء الدولة الهاشمية : —

تعجبت دُرٌّ مِن شَيْبى فقلت لها ... لا تَعْجَبى قد يلوحُ الفَجْرُ فى السَّدَفِ
وزادَها عجباً أن رُحْتُ فى سَمَلٍ ... وما درتْ دُرٌّ أنَّ الدرَّ فى الصَّدَف

وقال أيضاً :

لعَمْرى لَئِنْ بِيعَتْ فى دارِ غُرْبَةٍ ... ثيابى أَنْ ضاقتْ عَلَىَّ المآكِلُ
فما أَنا إلا السيفُ يأكُلُ جَفْنَهُ ... له حِلْيَةٌ مِن نَفْسِهِ وهو عاطِلُ

وقال عمرو بن مَعْدِيكَرِب :

لَيْسَ الجمـــالُ بِمِئْزَرٍ ... فاعْلَمْ وإنْ رُدِّيتَ بُرْدا
إنَّ الجمـــالَ معادِنٌ ... ومناقِبٌ أَورثْنَ مَجْـــدَا

فهذا وأمثاله ممن لا يبالون الملابسَ وجمالَها وأنَّما يَرَوْن التجمل مِن شِنْشِنَةِ النِّساء والصِّغَار ، وإنَّما يعتدُّون بجمال النفوس وَبُعْدِ هِمَمها . قال يحيى بن خالد بن بَرْمَك للعتابى فى لباسِه — وكان لا يبالى ما لبس — : يا أبا على ، أَخْزَى الله أَمراً رضِىَ أن يرفعَهُ هيئتاه : جمالُه ومالُه ، فإنَّما ذلك حَظُّ الأدنياء مِن الرِّجال والنساء ، لا والله حتى يَرْفَعَه أَكْبَراه : هِمَّتُه وَنَفْسُهُ ، وَأُصْغَراهُ : قَلْبُهُ وَلِسَانُه : قولُه : وَاصغَرَاه : قلبه ولسانه ، معناه أن المرء إنَّما

يعلو الأمورَ وَيَضْبِطُهَا بِجَنَانِهِ وَلِسَانِه ، وقال زهير بن أبي سُلْمَى :

لِسَانُ الفَتَى نِصْفٌ ونِصْفٌ فُؤَادُه فلم يَبْقَ إلاَّ صُورَةُ اللَّحْمِ والدَّمِ
وكائِنْ ترى مِن صامِتٍ لك مُعْجِبٍ زيادتُهُ أو نقْصُهُ فى التكلم

« وبعدُ » فإنَّ رِفْعَةَ النَّفْسِ وعُلُوَّ قَدْرِها لا يباين التجملُ والعناية باللابس وإنما المعيب أن يكون وَكْدَكَ التجملُ والاهتمامُ بالمظهر ولا يَعْنِيكَ بعد ذلك أن تكون جميل المَخْبَر .

وقالوا : البسْ البياضَ والسَّوادَ ، فانَّ الدهر هكذا : بياضُ نهارٍ وسوادُ ليل .

ومما قيل فى السَّواد قول قيس بن الأسلت :

رأيتُكِ في السَّوادِ فقلت بَدْرٌ بدا من ظُلمةِ الليل البهيم
وألقيتِ السوادَ فقلت شمسٌ تحتْ بِشُعاعِها ضوء النجوم

* * *

وَقَدِمَ أحد التِّجار إلى المدينة بحمل من خُمُرِ العراق [1] فباع جميع ما قدم به إلا السُّود فلم تَنْفُقْ [2] ، فشكا ذلك إلى الدَّارِمِيِّ [3] الشاعر الظريف — وكان فى أيام عمر بن عبد العزيز — ، وكان قد تَنَسَّكَ وَتَعَبَّدَ ، فعمِلَ بيتين وأمر من يُغَنِّى بهما فى المدينة ، وهذان البيتان هما :

---

(١) الخمر : جمع خمار وهو ما تغطى به المرأة رأسها .

(٢) نفقت السلعة نفاقاً راجت ورُغب فيها .

(٣) انظر أخبار الدارمى فى الجزء الثالث من الأغانى .

قل للمليحة فى الخمار الأسود ما ذا صنعتِ بزاهدٍ مُتعبِّدِ
قد كان شَمَّرَ للصلاةِ ثيابَه حتى وقفتِ له بباب المسْجِدِ

فشاع الخبر فى المدينة أن الدارى قد رجع عن زهده وتعشَّقَ صاحبة الخمار الأسود ، فلم يبق فى المدينة مَليحةٌ إلا اشترتْ لها خماراً أسود ، فلما أنفَدَ التاجرُ ما معَهُ رجعَ الدارِى إلى تعبده وعَمَد إلى ثياب نسكه فلبسَها ولزِمَ المسْجِد .

* * *

وقال بعضهم فى لابسة الأحمر :

وَشَمْسٍ مِن قضيب فى كَثيب تبدَّتْ فِى لِباسٍ جُلَّنَارى [1]
سَقَتنى ريقها صِرْفاً وحيتْ بوجْنَتِها فهاجَت جُلَّ نارِى

وَقالَ آخر فى لابسة ثوب خمرى :

فى ثَوْبها الخمرىِّ قد أقبلت بوجنة حمـــــراء كالجمْر
فَملتُ سُكراً حين أبصرتها لا تنكروا سكرى من الخمر

وسُئِلَ بعضُ العرب عَنِ الثياب ؟ فقال : الصفر أشكل ، والحمر أجمل ، والخضر أقبل ، والسود أهول ، والبيض أفضل . وقال أفلاطون : الصبغ الشقائق والروائح الزعفرانية تسكن الغضب ، والصبغ الياقوتى والروائح الوردية تحرك السرور ، زَمّ مَن حَسُنَ لباسُه ولَؤُمَ فِعْلُه :

---

(١) الجلنار : زهر الرمان .

نظر أرسطو إلى رجُلٍ حَسَنِ اللِّباسِ سيئِ الكلامِ فقال له : يا رجُل ، تكلَّم على قدر لباسك أو البَسْ على قدْرِ كلامك .

وقالوا : فلان ثيابُه ترفعه ونفسُه تضعُه .

وقالوا : ثوبٌ نظيف ورُوحٌ سخيف .

وقال المتنبي :

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيما حُسْنُ بِزَّتِهِ - وهل يَرُوقُ دفيناً جَوْدَةُ الكَفَنِ

« المضيم : المظلوم : والبِزَّة : اللباس » .

وقال بعضهم :

أَرَى حُلَلاً تُصانُ على رِجالٍ وأعراضاً تذال ولا تُصانُ

وقال آخر :

فَترى خسِيسَ القَوْمِ يَتْرُكُ عِرْضَهُ دَنِساً ويمسحُ نعلَهُ وشِرَاكَها

وقال غيره :

استجيدوا الثياب ، إنَّ حِمَارَ السَّوْءِ تخفى عُيُوبُهُ بالجِلالِ .

« الجلال : جمع جل ، وهو الذى تلبَسه الدابة لِتُصان به » .

* * *

حضهم على التطيب :

ذُكِرَ لبعض عقلاء المتصوفة هؤلاء الذين يتقشَّفُون ، فقال : ما علِمْتُ أن القذَرَ من الدِّين . .

وفى الحديث (حُبِّبَ إلَىَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ والطيب) .

وفيه (خَيرُ طيب الرجالِ ما ظهرَ ريحه وخَفِيَ لونُه [1] وخيرُ طيبِ النساء ما ظهر لونُه وخفِيَ ريحُه) .

وأنشد ابن الأعرابى :

خَودٌ يكونُ بهـا القليل تَمسُّهُ ... مِنْ طِيبها عَبِقاً يَطِيبُ ويكثُرُ
شَكَرَ الكرامَةَ جلدُها فصفَا لها ... إنَّ القبيحَةَ جِلدُها لا يَشكُرُ

وقال كعب بنَ زُهير يمدحُ قوماً :

المطعِمُونَ إذا مَا أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ... وَالطيِّبُونَ ثيابًا كُلَّمَا عَرِقُوا

وقال العباس بن الأحنف :

وأنتِ إذا مَا وطِئْتِ الترا ... بَ صار ترابُكِ للناسِ طِيبا

وقال أبو الرُّبيس — شاعرٌ أمَوىّ — يمدح أسيلم بن الأحنف الأسدىّ :

ألا أيُّها الركْبُ المخبُّونَ هل لكم ... بسَيِّدِ أَهْلِ الشامِ تُخْبَوْا وترجعُوا
مِنَ النَّفَرِ البيضِ الذينَ إذا اعْتَزَوْا ... وهابَ الرجالُ حَلْقَةَ البابِ قَعْقَعُوا
جَلاَ المِسْكُ والحَمَّامُ والبيضُ كالدُّمَى ... وفَرْقُ المَدارِى رأسَهُ فهْوَ أَنْزَعُ

« المخبُّونَ : الذين تَخُبُّ بهم دوابُّهم من الخبب : وهو السرْعة ، وتُخْبَوا فعل مجهول كحبَا الرجل يحبُوه حَبْواً : أعطاه ، والاسم : الحِباء ، والبيض لا يريدُ بيضَ الألوان وإنما يريدُ نَقَاء الأعراض من الدنس والعُيوب ، وإذا اعتزَوا : إذا انْتَسبوا ، وقعقعوا : أى قعقعوا حلقة الباب من القعقعة مصدر قعقع الشىء إذا حركه فسُمِعَ له صَوْتٌ ، يصفُ الممدوحَ بأنه مِنَ القوم الكرام الذينَ يَقدُمُون على الملوك بِشَرَف أحْسابِهم وكرم أنْسابهم ولا يهابون قعقعة أبوابهم كاللئام الذين خَمُلَ ذكرهم وقصرت هِمَمُهم ، قال المبرد : يخبر

---

(١) ما ظهر ريحه وخفى لونه كالمسك والعنبر والعود ، وأما العكس فكالزعفران .

بجلالتهم ومعرفتهم بأقدارهم وثقتهم بأن مثلهم لا يرد وقد قال جرير للتيم خلاف هـذا وهو قوله :

قومٌ إذا حضرَ الملوكَ وفُودُهم نُتِفَتْ شوارِبُهُم على الأبوابِ

وجَلاَ : كشف ، من قولهم جلا الأمرَ : كشفَهُ وأظهرَه ، والدمى جمع دُميه وهى الصورة المصوَّرة التى يبالغ فى تحسينها ، تُشَبَّه النساء البيض بها ، والمدارى جمع مدراه يريد المشط أو شيئاً شبيهاً بالمشط ، وأنزع من النَّزَع بالتحريك — وهو انحسار الشعر من أعلى الجبينين » .

وقال الشَّعْبِيّ : الرائحةُ الطيِّبَةُ تزيدُ فى العَقل .

وقال آخر : مَن طابَ ريحُهُ زادَ عَقْلُه ، ومَنْ نَظُفَ ثوبُه قَلَّ هَمُّه .

وقال بعضهم فى وصف البُخُور :

بخورٌ مِثْـلُ أنفاسِ الحبيب وَطِيبٌ قد أخلَّ بكلِّ طِيبِ
يظلُّ الذيلُ يَسْتُرُهُ ولكنْ تَنِمُّ عليـه أنفاسُ الجنُوبِ
إذ ما شمَّ أنفُ حَنَّ قلبٌ كأنَّ الأنفَ جاسُوسُ القلوبِ

وقد تمدحوا بطيب عَرف النساء وأشاروا به .

قال امرؤُ القَيس :

ألَمْ تَرَيانِى كلما جِئْتُ طارِقا وَجَدْتُ بِهـا طِيباً وإن لم تَطَيَّبِ

وقال آخر :

أتاها بِعِطْرٍ أهلُها فتضاحَكَتْ وقالت : وَهَلْ يحتاجُ عِطْرٌ إلى عِطْرِ

وقال الأعشى :

ما رَوْضَةٌ مِن رِياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضْراء جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ

يُضاحِكُ الشّمْسَ مِنها كَوْكَبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ[1]
يَوماً بِأَطْيَبَ مِنْها نشر رائحةٍ ولا بأحْسَنَ منها إذْ دَنا الأُصُلُ[2]

وقال عباس بن الأحنف :

ذَكَرْتُكِ بالرّيحانِ لَمّا شَمِمْتُه وبالرّاحِ لمّا قَابَلَتْ أَوْجُهَ الشرْبِ
تذكّرْتُ بالرّيحانِ مِنكِ رَوائحاً وبالتراجِ طَعْماً مِن مُقَبِّلِكِ العَذْبِ

وقال سُحَيم بنُ وَثِيلٍ الرِّياحِيّ :

فما زال بُرْدِي طَيِّباً مِن ثِيابِها إلى الحَولِ ، حتى أَنْهَجَ البُرْدُ بالِيا[3]

وقال عباس بن الأحنف :

وَجَدَ النامُ ساطِعَ المِسكِ من دِجْلَةَ قد أَوْسَعَ المشارِعَ طِيبا
فَهُمُ ينكِرونَ ذاكَ وما يَدْ رونَ أنْ قد حَلَلْتِ مِنْها قَريبا

وقال آخر :

جاريةٌ أَطْيَبُ مِن طِيبِها والطِّيبُ فِيه المسك والعنبر
ووجهُها أحسن من حَلْيِها وَالْحُلْيُ فِيه الدُّرُّ والجوهر

---

(١) كوكب هو معظم النبات ، وعن بعضهم : الكوكب من كواكب السماء معروف ويُشَبَّهُ به النَّور ، وشرق — بكسر الراء — : ريان ممتلىء ماء ، ومضاحكته للشمس كناية عن حسنه ونَضرته ومؤزر بعميم النبت يعنى أنه كالإزار له ، ومكتهل من اكتهل النبت : تمّ طوله وظهر نَورُه .

(٢) الأصل جمع أصيل وهو العَشِيّ .

(٣) أنهج الثوب : بَلِيَ أو أخذ فى البلى .

وقال آخر :

أرَى كُلَّ أرضٍ دُسْتِ فيها وإن مَضتْ ... لها حجَجٌ يزداد طيباً تُرابُها[1]

وأول من وصف طِيب المواضع التى وطئها المحبوب هو محمد بن عبد الله الثقفى النميرى فى أبياته فى زينب بنت يوسف أخت الحجاج ، وذلك حيث يقول — ونوردِ سائر الأبيات .

تَضَوَّعَ مِسْكاً بطنُ نَعْمانَ أنْ مشَتْ ... به زينبُ فى نِسوةٍ عَطِرَاتِ[2]

لَهُ أرَجٌ مِن مُجْمَرِ الهندِ ساطِعٌ ... تَطَلَّعُ رَيَّاهُ منَ الكَفَرَاتِ[3] —

تَهادَيْنَ ما بينَ المُحَصَّبِ منْ مِنًى ... وأقبلْنَ لا شُعْثاً ولا غَبَرَاتِ[4]

أعانَ الذى فوق السموات عرشُه ... مواشِيَ بالبطحاء مُؤْتَجِرَاتِ[5]

مَرَرْنَ بِفَخٍّ ثُمَّ رُحْنَ عشِيَّةً ... يُلَبِّينَ للرحمن مُعْتَمِرَاتِ[6] —

يُخَبِّئْنَ أطْرافَ البَنانِ من التُّقَى ... وَيَقْتُلْنَ بالألحاظ مُقْتَدِراتِ[7] —

---

(١) وإن مضت لها حجج : وأن مرت عليها أعوام .

(٢) عطرات : تروى خفرات .

(٣) يروى صدر هذا البيت : له أرج بالعنبر الورد فاغم ، والكفرات : جمع كَفِر بفتح الكاف وكسر الفاء : العظيم من الجبال .

(٤) المحصب : موضع بين مكة ومنى وهو إلى منى أقرب .

(٥) مؤتجرات : طالبات للأجر والثواب وتروى : مُعتجرات : أى لابسات المعاجر وهى أثواب تلفها النساء على استدارة رءوسهن ثم يتجلببن فوقها بجلابيبهن .

(٦) فخ : موضع بينه وبين مكة ثلاثة أميال .

(٧) يخبئن : تروى : يخمرن ويقال : ليست امرأة من الطائف تخرج إلا وعلى يديها قفازان للتقى .

تَقَسَّمْنَ لُبِّى يومَ نَعمانَ إننى رأيت فؤادى عارمَ النظرات[1]
جَلَوْنَ وجُوهاً لم تَلُحْها شمائمٌ حَرورٌ ولم يُسْفَعْنَ بالسَّبِرات[2]
فقلت : يعافيرُ الظباء تناولت نِياعَ غصونِ المَرْدِ مُهْتَصِرات[3]
ولما رأت رَكْبَ النُّمَيرىّ راعها وكن من أنْ يَلْفَيْنَهُ حَذِرَات
فأَدْنَيْنَ ، حتى جاوز الركبُ دونها حِجاباً من القَسِّىّ والحِبَرات[4]
فكدت اشتياقا نحوها وصَبابةً تَقَطَّعُ نَفْسى إثرَها حَسَرات
فراجعت نفسى والحفيظةَ بعد ما بَلِلْتُ رِداءَ العَصْبِ بالعَبَرات[5]

« هذا » وقد عابوا قولَ كُثَيِّر عَزَّةَ :

فما رَوْضَةٌ بالحَزْنِ طيبةُ الثَّرَى يَمُجُّ النَّدا جَثْجاثُها وعَرارُها[6]

(١) عارم النظرات : شديدها ، والعرام : الشدة والقوة والشراسة .

(٢) لاحه يلوحه لوحا : غير لونه ، والسمائم جمع سموم وهى الريح الحارة ، ويسفعن من سفعته الشمس والنار والسموم : لفحته وغيرت لون بشرته ، والسبرات جمع سبرة : شدة برد الشتاء .

(٣) اليعافير جمع يعفور وهو الظبى لونه لون العفر أى التراب : ونياع جمع نائع من ناع الغصن إذا حركته الريح يريد أن عناقهن فى امتدادها كأعناق الظباء ، والمرد : الغصن من ثمر الأراك ، ومهتصرات : معطوفات من اهتصر الغصن : عطفه وآماله .

(٤) القس : ضرب من الثياب ينسج من كتان مخلوط بحرير ينسب إلى قس وهى قرية من مصر على ساحل البحر بين الفرما والعريش ، والحبرات : ضرب من برود اليمن

(٥) العصب : برود يمنية مخططة .

(٦) الحزن : حزن بنى يربوع وفيه رياض كثيرة ، والجثجاث : من أحرار الشجر ينبت بالقيظ له زهرة صفراء كأنها زهرة عرفجة طيبة الريح تأكله الإبل إذا لم تجد غيره ، والعرار : بهار البرّ وهو نبت طيب الريح قال ابن برى : وهو النرجس البرى .

بِأَطيبَ من أَرْدَانِ عَزَّةَ مَوْهِنَا وقد أُوقدت بالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نارُهَا(١)

فقد روي أن امرأة عبد الرحمن بن مُلْجَمَ واسمها قَطام — قالت لكثير — لما زارها فى دارها فى الكوفة ليوبّخها على قتل على رضى الله عنه — بالله ، ما رأيتِ شاعرا قط أنقصَ عقلا ولا أضعفَ وصفا منك ، أرأيت لو أن زَنْجِيَّةً بَخَّرَتْ أردانَها بمندل رطب أما كانت تطيب ؟ ألاَّ قلتَ كما قال امرؤ القيس .

وأنشدت بيته الذى أسلفنا وهو : ألم تريانى . . . البيت . . . . فخرج وهو يقول :

الحقُّ أبلجُ لا يُخيلُ سبيلُهُ والحـــقُ يعرفه ذوو الألباب

« لا يخيلُ سبيله ، من أخالَ الأمرُ : اشتبه » .

وقد رأيت فى الأغانى أبياتَ كُثَيِّر على الوجه التالى :

فإنْ خَفِيَتْ كانت لعينك قُرَّةً وَإنْ تَبْدُ يوما لَمْ يَغُمَّكَ عارُها

مِنَ الخُفِراتِ البيض لم تَرَ غَليظَةً وَفى الحسب الضَّخْمِ الرَفيعِ نجارُها

فـا رَوضَةٌ بالحَزنِ طيبَةُ الثَرَى يَمُجُّ النَّـــدا جنجاتُها وَعَرارها

بأطيبَ مِن فِيها إذا جئتَ طارقا وقد أُوقِدَت بالمَندَلِ الرطبِ نارُها.

الحلى :

قال سيدنا رسولُ الله (لا تلْبَسُوا الحَريرَ ولا الدِّيباجَ ، ولا تَشْرَبوا فى آنِيَةِ الذَّهب وَالفِضَّة ولا تَأْكُلوا فى صِحافِها فإنَّها لهم فى الدنيا وَلَنَا فى الآخِرَة)

---

(١) موهنا : بعد دخولنا فى الليل .

وجاء فى كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ما يلى :

يحرم على الرجل والمرأة استعمال الذهب والفضة ، وعلة النهى عن استعمال الذهب والفضة للرجال والنساء واضحة ، لأن فى استعمالها تقليلا لما يتعامل الناس به من النقدين ، وكسرا لقلوب الفقراء الذين لا يجدون منهما ما يحصلون به على قوتهم الضرورى إلا بجهد عظيم ، بينما يرون غيرهم يسرف فيها غاية الإسراف ويحبسها عنده بدون مبالاة فيشعر ذلك قلوبهم ويترك فى أنفسهم أسوأ الأثر ، لذلك حرمت الشريعة الاسلامية استعمالها على الرجل والنساء إلا فى أحوال تقتضيها ، فأباحت للنساء ما تتزين به منها ، لأن المرأة فى حاجة ضرورية إلى الزينة ، فلها أن تتحلى بما شاءت من الذهب والفضة ، وكذلك أباحت للرجال التختم بالفضة لأنه قد يحتاج إلى أن ينقش عليه اسمه . فيسهل عليه استعماله ويكون آمنا عليه بلبسه فى يده . وكذلك أباحت اليسير الذى لا يضيق النقدين مما سيأتى بيانه .

فيحرم اتخاذ الآنية من الذهب والفضة ، فلا يحل لرجل أو امرأة أن يأكل أو يشرب فيها لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا فى صحافها فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة » ، وكذلك لا يحل التطيب منها أو الادهان أو غير ذلك . وكما يحرم استعمالها يحرم اقتناؤها بدون استعمال ، ويستثنى ما إذا قصد باقتنائها تأجيرها لمن يحل له استعمالها . وكذلك يحرم الأكل بملعقة الذهب والفضة واتخاذ ميل المكحلة منهما والمرآة وقلم الدواة والمشط والمبخرة والقمقم . وكذا يحرم اتخاذ فنجان القهوة من الذهب والفضة وظرف الساعة وقدرة التمباك «الشيشة» ونحوها . أما ما يحل

من ذلك ففيه تفصيل المذاهب .

* * *

« وبعد » فكما يُعَدُّ الافراط فى الزينة كافَّة عاباً فإنَّ الإفراط فى التحلى بالحلىّ يُعَدُّ من أعيَبِ العيوب ، وهو عُنوان السَّخَف وفَسادِ الذوق وقد أدرَكْنا نِساءنا فى الزمن القديم وهُنَّ يتنافسْنَ ويُغالين فى الحلىّ حتى لكأن السيدة حانوت صائغ مُتَنقِّل . . ولكن هذه البِدْعَة قد زالت أو كادت تزول بين الشريفات من نِسائنا وهذا دليلُ أناقَتِهِنَّ وتحسّن ذوقهن وإدراكهن أنَّ ما كانت عليه نِساؤنا فى الجيل المنصَرِمَ مِنَ الإفراط فى العناية بالحلىِّ والإكثار منها عملٌ غير لائق مُنافٍ للذوق السليم أما ما نراه من بعض الرجال من الإكثار من الحِلْيَة فى أيديهن وصدورهن فحسبهم أنهم يعدون فى ذلك من المتشبهين بالنِّساء ، وأىّ نِساء ! نسائنا المتبذِّلات . . .

الى نساء اليوم :

ولمناسبة عبقرياتهم فى الثياب ننصح لنسائنا هذه النصيحة :

أظنُّكُنَّ لا تجهلْنَ أيتها الآنسات والسيدات أنَّ عَوْرَة المرأة بالنسبة إلى الرجل هو كلُّ جسمها ما عدَا وَجْهَها وكفّيها ، ومعنى ذلك أنه لا يجوز للرجل المسلم أن يَنْظُرَ منكن إلا إلى الوجه والكفَّين ، وأنَّكُنَّ من جِهَتِكُن يجب عليكن أن تجْهَدْنَ وتَعْمَلْنَ على أن لا تُمَكِّن الرجل الأجنبى عنكُنَّ من أن يَرى أىَّ عُضْوٍ من أعضائكن ما عدا الوجه والكفَّين ؛ ولقد ذهبت طائفة من علمائنا أنَّ عورَةَ المرأةِ جميعُها ما عَدا الوَجْهَ ، وأمَّا بالنسبة إلى غير المسلم فقال الإمام مالك والشافعى وأحمد بن حَنْبلْ : يَحرُم على

المسلمة أنْ تكشفَ من جسدها لغير المسلم ولو وجهاً أو يداً ، وكذلك لا يجهلْنَ أن الثيابَ وإن كانَ الأفضلُ تقصيرَها بيدَ أنه لا يجوز بحال أن ترتفع عن القدم ، فاذا علمتنَّ هذا فكيف استسغتُن وأبحتُن لأنفسكنّ أن ترفعنَ ثيابكنّ إلى أنخاذِكن وإلى ما فوق أنخاذِكن !

كيف ترضَينَ أن يرَى الناسُ سيقانكن وأنخاذكُنّ وأعضاءكُنّ ! وماذا تقصِدْنَ بذلك وماذا تترامَين إليه بهذه البدعَة المنكرة الشنعاء التى ينبو بها الدين والفضيلة والأخلاق الكريمة النبيلة .

لقدفاتكُنّ وغاب عنكنّ أنكن بهذا الصنيع ابتذلتنّ أنفسكُنّ إلى أقصى حدود الابتذال ، ألا تدْرين أنّ أحبّ شيء إلى الانسان ما مُنع ! فاذا اعتاد الرجال القريبُ منهم والبعيدُ والصالح والطالح والشريف والدَّنيء والعلية والسّفلة رؤيَة سيقانِكن وأنخاذِكُن وأعضادِكُن فلا محالَة أنْ يزْهَدُوا فيكن وتقِلّ منزلةُ المرأة وجمالُها وأنوثتُها فى نظر الرجال . .

أنشُدكُنّ اللهَ ثم الواجبَ وأنشُدُكُنّ أنفسَكُنّ ومستقبلَكُنّ إلا ما أقلعتُنّ عن هذه البدعة المنكرة .

لقد كانَ النساء فى صَدرِ الاسلام طائفتَين : الحرائر والإماء ، وكان ما يُميز الحرائر من الاماء هو الاحتشامَ والكمال فكانت الحرائر يتقنّعنَ ولا يتبرّجْنَ أما الاماء فكن على العكس ، لا بأس بتبذُلهنّ وتبرّجهن وسُفورهن فأصبَح الحال والأسف يَكوى قلوبنا على العكس ، أصبح النساء العاملات من فلاحات وحضريات أدنى إلى الكمال من النساء الشريفات أو ما يسمين أنفسَهنّ راقيات . . .

أيتها الشريفات الكريمات تدبَّرْن هذه النصيحة وقفْن عندها مَلِيًّا وبادِرْن بالانتصاح بهـــا فان الأمرَ جدُّ خطير ! وأيُّ خطر فى أن تبتذلن أنفسكن وتعرضْن أجملَ ما فيكن من القواعد والسيقان والأخاذ على النظارة ، وفيهم الفسّاق ، والمجّان والشطّار وكلّ مَن هَبَّ ودَبَّ .

وما ذا أبقيْتنّ لبعولتكنّ ومَن سيكونون بعولتكنّ !

وليت شعرى مَن تقلّدْنَ فى ذلك ؟ وأىّ نساء رأيتنّ بهذه الحال ؟ لا نساء متمدينات بهذه الحال من التبرج والتهتك . اللهم إلاّ مَن لاخلاق لهن من الكرامة ممّن تحرّرْن من كل فضيلة من سواقط سائر الشعوب . وإلاّ فهاهنّ أولاء نساء الأمم المتمدينة على مرأى منا ومسمع نراهن محتشمات كاملات ممتازات فى الحشمة والكمال . عن كثير من نسائنا الراقيات إنهنّ جدّيات غير هازلات .

على أننا نحن الشرقيين إذا كنّا نفخر على الغربيين بشىء فهذا الشىء هو احتشام نسائنا وكمالهنّ كانَ ، أمّا الآن فأىُّ مفخرة بقيت لنسائنا بعد هذا التبرّج المُخزى والبِدْعَة التى ينعاها علينا العدُو قبل الصديق . والغربىّ قبل الشرقى والزنديق قبل المؤمن ... اللهم أسألك أن تهدِى قومَنا فإنهم لا يعلمون

ثياب المرأة العربية وحليها وطيبها :

وإذ أنّ ثياب المرأة العربية وحُلِيَّها وطِيبَها كثيراً ما تنبرى للناظر فى أشعار العرب وسائر آدابهم كان حقاً علينا أن نختتم هـذا الباب بإيراد ألوان من ثياب المرأة العربية وحليها وطيبها ، ووصفها والتعريف بها .

ثياب المرأة العربية :

لَبِست المرأة العربية ضروباً من الثياب مختلفا الفنون والألوان مما أخرجَتْه مَناسجُ اليمن وعُمان والبحرين والشام والعراق ؛ وما اجتلبته من بلاد فارس وسواحل الهند . ومنها ما رَقَّ نسجه ، وَدَقَّ خيطه ؛ وذلك ما تسمِّيه بالمهلهل والمُسَلْسَل والهفَّاف وما كَثُفَ حَوْكُه وضوعفت حواشيه ، وذلك ما تدعوه بالصَّفِيق ، والشَّبيع ، والحَصيف ومنها ما لم يخالِط لونَه لونٌ آخر . ولهن فى ذلك الأبيض ، والأسود ، والأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، والمُدمَّى — وهو ذو الحمرة القانية — والمُشرق — وهو ما كان وسطاً بين الحمرة والبياض: — والمفروق — وهو ما أُشْرِب بالزعفران — وما اجتمع فيه لونان قما فوقهما أو من ذلك المُشْرَب — وهو الذى يتماوَجُ بين لونين — وَالمخَطَّط والمسَهَّم — وهو ما أشبهت خطوطه أفاويقَ السهم — وَالمفرَّق — وهو ما اجتمع إلى لونه خطوط بيض — والنَّمِيق ، أو المُنَمَّق — وهو المنقوش ، والموَشَّى ، وهو ما اجتمع عليه الزُّخْرُف — والمُعَيَّن — وهو ما أشْبهت نقوشُه عيونَ النرجس — والمصَلَّب — وَهو ما تقاطعت خطوطه كتقاطع الصلبان — والمُذْهَب — وَهو ما حُبِك نسجه بخيوط من الذهب — وفيه يقول سُلْمىٰ بن ربيعة :

وَالبِيضَ يَرْفُلْنَ كَالدُّمَى فى الرَّيْطِ وَالمُذْهَبِ المَصُونِ[1]

وأما مادتها فالحرير . ومنه الدِّيباج ، والدِّمَقْس ، والسُّنْدُس ، وَالإستبرَق[2] .

(١) انظر هذا البيت وأبياتاً أخرى معه فى صفحة ١٦ .

(٢) الديباج : الحرير عامة ، والسندس : رقيقه ، والاستبرق : صفيقه أو ما حبك بالذهب منه ، والدمقس : القز .

والخَزُّ — وهو وَبَرُ دابة كالأرنب تدعى بذلك الاسم ، ويشبه الحرير فى ملاسته ونعومته — وَوَبَرُ الأرنب ، وليس كل الأرانب يُتخذ وبرها ، وإنما هُوَ نَوْعٌ خاص يُجْتَلَبُ من شمال العراق . والقطن ، والصوف ، والكتان ، وأشباهها .

وأما أنواعها فجَمَّةُ العدد ، مختلفة الهيئات . وأشملها وأعمها ما أنا سائقه إليك ومنه الشعار والدثار .

أما شعارها — وهو ما يلى جسدَها — فالصِّدار والمُجُول — وهما قميصان قصيران متقاربان لا أكمام لهما ، ودونَهما السَّراويل .

وأما دِثَارها — وهو ما يلى الشعار — فالدِّرع — وهو جلْبابٌ شامل يحيط بدثارها — والنطاق ، ويلبس دون الدرع — وهو ثوب تَشُدُّهُ المرأة إلى وسطها وترخى نصفه الأعلى على نصفه الأسفل — وإذا نحن قَرَّبناه إلى متناول العصر الحاضر قلنا أنه « مَلَكُوفٌ » مضاعف . ومن فوق هذين البَتُّ — وهو ثوب أخضر مهامل يحيط بجسم المرأة ويُقَنِّع جزء منه رأسَها ووجهها — فإن لم يكن البتُّ فالجُلَّة — وهو ثوب يظاهره ثوب آخر ويغلب أن يكون ظاهر الثوبين رقيقاً شفافاً ليَظهرَ ما يليـــه . وقد تطلق الجلة على الثوب المبطّن . وقد ترتدى فوق ذلك بصنف من الأردية ازدياناً واختيالاً أو تَصَوُّناً واحتشاماً .

ومن هذه الأردية العِطاف ، أو المِعْطَف — وهو رداء تلقيه على عِطْفَيْها وترسله على جسمها — والرَّيطَة — وهى مُلاءة ذات لِفق واحد أى شِقَّة واحدة .

— والحِبَرَة — وهى بُرْدٌ مُوَشًّى من بُرُود اليمن — وليس هناك وصف أدق لها من قول صبى لحسان بن ثابت لَسَعَهُ زُنْبُورٌ ولم يكن قد عرف اسمه فقال لأبيه : يا أبت لسعنى طائر كأنه ملتف فى بُرْدَىْ حِبَرَة يمانِيَة . وهى أغلى وأبهج ما ارتداه النساء فى ذلك العهد . وقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم الحواميم فى القرآن بالحِبَرَاتِ تنويهاً بها وإشادة بفضلها .

ومن أرديتهن المِرْط — وهى مُلاءة ذات شُقَّتين — وليس بين أرديتهن ما هو أعم استعمالا منهـــا . ومنها اللفاع — وهو رداء تلتفع به وهو « بالشال » أشبه .

ولهن غير ذلك الوِشاح — وهو شُقَّة مُرَصَّعة بالجواهر تشدها المرأة بين عاتقها وخَصرها — والسَّرَق . واحدتُهُ سَرَقة — وهى شِقَاقٌ من الحرير يلتفعن بها — والمِطْرَف — وهو رداء مربع من الخزّ موشىٌّ بالأعلام .

والعَمَرُ — وهو مِنديلُ الرأس — ولا يلبسه إلا الحرائر .

وهنالك المِيْدَعُ — وهو ثوب تضعه عند معاناة عملها فتصونُ به غوالِىَ ثيابها من الابتذال — وهو شبيه بما نَدْعُوهُ « بالمَرْيَلَة » قال الضَّبِّىُّ :

أُقَدِّمُـــه قُدَّام نفسى وأَتَّقِى به الموت إنَّ الصُوفَ لِلْخَزِّ مِيدَعُ[1]

ولهن فى هذه المواطن المِسْح — وجمعه مُسوح — وفيه وفى السُّلُب — جمع سلاب — يقول لَبيد :

يَخْمُشْنَ حُـــرَّ أوجهٍ صِحاح فى السُّلُب السُّودِ وفى الأَمْساح

(١) والميدع يسمّى المِعْوَزَه قال صاحب اللسان : المِعْوزة كلّ ثوب تَصون به آخر ويقال : المِعْوَز والجمع معاوِز .

وأما ما تحتذيه فالخُفُّ — وهو ما طال من الأحذية — والقَفْش ، أو الكَوْث ، وهو القصير المكشوف منها . والجَوْرَب — وهو شِعار القدمين — والقُفَّاز ، ويُتخذُ للقدمين واليدين معاً ، وهو أدَقُّ نسجاً ، وأنضر لوناً من الجَوْرَب ، ولذلك شبهوا به الحِنَّاء فى اليدين والقدمين فقالوا : تقفزت الفتاة : إذا خضبت بالحناء .

* * *

حليها :

بلادُ العرب محفوفة الجَنَبات بمغاوص اللؤلؤ والمَرْجان . وهى فوق ذلك مُستَوْرَدُ للذهب والفضة والزُّمُرُّد والزَّبَرْجَد والعقيق والياقوت وأشباهها مما يهبط به التّجّار من مختلف الأقطار ليبيعوه باؤلؤ العرب ومَرْجانهم . فليس بِدْعاً بعد ذلك أن يتخذ النساء تلك الجواهر مَعْقِدَ زينتهن ، ومُجتلَب الأبصار إليهن ، فلم يتجاف عنها إلا واحدة من اثنتين : امرأة غَنِيتَ بفرط جمالها ، وبديع محاسنها ، فهى تتركها ثقةً بذلك الجمال ، واستهانة بأمر الحلى ، وتلك التى يَدْعُونَهَا العَاطِل ؛ وأخرى امرأة نكبها الدهر ، واستلب منها عزيزاً عليها ، فهى تَطْرَحُها كراهية للزينة ، وإيذاناً بالحِداد ، وهى التى يسمونها المَرهاء . فأما مَنْ سِوَاهُن فهن جميعاً حَالِيات .

تُقَلِّدُ الصَّبِيَّة العربيةُ صنوفاً من الحُلِىّ منذ بدء عهدها وأول نشأتها . وذلك حيث يقول الله جل ذكره حاكياً قول جهلة المشركين الذين إذا بُشِّرَ أَحَدهُم بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وهو كظيمٌ : « أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فى الحِلْيَة وَهو فى الخِصامِ غيرُ مُبِينٍ » فجعلوا التنشئة فى الحلية شعارَ الإناث ، ومَوْطِنَ الكناية عنهن .

أما ما عُقِدَت الخناصرُ عليه من صنوف حليهن ، وضروب زينتهن ، فذلك الذى أوْرِدُه عليك :

فهنالك التاج أو الإكليل ؛ وهو عِصابَةٌ مُرَصَّعَة بالجواهر تحوط جبينَ المرأة .

والقُرْط ، وهو ما عُلِّقَ فى أسفل الأُذُن . فأما ما علق فى أعلاها فالشَّنْف .

وَالِحبُّ وهو القُرط من حبة واحدة . ويسمى الخيط الذى يصل بين القرطين بالعُقَاب .

والخُرْص ، الحلْقه من الذهب أو الفضة فى أذن الصبى والصبية والمرأة . هـذا ، ويغلب على القرط أن تعلق به جوهرة أو لؤلؤة . وقد ضربوا المثل بقُرْطَى مارية بنت ظالم بن وَهْب الكِنْدى زوج الحارث الأكبر الغسانى ملك الشام ، وفيهما دُرَّتان كبيضتى الحمام لم يَرَ الراؤون أعجبَ ولا أوْضأ منهما ، وقد توارثهما نساء الملوك من بعدها حتى كان مآلهما إلى فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت زوجاً لعمر بن عبد العزيز قبل أن يَلِيَ الخلافة . فلما وَلِيها قال لها : إن أحببتِ المُقامَ عندى فضعى القَرطين فى بيت مال المسلمين ؛ فصدعت بأمره . فلم يزالا فى موطنهما من بيت المال حتى انتقض المُلْكُ الأُمَوِى فذهب خبرهما .

ومن أمثالهم : أَنْفَسُ مِن قُرْطَىْ مارِيَة . يضربونه فى كل غال وعزيز عليهم وقولهم : آتيك بما شئت ولو بِقُرْطَى مارية . قال قائلهم :

يأيها المَلِكُ الذى مَلَكَ الأنامَ عَلانِيَهْ
المال آخِذُه سوا ىَ وكنتُ عنه ناحيهْ
إنى أؤديه إليك ولو بِقُرْطَىْ ماريهْ

وهنالك القِلاَدة . وَهى ما يجعل بالعنق . ويسمى موطنُهما بالمُقَلَّد ، وأنفَسُها ما كان من اللؤلؤ وحده ، أو مفَصَّلاً مع غيره من الجواهر . ومنها الزمرد والزبرجد والياقوت والمرجان . وقد يضاف إلى ذلك الشَّذْر ، وهو حبات من الذهب . والجُمَان وهى لآلئ من الفضة ، وهم يسمون اللؤلؤة التى توسطت حبات العقد بالواسطة .

والتِّقْصَار أو المِخْنَقَة : قلادة لاصقة بالعنق .

وتسمى الأهداب المتدلية من القلادة على الصدر بالسُّمُوط ، وواحدها سِمْط . والسِّمط أيضا الخيط ينظم فيه اللؤلؤ وغيره .

والطَّوقُ : حَلْىٌ يحيط بالعنق ، ويغلب أن يكون ذلك للأطفال ، والسِّخاب : مَلاة من قَرَنفل أو ما يشابهه ، ويغلب أن تكون تلك للأطفال أيضا .

والسَّلْسُ : نظم ينظم من الخَرَز ، وللخرز صنوف جمة ، أجملها وأحبها الخَرَز اليَمَانِى ، وهو صنف من الخرز مُحَلى .

والوِشَاح ، وهو خيطان من الجوهر منظومان مختلفٌ بينهما معطوف أحدهما على الآخر .

والسِّوار أو الأَسْورة ، وهو نطاق المِعصَم . وهو من خصائص الحرائر ، وفى أمثالهم : « لو ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنى »

والمِعضَد أو الدُّملج : طوق العضد . وهو شبيه بالسوار لليد .

والخاتم والفَتخ ، وأوَّلهما ماله فَصٌّ ، والثانى ما لا فص له . وكلاهما يلبس فى أصابع اليدين والرجلين معاً .

والخَلخال ، وإنما يطلق على ماله رَنِينٌ ، فإن لم يكن له رَنين فهو الفَتَخ فإن غاص فى الساق فهو الخَدَمَة . وعند العرب صنف من الحلى يصاغ مُجَوَّفاً ويُحشَى بالطيب ويسمى ذلك بالكَبِيس .

ويسمى صوت الحلىّ بالوَسْواس أو النَّقْنَقَة .

والتميمة : خَرَزَةٌ تُعَلَّق فى عنق الصبى أو الصبية ، أو خيطٌ تعلق فيه التعاويذ بزعم أنه يدفع عنهم الآفات .

***

الطيب :

ومن لواحق الزينة عندهن بل من أُصولها ودعائمها الطيب وهو زينة العرب جميعاً — رجالاً ونساءً وأطفالاً .

والطيب عندهن على صِنْفَيْن : أعواد يُتَبَخَّرُ بها ، ودُهن يُدَّهن به فمن الأول الصَّنْدَل ، والسَّاج ، واللبنى — وهو شجر يسيل منه لبن كالعسل فى طعمه — والعُود . والنَّد — وهو المسك يعجن بالعود — والرَّند وهو شجر زكى الرائحة .

ومن أزهارهن الآس ، ومنه يعتصر دهن يُدَّهن به . ومن الثانى العنبر والمسك والغالية وهى أزكى صنوف الطيب عندهن ، وتتخذ من المسك يعجن بالعنبر والبان . فأما البانُ فشجر يسمو ويطول فى استواء وورقه كورق الاثل ، وثمرته كقرن اللوبياء ولها حَبٌّ يعتصر فيخرج منه ذلك الدهن .

على أن هنالك من العرب — وأخصهم أهل البادية — من يتواصَوْن اطراح الطيب وترك التضمخ به ويرون فى الماء غَناءً عنه وَمِنْ ذلك ما يقول

الحارث بن كعب المَذْحِجِي فيما يوصى به بنيه : وتزوجوا الأكفاء وليستعملن فى طيبهن الماء .

حضهم الرجال على أن يتجملوا لزوجاتهم :

وكما حضُّوا المرأةَ على أن تتجمَّل لزوجها حضوا الرجل على أن يتجمل لزوجتـــه .

قال بعض المفسرين فى قوله تعالى (ولهُنَّ مِثْلُ الذى عليهنَّ بالمعْرُوف) قال : يتزيَّنُ الرجل المرأة كما يُحِبُّ أن تتزيَّنَ له . . . وَيُرْوَى ذلك عن ابن عباس .

وقال عمر بن الخطَّاب : لا تُكْرِهُوا فتياتِكم على الرجل القبيح فإنَّهُنَّ يُحِبِّبْنَ ما تُحِبُّون .

وأتت امرأةٌ إلى عُمَرَ بزوجٍ لها أشْعَثَ أغْبَر فقالت : يا أميرَ المؤمنين : خلِّصْنِي مِنْ هذا ، فنظر عُمَر فعَرَف ما كَرِهَتْ منه ، فأشارَ إلى رَجُلٍ فقال : اذهبْ به فحمِّمْه وَقَلِّمْ أظْفارَه ، وَخُذْ مِنْ شَعَرِهِ وائتنِي به ، فذهب ففعَل ذلك ، ثم أتاه ، فأومأ إليه عمر . أنْ خُذْ بيدها ، فأخَذَ بيدها وهى لا تعرفه ، فقالت : يا عبد الله ، سُبْحَانَ الله ، أبين يَدَىْ أمير المؤمنين تفعل هذا ؟ فلما عَرَفته ذهبتْ معه ، فقال عمر : هكذا فاصنعوا لهن ، فوالله ، إنهُنَّ لَيُحِبِّبْنَ أن تتزيَّنُوا لهُنَّ كما تُحِبُّون أن يتزيَّنَّ لكُم .

وَسَمِع عمر امرأةً فى الطواف تقول :

فمنهُنَّ مَنْ تُسْقَى بِعَذْبٍ مُبرِّدٍ نُقاخٍ فتلكمْ عنـد ذلك قَرَّتِ[1]

(١) النقاخ : الماء البارد العذب الصافى الخالص ، وقرّتِ : استقرت من قرّ بالمكان

ومنهن من تُسْقى بأخضرَ آجِنٍ أُجاجٍ فاولا خشيةُ الله فرّتِ[1]

ففهم عمر شكواها واستدعى زوجَها فرأى رجُلاً قبيحا ، فخيّره ، بين خمسمائة درهم أو جاريةٍ من الفَيْء على أن يُطَلِّقها ، فاختارَ خمسمائة درهم ، فأعطاه إياها فطلقها .

ودخَل عِمرانُ بن حِطانَ على امرأته وقد تزينت ، وكانت امرأةً جميلة ، وكان هو قصيراً قبيحا ، فاما نَظَرَ إليها ازدادَتْ فى عينه حُسْناً ، فلم يستطِعْ أن يصرفَ بصرَه عنها ، فقالت : مالكَ ؟ قال : أصبحْتِ والله جميلةً ! فقالت : أَبْشِرْ ، فإنى وإياك فى الجنة ، قال : مِنْ أيْنَ عَلِمْتِ هذا ؟ قالت : أُعْطيتَ مِثْلِى فشَكَرْتَ وأعطيتُ مِثْلَكَ فصَبَرْتُ ، والشاكر والصابرُ فى الجنة ، فخجِلَ ونهاها أن تعودَ لمثل ما قالت ...

وخطب أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فاطمةَ بنتَ رسول الله صلوات الله عليه ، فقال لهما رسول الله :

« إنها صغيرة ! وخطبها علىٌّ رضى الله عنه فزوَّجَها منه . وكان سِنُّ فاطمةَ إذ ذاكَ خمسَ عشرة سنة وسنُّ علىٍّ احدَى وعشرين سنةً وأربعة أشهُر وكان بينَ علىٍّ وبينَ أبو بكر فى السن ثمانى عشرة سنة ، وبين على وعمر ثمان سنين » .

* * *

وتزوَّجَ رَجُلٌ على عهد عُمَرَ ، وكان قد خَضَبَ لِحيَتَه ، فنصل[2] خِضابُه فاستعدى عليه أهلُ المرأة عُمَرَ ، وقالوا : حَسِبْناهُ شابًّا ! فأوجَعَهُ عُمَرُ

---

(١) ماء أجاج : ملح أو مُرّ .

(٢) نَصَلَ خِضَابُه : زالَ خضابه .

ضرباً وقال له : غَرَرْتَ القَوْم . .

* * *

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

أَلا يا عِبَـــادَ اللهِ قَلْبِي مُتَيَّمٌ بِأَحْسَنِ مَنْ صَلَّى وأَفْبَحِهِم بَعْـلاَ
يَدِبُّ عَلَى أَحْشَائِهَا كُلَّ لَيْلَةٍ دَبِيبَ القَرَنْبَى يَقْرُونَقاً سَمَلاَ

« انظر باب الـكفاءة تجد شرح هذين البيتين » .

obeikandl.com